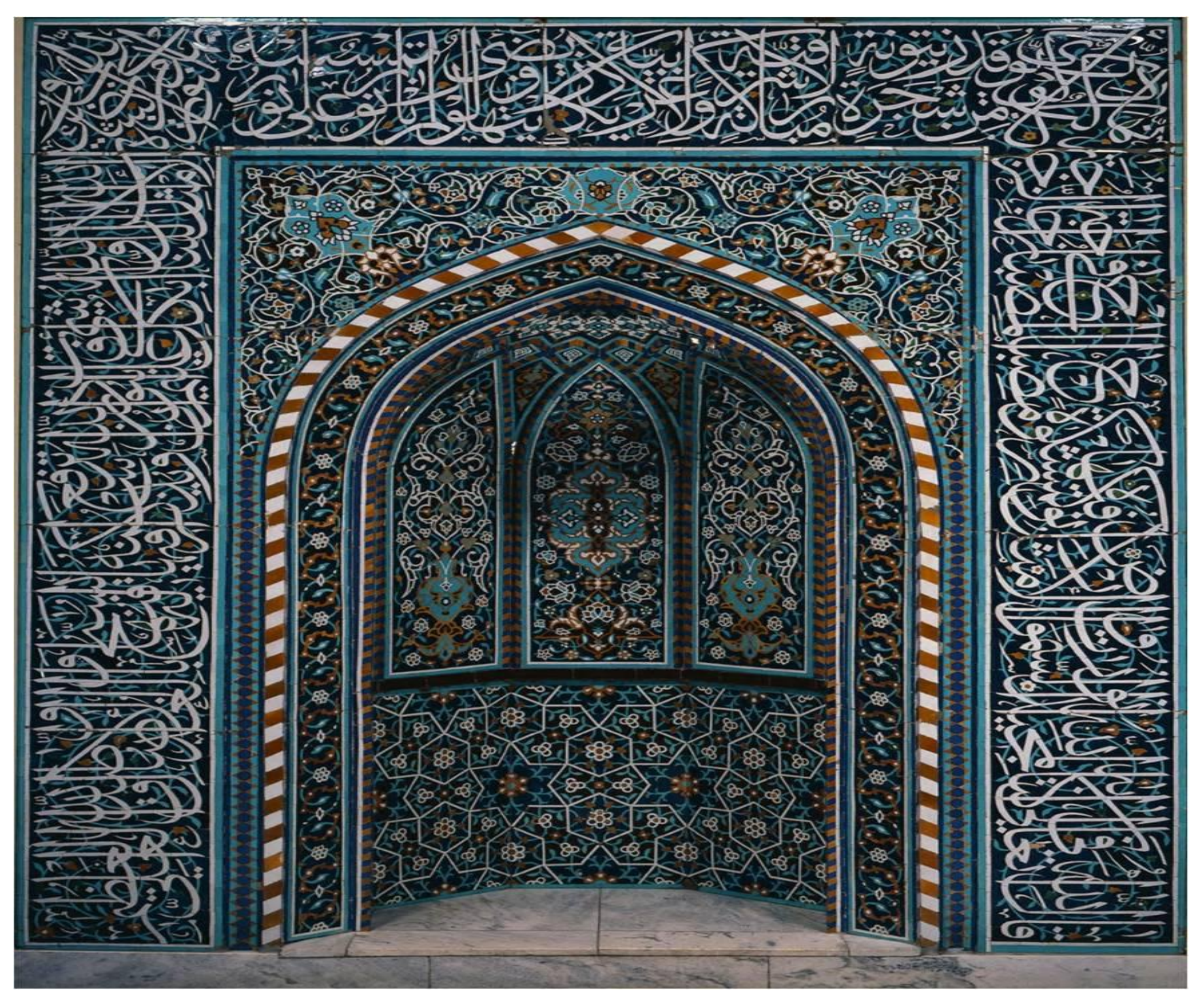
أحزابُ المعارضة السّياسيّة الدّينيّة في صدرِ الإسْلامِ

الخَوارِجُ وَالشِّيعة

THE RELIGIO-POLITICAL OPPOSITION PARTIES IN EARLY ISLAM
I. THE KHAWĀRIJ. II. SHI'ITES



يوليوس ڤلهوزن

JULIUS WELLHAUSEN

ترجمة عن الألمانيّة

عَبد الرّحمن بَدوي

TRANSLATED BY
ABDEL-RAHMAN BADAWI

دراسات إسلاميّة

ـ ٢٢ ـ

يوليوس ڤلهوزن

أحزابُ المعارضة السّياسيّة الدّينيّة
في صدر الإِسْلامِ
الخَوارِجُ وَالشِّيعة

ترجمة عن الألمانية

عَبد الرحمن بَدوي

ملزمة النشر والطبع
مكتَبة النهضَة المِصْرية
٩ شارع مدلى باشا ـ القاهرة
١٩٥٨



فهرست الكتاب

الخوراج

صفحة

الشيعة

صفحة

تصدير عام

الخوارج والشيعة هما أقدم الفِرَق السياسية والدينية في الإسلام، وأبرزهما أثراً في تاريخه الحيّ المضطرب؛ نشأتا في حضن حزبٍ واحدٍ هو حزب أنصار علي بن أبي طالب، فتعاديتا فيما بينهما، ثم شاءت ظروف الخصومة المشتركة ضدهما أن يتحالفا معاً على مضض، ولكن مبادئ كل منهما كانت منذ البداية في تعارض تام مع مبادئ الأخرى.

لقد كان السبب المباشر لنشأة الخوارج مسألة «التحكيم» في إبان المعركة الفاصلة بين أنصار علي بن أبي طالب وأنصار معاوية وعثمان، إذ رضى علي ـ كارهاً ـ «بالتحكيم»، ولكن الخوارج وقد انتهى التحكيم إلى مأساة لصاحبهم ثاروا على نتيجة «التحكيم» وقالوا: لا حُكْم إلا لله!

بيد أنّ هذا السبب المباشر هو أَوْهَى الأسباب: فإنّ نزعة الخروج كانت كامنة في النفوس بسبب ما آل إليه أمر الخلافة على عهد عثمان، وما انتهى إليه أمر الجماعة الإسلامية بعد مقتله من تفرق الأمة إلى فريقيْن متعارضيْن متحاربيْن، لا لسبب من أسباب الدين، بل لأسباب الدنيا، أعنى الحكم ومغانمه والتطلع إلى مراكز الرياسة والسيطرة ـ كل هذا ولم

يمضِ على وفاة الرسول إلا ثلاثون عاماً، مما كان في الواقع خيانة لجوهر الإسلام بوصفه ديناً وعقيدة، لا مذهباً في السياسة تنتحله أحزاب.

أحس بهذا نفر من غلاة المتشددين في الدين المتمسكين بالعقيدة الدينية في صفائها الخالص بمعزل عن كل سياسة، فانتهزوا فرصة «التحكيم» وكشفوا عما كان يغلى في نفوسهم من ثورة على ما آلت إليه أوضاع الخلافة والحكم على عهد عثمان وفي خلافة عليّ القصيرة. فهذا هو الدافع الحقيقي لنشأة الخوارج، لا ذلك السبب التافه العارض: مسألة «التحكيم». ومن هنا كان مذهبهم تعبيراً عن تيار عميق الشعور في النفوس الشديدة الإيمان. ومن هنا أيضاً كانوا يمثلون تياراً أصيلاً في طبيعة تطور أي دين من الأديان، وإنْ اختلفت الأسماء في الديانات المختلفة. وكان لا بد من ظهوره في أوقات متباينة على مر العصور، وإن لم ينتحل أصحابه هذا الاسم صراحة نظراً لاعتبارات سياسية أو ملابسات وضعية.

وخلاصة هذا التيار: العود إلى «الكلمة» الأصيلة للدين معبراً عنها في الكتاب المقدس الذي أتى به، دون تأويل ولا ترخُّص، بل بتشدُّد في الفهم لا يقبل المساومة

والالتواء، ولهذا يدعو إلى الطاعة العمياء لما ورد في هذا الكتاب أو ما أتى به صاحب هذا الدين من قواعد وأحكام وطرائق وسلوك. وهم يتشددون في التمسك بعمود الدين ضد جميع التيارات والفرق والأحزاب التي تبدو لهم قد حادَتْ عنه أو تأولت فيه. ولذا كان مذهبهم «ضد» كل المذاهب الأخرى.

ففي الإسلام كان الخوارج ضد سائر المذاهب:

١ ـ في الإمامة كانوا ضد الشيعة الذين يقولون بأن الإمامة وراثية في أبناء علي بن أبي طالب، وضد المرجئة الذين أرجأوا الحكم إلى الله ليحكم بين الناس يوم القيامة معترفين كارهين بالأوضاع الفعلية التي أملتها القوة أو فرضها حد السيف ـ. ويرون أنّ من حق الأمة إسقاط الإمام (الخليفة أو الحاكم) الذي يحيد عن الطريق المستقيم الذي سنّه اللّه ورسوله، ويقررون أن الإمامة إنما تحق لمن تختاره الجماعة، أياً كان، ولو كان عبداً أسود. وفي هذا نزعة ديمقراطية أصيلة، ديمقراطية دينية إنْ صح هذا التعبير، ثاروا بها على النزعة الأرستقراطية التي أراد أهل قريش فرضها في اختيار الخليفة. وهم لهذا يطلقون على من يختارونه إماماً لقب «أمير المؤمنين». وتبعاً لهذه النظرية لم يعترفوا بالخلافة

إلا لأبي بكر وعمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك لمن اختاروهم هم. أما عثمان فلا يعترفون بشرعية خلافته إلا في السنوات الست الأولى منها، وعليّ اعترفوا بشرعية خلافته من بدايتها حتى معركة صِفّين.

٢ ـ وفي السلوك الإنساني الديني كانوا ضد جميع الفرق الأخرى: فلا يبررون بالإيمان الأعمال المنافية لما يقتضيه نصُّ الكتاب والسنَّة. إنما العبرة بالعمل. وقالوا إن كل كبيرة كفر، والله يعذب صاحب الكبيرة عذاباً دائماً؛ ودار مخالفيهم كُفْرٌ كذلك، فمن أقام في دار الكفر (أي في دولة غير دولة الخوارج) فهو كافر وعليه الخروج. بل تجاوزوا ذلك فقالوا إن من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة ثم أصر عليها فهو مشرك. فبينما قال المعتزلة إنّ مرتكب الكبيرة فاسقٌ أو في منزلة بين المنزلتيْن: الكفر والإيمان، وبينما أرجأ المرجئة الحكم فيه وقالوا إن الإيمان يُحْبط عقاب الفاسق وإن الله لا يعذب موحِّداً، والكفر هو الجهل بالله فقط، وما عداه من كبائر أو صغائر ليس من الكفر في شيء، نرى الخوارج وصفوا مرتكب الكبيرة بأنه كافر مخلّدٌ في النار. ولهذا عدّوا مخالفيهم «مرتدين» وحكم «المرتد» عن الإسلام القتل، ومن هنا جاءوا

بمبدأ قاسٍ غريب هو مبدأ «الاستعراض»: أي الاغتيال الديني، إذ يستحلون قتل مخالفيهم من المسلمين.

أما الشيعة فيمثلون نظرية الوراثة في المْلك، ويقصرون بيت المُلك على آل عليّ. والدوافع إلى هذه النزعة عديدة. أوّلها وأوضحها فكرة الدّم، الدم الملوكي الذي يجري في الأصلاب الزاكية ويعطي بنفسه الحقَّ في المْلك. وثانيها فكرة الخضوع لسلطان يستمد حقه في السلطان من غير طريق الجهد الإنساني، لأن الجهد الإنساني مُعرّض للمُشاحّة ومدعاة للتنافس والتحاسد والتباغض. فحسماً لأسباب التدافع والتناحر للوصول إلى مرتبة السلطان يوكل الأمر إلى مبدإٍ غير إنسانيٍّ، مبدإٍ لا معقول وقيمته في أنه لا معقول، فيفرض احترامه والخضوع له على الجميع على السواء. وفي هذا إراحة للناس من عناء التناحر على المناصب العليا! والناس مهما حرصوا على الكفاح لا بد توّاقون إلى الراحة والدعة، وفي ظل مبدأ الوراثة في الملك سيريحون أنفسهم من مشقة الطموح إلى السلطان.

وحتى يؤدي هذا الوريث الوظيفة المرادة له كان يجب أن يبالغ في صبغه بصبغة اللامعقول كلما واتت الأحوال أو دعا الشكّ إلى التقليل منه أو لمواجهة دعاوي الخصوم. ولهذا فكلما

توغل في اللامعقولية كان أدعى إلى تحقيق الغاية منه. ومن هنا نفهم ظهور مذاهب الغلاة الشيعة الذين ألّهوا علياً وقالوا بعصمة الإمام وبأنّ كل شيء بالتعليم لا بالتحصيل العقلي، وهذا التعليم مصدره الإمام المعصوم وحده، ومن هنا اقترن به السحر والتنجيم والطلسمات المخاريق؛ ولا بد لهم أيضاً من أجل ذلك أن ينتحل زعماؤهم صفات النبوة والرسالة، بل وأحياناً الألوهية. ومن أجل تفسير ذلك يقولون مثلاً إن روح القدس هي الله، وصارت في النبي ثم في علي، ثم في الحسن، ثم في الحسين، ثم في علي بن الحسين، ثم في محمد بن علي ثم في جعفر بن محمد بن علي، ثم في موسى بن جعفر، ثم في علي بن موسى بن جعفر، ثم في محمد بن علي بن موسى، ثم في علي بن محمد بن علي بن موسى، ثم في الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى، ثم في محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي، ـ فهؤلاء إذن آلهة حلت فيهم روح القدس على التناسخ الواحد عقب الآخر!

وتبعاً لهذا لا تكون الإمامة إلا بنص من السابق للاحق، بنص وتوقيف، وأنها قرابة، والإمام مصيب في جميع أحواله وأقواله، والأحكام كلها ترجع إليه فلا اجتهاد في أمور الدين. ولما ضعف أمر السلسلة انتهت إلى أغرب حلقاتها وآخرها، أعني إلى إمام طفل غاب وينتظرون رجعته

فهو الغائب المنتظر الذي سيظهر ليملأ الأرض عدلاً بعد أنْ مُلئت جوراً، فهذا هو «المهدي المنتظر» الذي تقدمت البشارة به. وكان طبيعياً أنْ يختلفوا في هذه الحلقة الأخيرة: فالسبعية ساقوا ذلك إلى الإمام السابع، محمد بن اسماعيل؛ والإثنا عشرية يسوقونها إلى الإمام الثاني عشر، محمد بن علي بن موسى بن جعفر.

وقد عمل الخيال الآريُّ الفارسيَّ عمله فأضاف إلى هذا كله ما أضاف من تهاويل وفروض تتفرع على النظرية الأصلية في الإمامة، وفي الوقت نفسه تشبع نوازعه نحو الثأر من سيطرة الجنس العربي الخالص، والانتقام النفسي للنقص الذي عاناه بإزاء العنصر المتفوق.

* * *

وكان طبيعياً أن تؤدي المبادئ العامة في السياسة والسلوك الإنساني إلى إيجاد مذاهب نظرية تستخلص النتائج وتتعمق الالزامات وتفلسف الآساس التي تقوم عليها، فكان عن ذلك كله ما عرف في علم الكلام باسم مقالات الخوارج، ومقالات الشيعة.

والكتاب الذي نقدمه اليوم إنما يقتصر على التاريخ السياسي لهذين الحزبين، السياسيين في النشأة، منذ نشأتهما حتى انهيار الدولة العربية الخالصة في تاريخ الإسلام،

فيؤرخ الحوادث والمعارك والحركات الثورية التي قام بها كل منهما للانتقاض على السلطة الحاكمة، سلطة بني أمية الذين اغتصبوا المْلك لأنفسهم ضد شرعية آل علي في نظر الشيعة، وضد شرعية الإمام المختار من كل الجماعة الإسلامية على مذهب الخوارج. إذ الحكم الأموي لا يستند إلى شرعية الوراثة في الملك، ولا إلى ديمقراطية الانتخاب العام بإجماع الأمة لأصلح الناس للإمامة، وإنما هو حكم القوة الباطشة الماكرة معاً الخلو من كل سبب أو سند يعترف به العقل أو تدعو إليه التقاليد والعرف.

وقد راعى مؤلف الكتاب أن يستخلص الوقائع من المصادر التاريخية الصافية، وأصفى مرجع لديه هو تاريخ الطبري بعد استخلاص أصدق رواياته وتجريح سائرها لأن الطبري كان يحشد كل ما بلغ إليه علمه من أخبار دون تمحيص ولا نقد؛ فجاء المؤلف فاستخلص أصدق الروايات، خصوصاً ما نُسب منها إلى أبي مخنف، أصدق رواة الطبري، ووثق به ثقة واسعة فيها إفراط غير قليل. ثم راح بعد ذلك يراجع المصادر الأخرى، وبخاصة «الكامل» للمبرد فيما يتصل بالخوارج، وابن الأثير فيما يتصل بالشيعة والخوارج معاً، «والكتاب المجهول المؤلف»، مستبعداً المؤرخين الذين

لا يثق بهم لما تبين فيهم من عصبية وهوى مثل اليعقوبي الشيعي الهوى.

وعَرَضَ الأحداث والوقائع في تسلسل نقدي متصل، حريصاً إبان هذا كله على إعطاء صورة دقيقة الملامح بادية الأسارير للأشخاص الذين يشاركون في هذه الأحداث أو يطبعون تلك الوقائع بطابعهم. وفي أحكامه على الأشخاص والحوادث كان يتخذ مقاييس من مقتضيات الأحوال السياسية، بغض النظر عن العاطفية المقترنة بهؤلاء الأشخاص في ضمائر أصحابهم أو خصومهم على مدى التاريخ: ومن هنا اتسمت هذه الأحكام بموضوعية وانفصالية تامّة بإزاء الأحداث والأشخاص، وهو المنهج التاريخي النقدي القويم. وهو في هذا مؤرخ سياسيٌّ فحسب، لا يحسب حساب العوامل غير السياسية: من دينية واقتصادية؛ ولئن كان قد أدخل في حسابه عمل العصبية العنصرية فإنه قد انتهى بها إلى نتائج تخالف ما اعتاد المؤرخون أنْ يصلوا إليه. فهو مثلاّ يقلّل، بل ينكر دور الفُرْس في تكوين العقائد الشيعية في تلك المرحلة، ويردها إلى العرب؛ ولا يقيم كبير وزن لكون أكثر أنصار الشيعة كانوا من الموالي، إذ يرجح عليهم دائماً دور العرب الخلّص في الأثر النهائي الناتج.

وهو لهذا يعد خير مصدر في تاريخ هذه المرحلة في تاريخ الخوارج والشيعة.

* * *

والمؤلف، يوليوس ڤلهوزن، سيد مؤرِّخي الإسلام بين المستشرقين غير مدافع. وقد أعانه على ذلك كله تكوينه الأول ناقداً للتراث الخاص بالكتاب المقدس في عهده القديم، نقداً بدأ منذ القرن التاسع عشر وتوفر عليه أعلام الباحثين في الساميّات، وسار هو في إثرهم وانتهى إلى نتائج بالغة الخطورة فيما يتصل بتحقيق صحّة أجزاء وأسفار من «العهد القديم»، واستطاع أن يكوّن في ميدان نقد الكتاب المقدّس مدرسة تنتمي إليه، ويقوم مبدأوها على «إثارة المشاكل، ووضع الأسئلة» ثم تأتي الحلول بعد ذلك بالتعاون مع الآخرين.

وبهذا الجهاز النقدي الدقيق انتقل ڤلهوزن إلى دراسة التاريخ الإسلامي بخاصّة، والدراسات العربية بعامّة. فقام بدراسات عديدة متفرقة جمعت فيما بعد في مجموع دراسات بعنوان: *Skizzen und Vorarbeiten* وأهم ما فيها:

١ ـ «بقايا الوثنية العربية»، برلين ط ١ سنة ١٨٨٧،

ط ٢ سنة ١٨٩٧ *Reste arabischen Heidentums* (الكراسة ٣ من المجموع المذكور).

٢ ـ «مقدمة إلى أقدم تاريخ الإسلام»، برلين سنة ١٨٩٩ *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (الكراسة ٦ من المجموع المذكور). والكتاب الأول يعتمد خصوصاً على كتاب «الأصنام» لابن الكلبي ولم يكن قد عرف بوجود نسخة منه وإنما التقط بقايا منه أوردها ياقوت في «معجم البلدان». ويستند إلى أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن التي تحمل أسماء آلهة، ثم يصف بالتفصيل مختلف الآلهة الذين عبدهم العرب. ثم يعقد فصلاً يعتمد فيه على كتاب اسنوك هرخونيه عن مكة؛ وفي هذا الفصل يتحدث عن الحج ومناسكه والأسواق في الجاهلية، ثم يلحق به بحثاً عن مراسم العبادة وعن السحر والتمائم والخرافات. ويختمه بفصل ممتاز عن «خصائص الوثنية العربية». ويرفض ڤلهوزن نظرية روبرتسون سمث W. R. Smith عن الطوطمية عند العرب القدماء، كما يرفض رأي شبرنجر Sprenger الذي ذهب إلى أنّ عبادة الجن كانت نواة للشرك عند العرب، إذ يرى ڤلهوزن أنّ محمداً كان أول من أنزل الآلهة العرب القدماء إلى مرتبة الجن. كذلك يشك في أن

يكون العرب قد عبدوا الأجداد والأبطال؛ وإنما يرى أن حجر الزاوية في الوثنية العربية هو عبادة النجوم والأحجار. ورأى أنّه كان هناك من الآلهة بقدر ما كان ثمّ من قبائل. ولم تبدأ عملية توحيد الآلهة في عدد قليل إلا تحت تأثير المواسم والأسواق التي كانت تقام خصوصاً في مكة وحولها. وتقلّص ظل الآلهة المتعددون شيئاً فشيئاً حتى اتحدوا في النهاية في «الله» الواحد الأحد، الذي أتى به الإسلام فقضى على الوثنية العربية بآلهتها المتعددة.

أما الكتاب الثاني، «مقدمة إلى أقدم تاريخ الإسلام» فيتناول بالدراسة التاريخية النقدية عصر الخلفاء الراشدين الأربعة، فينقد رواية سيف بن عمر كما أوردها الطبري في تاريخه، ويرى أنّ هذه الرواية وإنْ كانت أحسن اتساقاً وتنظيماً من غيرها، فإنّها تمثل الرواية العراقية عن ذلك العصر، وهي أقلّ قيمة بكثير جداً ـ من الناحية التاريخية ـ من الرواية الحجازية المدنية، فإن هذه الأخيرة أدقّ وأصدق، ولهذا يجب الاستناد إليها في دراسة عصر الخلفاء الراشدين خصوصاً من وفاة النبي حتى معركة الجمل. وبهذا أبرز ڤلهوزن هذا العصر على ضوء الرواية الأصح، حتى إذا ما وجدها وثق بها واعتمد عليها تماماً. ومن هنا أصبح

كتابه هذا الأساسَ. لكل دراسة لعصر الخلفاء الراشدين، وفيه برزت ملكة النقد التاريخي التي امتاز بها يوليوس ڤلهوزن.

وكان عليه بعد ذلك أن يتابع التاريخ الإسلامي بعد معركة الجمل، فدرس معركة صِفّين ونتائجها وما أدت إليه من قيام فرقة الخوارج، ثم مقتل علي وما أدى إليه من قيام الشيعة المطالبين بأحقية ذريته في الخلافة. أعني أنه درس هذين التيارين الخطيرين في تاريخ الإسلام: الخوارج والشيعة، وتتبع تاريخهما حتى نهاية الدولة العربية. فكان عن ذلك هذه الدراسة التي نقدم ترجمتها الآن بين يديك. وقد ظهرت سنة ١٩٠١ في برلين بالعنوان التالي:

Julius Wellhausen: *Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, in Abhandlungen der Kgl. Gesellschaft der Wissenschaften in Göttingen. Phil-hist. Klasse. N.F. 5, 1 Berlin 1901 (I. Die Chavârig. II. Die Shî‘a).

وفي العام التالي، سنة ١٩٠٢، أصدر كتابه الجامع لتاريخ الدولة العربية بعنوان: «الدولة العربية وسقوطها»، برلين ط ١ سنة ١٩٠٢ *Das arabische Reich und sein Sturz*. Berlin 1902 وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية جراهام وير وظهر في كلكتا سنة ١٩٢٧ بالعنوان *Arab Kingdom and its Fall*. Translated by Graham Weir

مع فهرست لا يوجد في الأصل الألماني ثم ترجم إلى العربية مرتين: الأولى ترجمة الدكتور يوسف العش عن الإنجليزية وظهرت في دمشق سنة ١٩٥٦ والثانية ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة عن الألمانية والإنجليزية وظهرت في القاهرة سنة ١٩٥٧.

وفي هذا الكتاب كان ڤلهوزن أول من أراد إنصاف بني أمية من عصبية المؤرخين العرب، وقد كانوا متحاملين على الأمويين عامة. ومن هنا شق ڤلهوزن طريقاً جديدة في تاريخ العصر الأموي، فيها إنصاف للأمويين وإبراز لمكانتهم السياسية الممتازة وتخليص لهم من تحامل المؤرخين ولفتاتهم التي أملتها العصبية الشيعية وغير الشيعية. وهي الطريق التي بالغ فيها الأب اليسوعي هنرى لامانس مبالغة شديدة جافت الوقائع التاريخية في كثير من الأحيان وأفرطت في تمجيد الأمويين في كل شيء حتى في أبشع جرائمهم التي لا يغتفرها أي ضمير. وفي هذا يظهر الأثر السيئ للتكوين اليسوعي أبلغ ظهور! خصوصاً والأب لامانس لم يتورع عن الاختلاق على النصوص التاريخية وجعلها تقول ما لا يمكن أن يستفاد منها أبداً مهما تحايل المرء عليها، رغم أنه جمع مادة تاريخية غزيرة جداً ورجع إلى عديد من المصادر التي

لم يستطع الرجوع إليها ڤلهوزن ولا من سبقه من المؤرخين. ولهذا فإن نتائج أبحاث لامانس يجب أن تقابل بمنتهى الحيطة والحذر، بعكس ڤلهوزن الذي راعى الإنصاف في البحث التاريخي ولم يكن مقوداً بأية عصبية أو هوى أو معاناة لحاجة في نفس صاحبها.

ولكنْ يُؤخذ على كتاب ڤلهوزن هذا أنه «سيء العرض ويصعب استخلاص الخطوط العامة فيه» (سوڤاجيه، «المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي»، باريس سنة **١٩٤٣** ص ١١٩).

وبهذا أتم ڤلهوزن دراسته التاريخية للإسلام وما قبل الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، وهي دراسة تاريخية سياسية، أعرض فيها عن تناول العوامل الاجتماعية والاقتصادية ولم يمس النواحي العنصرية العِرْقية إلا مساً خفيفاً، وكأنه يؤمن أن للتاريخ السياسي قوة ديناميكية ذاتية تكفي لتفسير تطوره، إيماناً لم يعد المؤرخون اليوم يشاركونه فيه. وهو حريص في التفسير للأحداث والعقائد إلى تلمس العوامل المحلية الأصلية، ونادراً ما يلجأ إلى العناصر الخارجية كما فعل في تفسيره لمذهب الشيعة بمحاولة إرجاعه إلى بعض المذاهب المبتدعة اليهودية. ولكنه والحق يقال كان معتدلاً كل الاعتدال في تلمّس المصادر اليهودية للنزعات في الفرق الإسلامية، ولم يبالغ مبالغة جولدتسيهر ومن إليه.

وقد وُلد ڤلهوزن في سنة ١٨٤٤ في هاملن Hameln، وتوفى سنة ١٩١٨ في جيتنجن Göttingen بعد حياة كرسها كلها للساميات: اليهودية، والعربية.

وها نحن أولاء نقدم هذه الترجمة لدراسته الرائعة عن الخوارج والشيعة، نقدمها خالصةً من فضول التعليقات الزائفة التي انتشرت بيننا، في حشو كتب المستشرقين بها انتشاراً يدعو إلى بالغ الأسف، ونرجو أن تكون للقارئ العربي مصدراً ثميناً من مصادر العلم بتاريخ العرب والإسلام ونموذجاً يحتذى منهاجه حين البحث في هذا التاريخ الذي لم نكد نحن الباحثين العرب أن نسهم فيه بما يعتد به حتى اليوم، مع أنه تاريخنا نحن وأخلق الناس بالمساهمة فيه.

برن (سويسرة)

خريف سنة ١٩٥٦

عبد الرحمن بدوي

أبحاث الجمعية الملكيّة للعلوم في جيتنجن
قسم الدراسات الفيلولوجية والتاريخية
سلسلة جديدة
المجلد ٥ ـ رقم ٢

أحزاب المعارضة الدينية ـ السياسية
في صدر الإسلام

تأليف
يوليوس ڤِلْهَوْزِن

ترجمة عن الألمانية
عبد الرحمن بدوي

[برلين سنة ١٩٠٢]

- ١ -

الخوارج[١]

١ ـ كانت لمعركة صِفّين نتائج بالغة الخطورة، تلك المعركة التي خُدِع فيها الظافر عن ظَفَره. وكانت خطوة جديدة في الطريق الذي بدأ بقتل عثمان بن عفّان.

فحينما لاح خطر الهزيمة رفع أهل الشام المصاحف على أسنّة رماحهم عملاً بمشورة عمرو بن العاص، فأحدثوا في أهل العراق الأثر المطلوب، خصوصاً في القرّاء الأتقياء حقّاً إن عليّاً قد أدرك الحيلة، بيد أنه لم يستطع أن يبدد مفعولها، بل قد هُدِّد شخصياً لمّا حاول ذلك. وكان عليه أن يقف القتال وأن يستدعي الأشتر الذي كان من النصر قاب قوسين أو أدنى، حتى لا يواصل القتال. فاضطر هذا رغماً عنه أن يمتثل لأمر عليٍّ وقد قرره عليه. غير أنه أطلق العنان لغضبه على أولئك الأدنياء الذين أرغموه على أن يلقي بالنصر المؤكد من بين يديه. فلما أسقط في يد عليّ راضياً أو كارهاً. تقدم إليه الأشعث بن قيس، أمير كندة بالكوفة، في أن يفوض إليه الذهاب

(١) أُلقي هذا البحث في جلسة ٣ أغسطس سنة ١٩٠١.

إلى معاوية ليفاوضه فيما يستتبع ذلك. فاقترح معاوية أن يختار كل فريق من يمثله ليقر كلاهما حكم القرآن فيمن أحق منهما بالخلافة. وتبنى الأشعث هذا الاقتراح وعرضه على أهل العراق فأيدوا موافقتهم عليه فوراً دون أن يستشيروا علياً. فوقع اختيار أهل الشام على عمرو بن العاص، بينما اختار أهل العراق أبا موسى الأشعري. وعبثاً احتج عليّ على اختيارهم لأبي موسى، فقد كان محايداً مما كرَّهه إلى عليّ وحبّبه إلى أهل العراق: «إذ وقعنا فيما حُذّرنا منه». ووضعت في معسكر أهل العراق صورة معاهدة تجعل علياً يخضع لما خضع له النبي في مناسبة مشابهة في الحديبية، وبمقتضاها يتوقف الفريقان عن القتال ويلجآن إلى التحكيم، وقد وقع بذلك أبرز رجال الجيشيْن المتحاربيْن. أما الأشتر النخعي فقد رفض ذلك رفضاً باتّاً وشدد النكير على الأشعث.

أما الأشعث فقد استمر يلعب دور الوسيط المتحمس في وساطته حماسةَ من طبع على أنفه بالنار. وبعد الفراغ من وضع المعاهدة ركب ودار في معسكر أهل العراق ليعلن مضمونها للجميع، حتى بلغ جمعاً من بني تميم البصريين، كان فيهم عُرْوة بن أُدَيّة الحنظلي، وقرأ عليهم مضمون الاتفاق، فلما رأى عُرْوة أن مصير خلافة المسلمين قد صار بين أيدي رجلين، صاح مغضباً: لا حكم إلا لله! وأهوى بسيفه على مؤخرة دابة الأشعث حتى وثب

وثبةً عنيفةً[١] . فغضبت قبيلة الأشعث اليمنية من أجله على بني تميم، وقام رؤساء بني تميم بينهم يهدئون من حفيظة الأشعث. ولما عاد أهل العراق أدراجهم، عم السخط بينهم على نتيجة هذه المعركة. بل إنّ الذين دفعوا علياً إلى وقف القتال أخذوا عليه أنه ترك أمر الخلافة إلى هوى متفاوضَين. فدب النزاع العنيف بينهم وبين أنصاره المخلصين. ولاموا هؤلاء الأخيرين على تأييدهم لعليّ حتى لو ضل السبيل، وما هم إذن إلا عبيد شأنهم شأن أهل الشام الذين اتبعوا معاوية في كل الأحوال دون أن يتساءلوا ما إذا كان على صواب. فكانت عودة أهل العراق إلى الكوفة عودة أليمة، أشدّ إيلاماً من عودة جيش مهزوم، لأنّ النصر

---

(١) [المترجم: ورد في الطبري جـ ١ ص ٣٣٣٨ هكذا: «خرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم فيقرأونه، حتى مر به على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية ـ وهو أخو أبي بلال ـ فقرأه عليهم. فقال عروة بن أدية: تحكّمون في أمر الله عز وجل الرجال؟! لا حكم إلا لله! ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة، واندفعت الدابة وصاح به أصحابه أن أملك يدك ـ فرجع. فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن. فمشى الأحنف بن قيس السعدي ومعقل بن قيس الرياحي ومسعر بن فَدَكى وناس كثير من بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا، فقبل وصفح». ـ ومن هذا يرى أن الدابة دابة عروة بن أدية لا دابة الأشعث كما فهم المؤلف].

الذي كلف من الدم ثمناً غالياً قد تبدد بأرخص الأثمان. وكانت شكوى أهل القتلى مثار حزن شديد في فؤاد عليّ، بينما كانت سخرية العثمانية (أنصار عثمان) صريحة جرحت نفسه: فاغتبط المنافقون واغتمّ المخلصون، وانفصل عن عليّ اثنا عشر ألف رجل أبوا العودة معه إلى الكوفة، وساروا إلى قرية حروراء[١]، تحت لواء التحكيم: لا حكم إلا لله! ومن هنا سموا باسم: «المحكِّمة». ولكن يطلق عليهم عادة اسم: «الحرورية» أو بلفظ أعمّ: «الخوارج»[٢].

٢ ـ تلك رواية أبي مخنف، وهي أقدم ما وصلنا. وقد رأى الباحثون المحدثون ـ مقتفين إثر ڤيل Weil ـ أنها غير مفهومة. ويتوسّمون وجود خونة في صف أهل العراق، تآمر معهم معاوية وعمرو بن العاص مقدماً.

---

(١) Ἀρουρῖαι راجع ثيوفانس Theoph. 421, 18. 424, 9. 439, 13 نشرة De Boor.

(٢) إنّ الفعل الذي أُشتق منه هذا اللفظ معناه في الأصل: خرج للقتال، غضب، ثار، ويُستعمل أيضاً بمعنى مطلق (الطبري جـ ٢ ص ٣٣ س ٦). أما هنا فمعناه «خرج على الجماعة» (٥٤٣: ٢، ٨٨٩: ٥) وقد مزج ثاوفيلس (٣٤٧: ٣٠) بين اللفظ χαῖργτι (الخوارج) و Ἀρουρῖαι (الحرورية) في كلمة مركبة هي χαρουῖργτι وفي الألمانية لعل خير ترجمة لهذا اللفظ هي Noncoformisten أو Separafisten

٧

ومن السهل إدراك من هم هؤلاء الخونة: إنهم أبو موسى الأشعري والأشعث بن قيس.

وكان أبو موسى الأشعري من أقدم صحابة رسول الله، متمكناً من قراءة القرآن، ذا مكانة ملحوظة. وقد ظل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، من ١٧ إلى ٢٩ هجرية، والياً على البصرة، في فترة حافلة بالأحداث والاضطرابات. وفي سنة ٢٩ عزله عثمان من منصبه ليسنده إلى أحد أقربائه الشبّان. فاستقر به المقام في الكوفة حيث أصبح محبوباً من الجميع، حتى إن أهل الكوفة طالبوا بأن يكون والياً عليهم، بدلاً من سعيد بن العاص الأموي الذي حالوا بينه وبين دخول مدينتهم، وأرسلوا إلى عثمان في ذلك. وبطبيعة الحال لم يكن أبو موسى صديقاً لعثمان بن عفان الذي عزله عن ولاية البصرة بغير سبب، ولم يولّه أمر الكوفة إلا مكرهاً، وإلا لما سعى إليه أهل الكوفة وهم خصوم عثمان. غير أنّ أبا موسى لم يكن راضياً عن قتل عثمان، بل تنبأ بأنه سيكون لمقتله أسوأ النتائج، وحاول أن يحمل أهل الكوفة على الوقوف موقف الحياد وعدم الانضمام إلى عليّ. حقاً إنه لم يفلح في ذلك، بل نُحِّي جانباً. ولكنه ظل مع ذلك آمناً في الكوفة، ولم يكن وحده في هذا الرأي هناك.

كذلك لم يُخْفِ رأيه. فكان عليٌّ يعرف جيداً موقفه، ولهذا احتج على اتخاذه حكماً. على أيّ أساس إذن يقوم الاتهام بأنه لم يكن أميناً في سلوكه لدى معركة صِفّين، بل لعب دوره على تفاهم وتواطؤ مع أهل الشام؟ على أساس هذه الواقعة: وهي أنه كان على مقربة من مكان المعركة، وكأن ثمت حاجة إليه[١]، ولكن هذا أمرٌ لا يدعو إلى الغرابة من وجهة نظر العرب، أعني ألا يظل رجل بارز المكانة في دياره بينما قومه يسيرون إلى القتال، ثم يمتنع من القتال حينما يبدو له أن الأمر الذي يقاتل من أجله أمر يدعو إلى الريبة. ولم يتواطأ مع معاوية، ولم يبد في أثناء التحكيم أنه متحيز له، وهرب من وجه أهل الشام إلى مكة، وخاف على حياته حينما دخلوا مكة تحت إمرة بُسْر. ذلك أنه وقف موقف المحايد بين الفريقين في هذه الحرب الداخلية، شأن غيره كثيرين؛ ولم يكن رجله علياً ولا معاوية، بل عبد الله بن عمر. فمن السهل إذن أن نفهم لماذا وقع اختيار أهل الكوفة على واليهم القديم، حينما بدأوا هم يترنحون: «إذ وقعنا فيما حذّرنا منه».

(١) كان في أرد، بين تدمر والرصافة، أي في مكان قريب جداً من ميدان المعركة (الطبري جـ ١ ص ٣٣٣٤). وراجع: «الأخبار الطوال» للدينوري ص ٢٠٥ (نشرة Hübsh).

لم يبق إذن إلا الأشعث، ليُتَّهَم بالخيانة. وأمر اتهامه أيسر إلى القبول من أبي موسى، إذا حسبنا حساب موقفه في نجيم. ومن هنا ألقى فيل Weil، ودوزي Dozy، وبرنُّوف Brünnow وملّر Müller عبء التهمة الرئيسي عليه. فيقال إن أهل الشام قالوا له مقدماً، احتياطاً للخروج من المأزق إذا وقعوا فيه: إننا إذا شعرنا بخطر الهزيمة. سنرفع المصاحف على أسنّة الرماح، فاعمل بحيث يوقف القتال! ووفقاً لهذه الخطة عمل بحيث يفهم أهل العراق هذه الإشارة ويتبعونها. ويضيف ملّر ـ تمشياً مع روح سيف بن عمر تماماً ـ أنه سيستعين في ذلك بالعامة، على أساس أن أهل العراق لن يلبّوا جميعاً إشارته بمجرد صدورها. ولكن الأشعث لم يبدأ عمله أبداً في هذه الرحلة، بل كان ذلك بعد أن أصدر عليّ أمره بوقف القتال، والأشتر لم يسخر منه حينما اضطر إلى إغماد سيفه، بل من آخرين غيره. وهذا هو الذي حدث، حسب رواية أبي مخنف على الأقل. أما الدينوري واليعقوبي، ومؤرخون آخرون متأخرون جداً وأقل قيمة، فقد أوردوا رواية أخرى. ولكن هؤلاء حسبوا تخميناتهم وقائع وحقائق، ولهذا لا قيمة لرواياتهم بإزاء رواية أبي مخنف الذي لم يكن لديه ما يدعوه إلى إبعاد الشبهة عن الأشعث. ويذكر اليعقوبي أن معاوية

كان قد كسب لصفه الأشعث وأن هذا قد حمل عليّاً على عزل الأشتر. وكان اليمانية في صفه، وكاد ينشب القتال بين الأشعث والأشتر، لكن يمانية الكوفة كانوا هم أنفسهم أبرز أنصار عليّ («الكامل» ص ٥٣٩). وكان الأشتر على رأس أقوى قبائل اليمانية، وهما قبيلتا هَمْذان ومَذْحِج، حينما انتصر في صِفّين. وفي رواية اليعقوبي هنا ذكرى للحادثة التي وقعت بين الأشعث وعروة بن أديّة التميمي. فانتصر اليمانية للأشعث ضد بني تميم وكاد أن ينشب القتال بين اليمانية وبني تميم. ومن المفيد في هذا الباب ما لاحظه ملّر، (١: ٣٢٥) وفقاً لفكرة أضحت عامة تقليدية، من الإشارة إلى المنافسة بين القبائل العربية الشمالية والقبائل العربية الجنوبية على أساس أنها السبب الأعمق أيضاً في الارتباك الذي وقع بصِفّين؛ فإن صدق اليعقوبي فيكون الأشعث قد أثار حميّة بني عشيرته اليمانية ضد أبناء القبائل العربية الشمالية الكثيرين في جيش عليّ، خصوصاً بني مالك. وبهذا يناقض ملّر اليعقوبي، وهو لا يدري. إذ لو كان اليعقوبي صادقاً لكان من الضروري أن يكون الأشتر من عرب الشمال. والواقع أنه كان يمانياً.

أما في المرحلة التالية، مرحلة عقد الصلح، فقد شارك الأشعث بكل حماسة. فبعد توقف القتال، تقدم في الوساطة بين الفريقين، وعُدَّ كذلك، فذهب إلى معاوية وتلقى اقتراحه بعمل تحكيم. وعمل كل ما في وسعه من أجل

وضع صلح مكتوب بين الفريقيْن على أساس هذا الاقتراح، وهنا (لا من قبل) سمع من الأشتر كلمات موجعة، وأذاع مضمون الصلح في معسكر أهل العراق: وبهذه المناسبة وقع أول احتجاج من جانب أدية[١] . وإذن: فأين الخيانة في مسلك الأشعث هذا؟ ليس هو الذي بدأ التيار، وكل ما فعله أنه سار فيه. لقد اندفع في أمر الصلح وبرز في عملية إجرائه، وبهذا عاون على وقوع الكارثة. ولكن هذا ليس خيانة بعد. ولم يكن ثم ما يحول بينه وبين الانضمام إلى معاوية، كما فعل بعد ذلك كثير من أهل الكوفة، وأن ينال منه جزاء يوداس[٢] .ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل ظل على ولائه لعلي، وظلت مكانته في الكوفة مرموقة كما كان من قبل، وظل أبناؤه وأحفاده أنصاراً لبيت علي ولم يظهروا ميلاً إلى حكام الشام (الأمويين) . نعم إن اليعقوبي قد نسب إليه بعد ذلك كل ألوان الشرور، ولكن رواية أبي مخنف تدل على أنه لم يفعل من بعد إلا ما فعله في صِفّين: سعى جهده ليبرز

(١) لا ضد وقف القتال كان احتجاج أُدَية، بل ضد التحكيم، وهكذا كان تفكيره هذا متأخراً وإنْ سبق غيره في ذلك.

(٢) [يوداس الأسخريوطي: الحواري الذي خان السيد المسيح وباعه لأعدائه اليهود مقابل ٢٠ سيكل] .

سيداً. بل يروي «الكامل» أنه أظهر إخلاصه لعلي في كثير من المواقف، فكان يدله على أعمال الخوارج وحذره من ابن ملجم. وأخيراً يتساءل المرء: ماذا طمع فيه من وراء هذه الخيانة المزعومة، وماذا نال؟ إنه لم ينل مالاً، والعربي لا يقوم بمثل هذه الخدمات (الخيانة) إلا لقاء المال. هنا ينسب إليه دوزي غرضاً طالما لجأ إليه في تفسير الدوافع دون موجب[1]: وذلك أن الأشعث قد ظل في قلبه مشركاً قديماً فأراد الانتقام من الإسلام لما حل به في نجيم. والحق أنه قد بلغ بإسلامه في الكوفة منزلة لم ينلها من قبل في نجيم، لقد كان القوم ينظرون إلى الإسلام عادة من ناحيته السياسية، التي أدت إلى توحيد العرب وقادتهم إلى السيطرة العالمية، فكانوا يستطيعون أن يتعزوا عن الماضي بالحاضر المليء بالمجد، ولم يكن لدى الأشعث في هذا الباب من الدوافع أقل مما كان لغيره من أهل الردة الذين كانوا يؤلفون الجمهرة العظمى من سكان الكوفة والبصرة. وحتى لو غضضنا النظر عن هذه الاعتبارات، فإن الثأر لما حل به في نجيم لا يكفى ليكون دافعاً له إلى هذا العمل، أعني خيانة علي لصالح معاوية.

---

(١) مثلاً فيما يتصل بمسلم بن عقبة.

فالبحث عن خونة إذن لا جدوى فيه ولا محل له. وليس أمراً بعيداً عن التصديق أن تكون حيلة رفع المصاحف لدى الخطر العظيم قد طرأت فجأة على فكر عمرو بن العاص الداهية. بل الفكرة نفسها قريبة الورود إلى الذهن ولعله كان لها سوابق[1]، فالرماح كانت تستخدم دائماً أعلاماً وشارات، وكان القرآن راية الإسلام. فكان ذلك بمثابة تذكير لأهل العراق أنهم إنما يقاتلون قوماً رايتهم كرايتهم: كلام الله. ولم تكن أذهانهم في حاجة إلى إعداد سابق ليفهموا ذلك، فليس بعجبٍ إذن أن تكون هذه الحيلة قد أثرت فيهم. فالنزاع حول حق الخلافة قد أدى بهم إلى النزاع مع عثمان، ثم مع عائشة وأهل البصرة، وها هو ذا يدفعهم أخيراً إلى حرب معاوية وأهل الشام: فانقسمت الجماعة، على نفسها، إلى شيعة علي وشيعة معاوية. وهذه النتيجة خطيرة في ذاتها، لأن الإسلام إنما أراد القضاء على تنازع العرب وتناحرهم فيما بين بعضهم وبعض، وتم له

---

(١) راجع الطبري: جـ ١ ص ٣١٨٦، ٣١٨٨ ـ ٨٧٦: ١٩. وراجع بيت شعر أورده الدينوري ص ١٨٢ س ٩. ويوجد مثال آخر متأخر أورد ذكره نيقفورس Nicephorus ٣٧: ٤ (نشرة دي بور De Boor).

ذلك فعلاً، وأمر بالمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية وأمنها بوصف ذلك نعمة كبرى مقدسة. وتبين عن طريق الأحاديث التي تبودلت بين أبناء الجيشين المتحاربين زماناً طويلاً في صِفّين أن أهل الشام ليسوا أقل من أهل العراق إيماناً بأنهم على حق وأنهم إنما يبتغون وجه الله. فمن اليسير أن نفهم إذاً أن يكون أهل العراق قد بدأوا يراجعون أنفسهم وأن رفع المصاحف قد أحدث أثره الموقت فيهم، وهم كانوا أكثر انفعالاً وتقلباً في الهوى من قوم مثل سكان شمال أوروبا، فأحسوا بأنهم إزاء مشكلة دينية حرجة، ولم يسلكوا المسلك الذي تقتضيه الاعتبارات السياسية والعسكرية.

٣ ـ وكان لطبقة القراء في العراقيين التأثير الحاسم، وهم الذين أهابوا بالقرآن حَكَماً ووسيطاً في المشاكل التي تعرض للمسلمين، وحملوا العامة على هذا الرأي، وأرغموا عليّاً على التسليم به. ولكنهم هم أيضاً كانوا أشد الناس ثورةً واحتجاجاً على معاهدة الصلح وقرار التحكيم، ومنهم كانت طبقة الخوارج. وهذا ما قاله أبو مخنف بعبارة جافة حسبما أورده الطبري (جـ ١ ص ٣٣٣٠) وتلك هي الرواية المشهورة.

ولكن برنُّوف[١] يرى أن هذا التحول المفاجئ لدى الجماعة نفسها أمر غير ممكن. ولهذا يرى أن يوزع هذه الأعمال المتناقضة على جماعات مختلفة، لا جماعة واحدة هي جماعة القراء (حفظة القرآن): فالقراء وقفوا القتال، ثم احتج الخوارج بعد ذلك على وقف القتال، وهؤلاء الخوارج كانوا من البدو. والحادث الذي روى أبو مخنف وقوعه بين الأشعث وعروة بن أدية يبين بجلاء أن الثورة على الصلح لم يقم بها القراء. ولكن هذا الحادث أمر عرضي تماماً، وما هو إلا مقدمة للتحول العام الذي حدث بعد ذلك. وما أثير بهذا الصدد إنما كان أمراً شكلياً. ألا وهو: من أول من دعا إلى التحكيم؟ ـ وهو أمر قد أثار فيما بعد كثيراً من الجدل وأجيب عنه بإجابات مختلفة[٢]. وبغض النظر عن هذه المسألة نتساءل: من أين يحق لبرنُّوف أن يقول أن عروة بن أدية وبالجملة الخوارج القدماء كانوا من البدو، وأن يضع هؤلاء

---

(١) في رسالة عن الخوارج، اشترسبورج سنة ١٨٨٤.

(٢) الدينوري: ص ٢١٠، «الكامل»: ص ٥٣٨ س ١٦ وما يليه، ص ٥٤٤ س ١ وما يليه. كذلك راجع « الكامل» ص ٥٦٥ س ١١، حيث يروي بمناسبة أخرى خبر جرح دابة أحد وسطاء الصلح، وكان الذي جرحها من الخوارج.

«العرب البدو الخلص» ـ الذين يقول عنهم مع ذلك إنهم كانوا على العموم أتقياء عاكفين على دراسة القرآن ـ نقول أن يضعهم في مقابل القراء؟ الحق أنه بدأ من مقدمات كاذبة. إن عرب الكوفة والبصرة كانوا جميعاً تقريباً من البدو بمعنى أنهم جاءوا من قبائل تقيم في البادية، ولكن هذا لا يدل على شيء بالنسبة إلى الخوارج. إن رابطتهم بقبائل البادية كانت قد انحلت منذ هجرتهم، أعني منذ ارتحالهم إلى مدائن الجيوش وانخراطهم في الجيوش[1]. والهجرة نفيٌ للبداوة، والمهاجرة في مقابل الأعرابي[2]. لقد كانوا «مقاتلة» أي محاربين يتقاضون أجورهم من بيت المال، رفعتهم ثمرات الجهاد، إذ صنع الله بأيديهم صنائع عظيمة. ولما كانوا في فراغ من الجهاد ويقيمون في الحواضر اتجه اهتمامهم إلى الأمور العامة للخلافة. أما البدو الخُلّص الذين احتفظوا بطباعهم الأصيلة فقد ظلوا بعيدين عن الحركات والأحزاب[3] الدينية السياسية، شأنهم شأن سكان القرى. ولم يحسبهم الإسلام كاملي الإيمان،

---

(١) راجع «كتاب الخراج» ليحيى بن آدم ص ٥٩.

(٢) الطبري: جـ ٢ ص ٨٦٤ س ٩.

(٣) «أهل الأهواء» («كتاب الكامل» ص ٥٤٦ س ٧).

بل عدهم سراق الإبل. فكانت كلمة «أعرابي» كلمة تحقير تدل على الرجل غير المتمدين وغير صحيح الإيمان، فإن ورد منهم أحد على الكوفة أو البصرة خشى عليه أن يكون موضع المهانة والاستهزاء[١]. أما الذين يدخلون في الديوان ويقيمون في الأمصار من المقاتلة فينالون مكانة رفيعة. ويعزّ عليهم أن يعودوا إلى القبائل التي انحدروا منها في موطنهم الأصيل. لقد كان ذلك بمثابة عقوبة ومنفى[٢]. ولا شيء يدل على أن قدماء الخوارج الذين كانوا يسكنون الكوفة والبصرة كانوا يختلفون من هذه الناحية عن سائر أهل الكوفة والبصرة. بل الأمر بالعكس، فبينما كان الآخرون يحرصون على قرابات الدم والأنساب، كانوا هم أقل اهتماماً بذلك أو لم يكونوا يعلقون على ذلك أهمية جوهرية. لقد انتزعوا أنفسهم من أسرهم، وإذا عادوا إلى حظيرتها من جديد ـ وهو أمر كان يحدث كثيراً ـ انقطعت صلاتهم بالخوارج ولم يعودوا منهم. وحينما هربوا لم يلجأوا إلى الصحراء العربية، بل إلى مواطن

---

(١) الطبري: جـ ٢ ص ٩٤ وما يليها، ص ٥٦٨ س ١١، ص ٥٩٠ س ٦، ص ٨٢٥ س ١١، «الأغاني» جـ ١٧ ص ١١١ س ٢٤.

(٢) يدل على هذا خبر عبد الله بن خليفة الطائي، انظره في الطبري جـ ١ ص ٣٢٨٠ وما يليها، جـ ٢ ص ١٤٨ وما يليها.

غير عربية مثل سهل جُوخىٰ في الناحية الأخرى من نهر الدجلة، والأهواز، ومدين وفارس[١].
وإنما يكون برنُّوف على صواب لو أنه إنما أراد أن يقول إن الخوارج لم يكونوا من قريش ولا ثقيف ولا الأنصار، بل من قبائل أقل أهمية من حيث المكانة السياسية اندمجت في الإسلام خصوصاً بعد حرب الردّة، وأقامت في الكوفة والبصرة[٢].

---

(١) في الجزيرة العربية وطن الخوارج أقدامهم في اليمامة واليمن خصوصاً بين قوم متحضرين لا بدو. ولكن هذا إنما حدث في عهد متأخر، لا صلة له بما نحن فيه ها هنا.

(٢) ليس لدينا معلومات حقيقية إلا عن أصول زعمائهم. فكان منهم كثير من بني تميم. ففي البصرة، حيث كانت الأغلبية من بني تميم، كان: مسعر بن فدكى، حرقوص بن زهير، عروة بن أدية وأخوه أبو بلال؛ وفي الكوفة: شبث بن ربعي (الذي تركهم بعد ذلك)، والمستورد وهلال بن علفة، وكلاهما من تيم الرباب الذين لحقوا ببني تميم. وكان كثيرون من قبائل أخرى. فمن المضريين: فروة بن نوفل الأشجعي، وشريح بن (أبي) أوفى العبسي، وعبد الله بن شجرة السلمي (راجع الطبري جـ ١ ص ٣٣٧٧، ٣٣٨٢، والدينوري: ص ٢١٦ س ١٣، ص ٢٢١ س ٦)، وحمزة بن سنان الأسدي (الطبري ص ٣٣٦٤، الدينوري ص ٢١٥ س ١٧) وكثير من المحاربيّين (ص ٣٣٠٩ وما يليها، ص ٣٣٦١ وما يليها). ومن الطائيين: زيد بن الحسين، ومعاذ بن جوين، وطرفة بن عدي بن حاتم. ومن اليمانيين: يزيد بن قيس الأرحبي (وقد تركهم فيما بعد)، وابن وهب الراسبي، أول خلفائهم، وابن ملجم المرادي، قاتل علي بن أبي طالب. ومن بني ربيعة لا نرى في بدء الأمر كثيرين، ومنهم ابن كوا اليشكري (وقد تركهم فيما بعد)؛ ولكن الحال تغير فيما بعد =

ويبدو كذلك أن لبرنُّوف[١] رأياً خاصاً في القرّاء: وليس للمرء أن ينظر إلى هؤلاء على أنهم يؤلفون طبقة محددة، بل هم كانوا غير واضحي المعالم، حتى أن رجالاً مثل قيس بن سعد وهاشم بن عتبة وابن بُدَيل كانوا يعدّون أحياناً منهم. كذلك لم يكونوا يؤلفون حزباً سياسياً ذا برنامج محدد ثابت، فمنهم من كان في صف أهل الشام ومنهم من كان في صف أهل العراق، كما أن فريقاً من قراء العراق الذين انضم أغلبهم إلى علي وحاربوا في صفه ـ نقول إن فريقاً يبلغ قرابة أربعمائة قد تخلفوا عن القتال وبقوا في أماكنهم امتثالاً لموقف عبد الله بن مسعود، القارئ الصحابي الشهير، الذي كان رأيه في هذه المسألة كرأي أبي موسى الأشعري (الدينوري: ص ١٧٥). وكان القراء على صلة وثيقة بالفقهاء، وكان وضعهم بالنسبة إلى هؤلاء الأخيرين شبيهاً بنسبة دائرة كبرى إلى دائرة داخلها أصغر منها. ولم يكن نشاطهم الرئيسي نظرياً وعلمياً

= كثيراً. ولا نجد خوارج من الأزديين في البصرة أول الأمر، لأن بني الأزد لم ينتقلوا إلى البصرة إلا فيما بعد. وكان الزعماء الثلاثة الأول في حروراء هم أبرز رجال القبائل العظمى في الكوفة، أعني: تميم وبكر وهمدان.

(١) أو كان له هذا الرأي حينما ألف رسالته التي لا يزال يتمسك بها ولا يخجل منها.

(الطبري: ص ٥٦٤ س ١٦ وما يليه). فالقرآن ـ الذي منه اشتقوا اسمهم: القُرَّاء ـ لم يكن في نظرهم موضوع دراسة نظرية بل من أجل العمل والتقوى. وآيات القرآن تُتْلى دعاءً وصلوات في المساجد والمنازل على السواء. والقراء يمكن أن يسمَّوْا أيضاً «المصلين». وكان القرآن على لسانهم يحفظون أجزاءاً منه عن ظهر قلب ويتلونه بحرارة، جهراً وسراً، نهاراً وليلاً. وكانوا يلقبون بلقب ذوي الجباه المعفرة, بسبب ما يتبين «في وجوههم من أثر السجود» (سورة الفتح آية ٢٩). ولكنهم لم يكونوا متعبدين منقطعين يحتفظون بتقواهم لأنفسهم، بل كانوا يعملون بإيمانهم عن طريق التوجيه وإسداء المشورة في الأمور العامة، كما تقضى بذلك طبيعة الخلافة الإسلامية. وكانوا يغشون الجماهير ويؤثرون فيهم. فلما قامت الثورة على عثمان وانتشرت في الكوفة، كانت لهم الكلمة العليا؛ ولما قتل عثمان وقعت التهمة عليهم وعلى أقدم الصحابة الأحياء. وشاركوا في الحرب شأنهم شأن المسلمين الصالحين، وكانوا يخطبون في الناس قبل المعارك ليثيروا حميتهم ويستنفروهم للقتال. وإذا لم يكونوا رجال أفعال في المرتبة الأولى، فقد كانوا يعلمون أيضاً أن خير الإيمان

الجهاد بالسيف في سبيل إعلاء كلمة الله[1] (الطبري جـ ٢ ص ١٠٨٦). وفي معركة «اليمامة» كان أبرز المقاتلين هم القراء الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويتلونه، فهؤلاء الأتقياء من أهل المدينة هم أسلاف طبقات القراء الذين أتوا من بعدهم. وكانوا في طليعة المحاربين في معركة «الجمل» و«صِفّين» وفي كل المعارك التالية، خصوصا في الحرب ضد الحجاج بن يوسف الثقفي. أجل لم يكونوا مؤسسين وقادة للحركات الكبرى، ولكنهم كانوا مثيرى الحماسة في الجماهير. ونادراً ما كانوا يسبحون ضد التيار العام، بل كانوا في الغالب في طليعة الجماهير ومقاييس لدرجة حرارتهم وأبواقاً صاخبة في أفواه الرأي العام. وكانت المعارضة خير ميدان مُجْزٍ لنقدهم وحجاجهم. ولذا كان نجاحهم في الشام أقل منه في العراق، وكان أبرز ميادين

---

(١) [الموضوع المشار إليه ورد فيه خبر أن عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه قال: «يا معشر القراء! إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم. إني سمعت علياً ـ رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين ـ يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون! إنه من رأى عدوانا يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ. ومن أنكر بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه. ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه باليقين].

نجاحهم في الكوفة والبصرة، واللواء الذي انضووا تحته وانتموا إليه هو لواء الله والقرآن وسنة الرسول والحق والتقليد المتبع. بيد أنهم حزباً سياسياً لم يكونوا سنداً وثيقاً يؤمن له، حتى ولا لقائد رفعوه هم أنفسهم إلى مركز القيادة.

أما وهذا شأن القراء، فعلى المرء الإقرار بإمكان أن يكون هؤلاء هم التربة التي نبت فيها الخوارج. فهؤلاء الأخيرون كانوا قوماً شديدي التقوى تُنْحَل لهم صفات أولئك: كانوا يقرأون القرآن لا بلسانهم فحسب، بل ليتعبدوا به ويفكروا فيه آناء الليل وأطراف النهار، وكانوا «أنضاء عبادة وأطلاح سَهَر»، قد أكلت الأرض جباهم من كثرة السجود، وكانوا يتأملون معاني الدين ويناقشون في أحكامه بمهارة. ومن العلامات المميزة للعابدين القانتين في ذلك العهد لبس البرنس، وكانت في الخوارج القدماء جماعة يلبسون البرانس، على رأسهم عبد الله بن شَجَرة السّلمي.

أمن الضروري توكيد وجود هوة (انفصال تام) بين جماعة القراء وجماعة الخوارج من أجل أن نوزِّع دور السقوط ودور النهوض على فريقيْن مختلفيْن؟ أمن غير المعقول أن يكون نفس الأشخاص قد ضلوا السبيل في أول الأمر،

ثم ثابوا إلى رشدهم من بعد؟ إننا إنْ لم نقرّ بهذا، لم نستطع أن نفهم حقيقة الخوارج. لقد أخطأوا، وبعد خطيئتهم رجعوا عن باطلهم وأيقنوا بما بانَ لهم أنه جوهر الإيمان. وعدوا أن الحيرة الطارئة التي ألمت بهم كانت ذنباً عظيماً، فوطنوا العزم على بذل أقصى المجهود في الكفارة عنه. فالباعث إذن على ظهور الخوارج وعلى كيفية سلوكهم هو التوبة[١]. والتوبة عندهم إنما تكون بالأفعال، وبهذا أيضاً طالبوا علياً وسائر القوم: أعني أن يتوبوا بالأفعال ـ وهو أمر ظهر جلياً في كل مناسبة عرضت. وإلا فلو لم يكن الحال على هذا النحو ولم تكن نتائج الأعمال المستمرة أبداً هي علامة الخوارج ـ لكان عدوهم الألد، مالك الأشتر، من أحق الناس بلقب الخوارج، لأنه وحده لم يدع نفسه ينساق في الضلال واحتج على التحكيم مع أهل الشام واقتصر على هذا! وأخيراً لا تقتصر الروايات المنقولة على القول إجمالاً إن الخوارج نبتوا من بين طبقة القراء، بل تذكر

---

(١) معنى التوبة في الإسلام يتبينه القارئ من «تاريخ» الطبري جـ ٢ ص ٣٣٢ س ٢ وما يليه [المترجم: لم نتبين من هذا الموضع إشارة إلى معنى التوبة، وكل ما ورد فيه هنا مناقشة عنيفة بين شمر بن ذي الجوشن وبين زهير بن القين حول تخلية سبيل الحسين بن علي بن أبي طالب أو قتله وعدم وجوب قتل ذرية محمد صلعم الخ].

أسماء على سبيل التحديد. فإن مِسْعَر بن فَدَكى التميمي وزيد بن الحسين الطائي وقراء آخرين قد حملوا علياً على الصلح من أهل الشام وأنذروه بأن يكون مصيرهم مصير عثمان إذا لم يوافق على اتخاذ كتاب الله حَكَماً في الأمر ـ وهذان الرجلان قد صارا فيما بعد أشد الخوارج حماسة وحمية. فهذه الواقعة المحددة لا يمكن تفنيدها بافتراضات وتخمينات هي لا أساس لها أيضاً من حيث المضمون الباطن.

٤ ـ وهنا لا بد من الإشارة بإيجاز شديد إلى رأي، تجدد القول به حديثاً، يرمي إلى البحث عن أصول الخوارج لدى فرقة السبئية، اقتفاءاً لأثر سيف بن عمر. ذلك أن قادة الخوارج الأول، أو بعضاً منهم على الأقل، كانوا يعارضون ولاة عثمان وعثمان نفسه واشتركوا جميعاً في المسئولية عن مقتل عثمان، بل فاخروا بهذا الاشتراك: إذن لا بد ـ في رأي سيف ـ أن يكونوا من السبئية. وهو يذكر بعضاً منهم صراحة، ممن خرجوا في حروراء والنهروان، ومنهم ابن ملجم، ـ أما الأشتر فيسقط من حسابه. والحق أن التلقيب بلقب السبئية إنما كان يطلق على الشيعة وحدهم، واستعماله الدقيق ينطبق على غلاة الشيعة فحسب، ولكنه كان كلمة ذم تطلق على جميع الشيعة على

السواء[١]. والخوارج أنفسهم كانوا ينعتون خصومهم الشيعة في الكوفة بنعت «السبئية» تحقيراً وذماً لهم (الطبري جـ ٢ ص ٤٣ س ١٣). فإن شاء المرء بعد هذا أن يزعم أن السبئية كانوا قتلة عثمان الحقيقيين، وكانوا لهذا السبب التربة المشتركة التي نبت فيها الشيعة والخوارج على السواء، فقد بقي أن يفسر لماذا بقي هذا الاسم: «السبئية» عَلَماً على غلاة الشيعة وحدهم فيما بعد. وسيكون معنى هذا إذن أيضاً أن الخوارج قد صاروا خوارج بعد خروجهم على السبئية وانفصالهم عنها، وهذا يردنا كذلك إلى القول بأن بدء الخوارج كان في صِفّين ويجب أن يفسر من الأحداث التي جرت في صِفّين. على أني قد برهَنْتُ من قبل (في موضع آخر) أن الحركة ضد عثمان لم تصدر عن السبئية وأنه لم تكن لها الأهمية التي ينسبها إليها سيف بن عمر، ولكني لم أرد استخدام هذه الحجة حتى لا أقطع المناقشة في الصلة بينهم وبين الخوارج.

لم يكن الخوارج بذرة زُوَّان فاسدة بذرها اليهودي ابن سبأ سراً، بل كانوا نبتة إسلامية حقيقية. وكانوا جادين

---

(١) راجع الطبري جـ ٢ ص ٤٣، ص ١٣٦ س ١٦، ص ٦٢٣ س ١٤، ص ٦٥١ س ٧، ص ٧٠٣ س ١٧، ص ٧٠٤ س ١١. جـ ٣ ص ٢٩.

في مسألة الخلافة ولم يأتوا فيها بأمر غريب أو مستنكر. ولم يكونوا فرقة صغيرة مغمورة في الظلام، بل كانوا ظاهرين علناً على أساس واسع كأوسع ما يكون الأساس، أعني على أساس الرأي العام الذي ساد معسكر أهل العراق في صِفّين. وكانوا في البدء يتألّفون من أعداد عديدة بعيدة عن التحديد الدقيق، ثم جرى فيهم مد وجزر متفاوت، فلم يكن معروفاً بالدقة من الذي ينتسب إليهم، وكان من المدهش أن الأشعث ليس منهم. ونشأتهم تختلف اختلافاً جوهرياً عن نشأة جماعة مثل العباسيين أو الفاطميين. لم يكونوا يلجأون إلى المؤامرات ولا إلى تكوين الشُّعَب المنتشرة في مختلف المواطن، ولم يسيطر على شئونهم تنظيم سري معقد. إنما كانت لهم مبادئ، مبادئ ليس فيها ما يغري بالانضمام إليها، جَرَّت إليهم الأنصار ـ دون أن يسعوا هم إليهم، ولو أن أولئك الذين برزت أعمالهم كانوا فيما بعد قليلين جداً. وكان أنصارهم يتجددون باستمرار. فإن اندلعت النار في مكان، شبت مثلها من جديد في مكان آخر، دون أن يكون ثمت اتصال ظاهر فيما بينهما[١]. وكان التوتر قائماً في كل مكان وعلى أهبة

---

(١) ومن هنا مذهب «الفترات» التي ينخسف فيها الإيمان («الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٨).

الانفجار. وهذا يدل على مدى صدوره عن طبيعة الإسلام والخلافة.

٥ ـ وكان بدء الخلاف في الإسلام الثورة على عثمان: في سبيل الله ضد الخليفة، ومن أجل الحق والعدل ضد فساد الحكم وظلمه. وهي كلمات لم تستعمل ضد عثمان وحده، بل ضد كل حاكم يضل عن سواء السبيل. فاستخدمها الخوارج ضد عليٍّ نفسه، فانفصلوا بهذا عن شيعته وصاروا خوارج. فالثورة التي أتت بعليٍّ إلى الخلافة لم تتهاون معه حينما ضل الطريق. وقد يرى المرء من العار أن يأخذ الخوارج على عَلِيّ هذا الموقف لأنهم هم الذين دفعوه إلى اتخاذه ثم طالبوه من بعد فوراً بالنكوص عنه، وهو أمر لم يكن له وهو الحاكم أن يفعله فيتنكر لما سبق أن وافق عليه[1]. ولكن ذلك لم يكن من الناحية المنطقية

---

(١) [المترجم: لتوضيح هذا نورد ما ورد في الطبري جـ ١ ص ٣٣٤٤: «قيل لعلي، بعد ما كُتبت الصحيفة، إن الأشتر لا يقرّ بما في الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم. قال علي: وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا. فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت. فإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله عزّ وجلّ ـ ويتعدى كتابه» ـ وفي موضع آخر جـ ١ ص ٣٣٦٠: «إن علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج: زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي، فدخلا عليه فقالا له: =

تناقضاً. ذلك أن علياً ـ إنْ طوعاً وإنْ كرهاً ـ قد عقد ميثاقاً مع الشيطان (أعني مع معاوية) ولم يشأ نقض هذا الميثاق. لقد تخلى عن الحق الإلهي، حق الجهاد ضد عثمان ومعاوية، من أن يصون ميثاقاً مع بني الإنسان، ميثاقاً يقضي على ذلك الحق الإلهي. ولهذا ساخت الأرض تحت قدميه وقضى على الخلافة. أما أولئك الذين بقوا على ولائهم له فقد ألهوا شخصه، وحسبوا أن الأمر ليس أمر الله، بل أمر علي، كما حسب أهل الشام أن الأمر أمر معاوية. فلم يكن الأساس الذي يستندون إليه أساساً آخر غير الأساس الذي استند إليه أهل الشام ولا أشد منه وثوقاً، فلما انتظروا كلمة التحكيم، تخلوا عن اعتقادهم الديني السياسي الثابت، الاعتقاد الضروري لكل مسلم في أمر الخلافة. ومن هنا بدأوا يخجلون من مقتل عثمان إذ أعوزهم

= «لا حكم إلا الله»! فقال علي: «لا حكم إلا الله!» فقال له حرقوص: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال لهم علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا، وقد قال الله عز وجل: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون». فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن نتوب منه. فقال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف من الفعل؛ وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه».]

اليقين الإلهي في هذا الأمر، ومن هنا أيضاً لم يعودوا يستطيعون أن يقرروا عزل أهل الشام عن الأمة الإسلامية. واتجهت أنظارهم شيئاً فشيئاً نحو علي وشيعته، فحسبوا أن الحق لم يكن إلا تَعِلّةً تعلل بها، والواقع أنه ما أراد إلا السلطان. وكان الوضع على هذا منذ البداية ولم يصر إلى ذلك فيما بعد فحسب.

فالخوارج إذن كانوا حزباً ثورياً صريحاً، كما يدل على ذلك اسمهم، أجل كانوا حزباً ثورياً يعتصم بالتقوى. لم ينشأوا عن عصبية العروبة، بل عن الإسلام. وكانوا ينظرون إلى حذاق التقوى الإسلامية، وهم القراء، كما ينظر «المتحمسون» اليهود إلى الفِرِّيسيِّين[1] ـ هذا من الناحية الشكلية. أما من الناحية الموضوعية فثمت فارق آخر، وهو أن «المتحمسين[2]» كانوا يكافحون من أجل الوطن القومي، بينما الخوارج كانوا يجاهدون في سبيل الله وحده.

---

(١) ثيوفانس ص ٤٣٩ س ١٣، نشرة دي بور Theophanes, ed. de Boor

(٢) [المترجم: المتحمسون Zeloten فرقة من اليهود في أورشليم على عهد طيطش، وقد أنشأها يوداس الجليلي للقيام بالكفاح المسلح في حرب اليهود ضد روما (من سنة ٦٧ إلى ٧٠ بعد الميلاد)، وكانوا شديدي العصبية والغيرة الدينية. والكلمة Zelot يونانية معناها المتحمس الأعمى، النصير المتعصب، الغيور].

والتقوى في الإسلام ذات اتجاه سياسي عام، والأمر كذلك إلى أعلى درجة لدى الخوارج. فالله يطلب من المؤمنين ألا يسكتوا إذا رأوا منكراً على الأرض. فهم لا يقصرون على أنفسهم فعل الخير وترك الشر، بل عليهم أيضاً أن يعملوا حتى يكون الأمر كذلك في كل مكان وعند سائر الناس، أعني أن عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتغيير المنكر واجب على كل فرد: بلسانه وبيده. وهذا المبدأ مبدأ إسلامي عام، ولكن تحقيقه بمناسبة وغير مناسبة كان علامة دالة على الخوارج.

ولكن واجب الفرد في نصرة الله إذا خولف عن أمره يؤدي إلى تصادم مع السلطة الحاكمة. ومن هنا فإن السلطة الحاكمة الدينية ـ ليست وحدها، بل هي على الأخص ـ تعاني من تناقضٍ داخلها. لا سلطان على البشر إلا لله، ففكرة الملك إذن تتنافى مع إرادة الله، وليس لأحد قبل غيره حقوق تتصل بشخصه وتكون وراثية في أبنائه وأهله. ولا تكون السلطة شرعية إلا إذا كانت، وطالما كانت، تحكم باسم الله ووفق مشيئته، فهي إذن تخضع للدين ولنقد الدين (أي للنقد الذي يوجه إليها باسم الدين). ذلك هو القطب السالب للحكومة الدينية،

بيد أنّ لها قطباً موجباً كذلك. فهي تقيم «الجماعة»، جماعة المسلمين كلهم، في هيئة منظمة يسودها السلام والاتحاد تنتفي عنها الفوضى، وفي هذا السبيل تضع على رأسها «إماماً» يرمز ويعبر عن وحدة الأمة الإسلامية، وأول الأئمة هو النبي (محمد) المبعوث من[1] الله، ثم الخليفة الذي يخلف الرسول، وهذا الخليفة هو أيضاً ذو سلطان مقدس؛ (وإنْ كان ذلك بطريقة فرعية لا أصلية) ينتقل منه أيضاً إلى الولاة والعمال الذين يوليهم. وفي هذا التعارض بين «الدين» و«الجماعة»، بين واجب أن يضع الإنسان الله والحق فوق كل شيء ـ وواجب الخضوع لأمر الجماعة وإطاعة الإمام، ـ نقول في هذا التعارض يقف الخوارج في صف الدين بكل قوة. وفي فهمهم لماهية الدين لا يختلفون عن سائر الناس، كذلك مثارات شكواهم مشابهة لمثارات شكوى سائر الناس[2]. وإنما يمتازون من غيرهم بشدتهم في تقديم الدين على أي اعتبار آخر وتصلبهم بحيث لا يقبلون أدنى تساهل في أمر الدين.

---

(١) [المترجم: الترجمة الحرفية للنص هنا تقضي: «النبي بوصفه الوكيل المطلق السلطان عن الله»].

(٢) الطبري ص ٩٨٤ س ٨ وما يليه. «الأغاني» جـ ٢٠ ص ١٠٤ ص ١٧ وما يليه، ص ١٠٦ س ٧ ـ س ٢٢؛ ص ١٠٧ س ٧.

فلا جماعة (أي دولة) على حساب الدين، إذ الجماعة (الدولة) إنما تُصان بالعادة والنظام الظاهري وتتضمن الطيب والخبيث! ولا يعترف الخوارج بالجماعة (الدولة) التي لا يبررها إلا مجرد وجودها في الواقع التاريخي، فالأمة الحقيقية هي تلك التي لا ينتسب إليها إلا المسلمون الصالحون سواء كانوا من العلية أو الطبقة الدنيا، عرباً أو موالي، والمكانة العليا هي للأتقى. وهم لا يحسبون أنهم بهذا يمزقون شمل الجماعة. ويفخرون بقتل عثمان، ويرون أن الإقرار بهذا العمل الذي كان حجر الزاوية في الثورة هو بمثابة الشهادة، ويمتحنون كل من يشكون فيه من أنصارهم في هذه المسألة امتحاناً عسيراً. ويستحلون دماء خصومهم المسلمين. ولم يعد جهادهم ضد الكفار، بل ضد أهل السنة والجماعة من عامة المسلمين، إذ كانوا يرون في هؤلاء «كفارا[١]»، بل أشد كفراً من النصارى واليهود والمجوس، ويحسبون قتال عدوهم هذا الداخلي أهم الفروض. هم يقولون عن أنفسهم إنهم وحدهم المسلمون الحقيقيون، ولا يطلقون اسم «المسلم» على غير أنفسهم، أجل هم

---

(١) ينعتونهم بأنهم «مشركون»، «أحزاب» (ἔθνη)، «خاطئون» أو بعبارة أدق: «أهل الردة».

عند غيرهم «خوارج» الخ، لكنهم عند أنفسهم: «المسلمون» أو «المؤمنون» ويلقبون رئيسهم بلقب «أمير المؤمنين». وكما اعتزل النبي كفار أهل مكة، كذلك اعتزلوا هم جمهور أهل الضلالة. فهاجروا من «دار الحرب» أو «دار الخاطئين» إلى «دار الهجرة» أو «دار السلام» وهو الاسم الذي يسمون به حاضرتهم التي تتغير كثيراً.

ومع هذا كله فليسوا من نوع الفوضويين المستنيرين. فوحدة جماعة المؤمنين تتمثل في عسكرها. وهم يرون ضرورة وجود إمام على رأس الحكومة الدينية: يؤم المسلمين في الصلاة، ويقودهم في الجهاد. لذا لا ينكرون عثمانَ وعلياً ومعاوية إلا لأنهم أئمة زائفون، يريد الخوارج أن يستبدلوا بهم أئمة صالحين. ذلك لأنه إذا صلح الإمام صلحت الأمور كلها. والنعيم الباقي رهين بهذا، إذ الاتجاه السياسي على الأرض يقرر المصير في السماء: إلى النعيم أو إلى الجحيم. وتحت اللواء الذي يحارب المرء باسمه يَمْثُل أيضاً أمام الله. فالإمام إمام في الدنيا والآخرة، في الحياة وبعد الموت ـ هذا هو المذهب السائد في الإسلام. وبقدر ما في مركز الإمام من خطورة تكون الصعوبة في اختيار من يصلح له في نظر الخوارج. فكونه أصلح الناس للإمامة ـ هذا أمر لا يثبت إلا بالأعمال، فإن أذنب ذنباً

صريحاً، مهما يكن من ضآلة هذا الذنب، فهو «كافر» وفي الخلاف حول مسالة الإمامة كان التعارض شديداً لا بين الخوارج وسائر الأمة فحسب، بل وأيضاً بينهم وبين بعض، إذ تفرقوا في هذه المسألة إلى فرق تتمايز بخلافات فرعية. ولهذا فمن الصحيح موضوعياً، وإنْ لم يصح شكلاً، أنْ يؤخذ عليهم أنهم لا يريدون الإقرار بأية «إمارة» («الكامل» ص ٥٥٥ س ١٨). وأيّة فكرة تدعى دعاوى كهذه لا بد أن تحطم الجماعات التي أقيمت لتحقيقها[١].

لما كان النبي يقسِّم في الجعرانة غنائم يوم حنين ولم تكن القسمة بطريقة متساوية «أقبل رجل من بني تميم يقال

---

(١) يتضح موقف الخوارج السياسي بمقارنته بموقف المرجئة وكانوا ضد الخوارج والشيعة معاً «الأغاني» جـ ٧ ص ١١ س ٢٤ ص ١٦ س ١٢ وما يليه) وسعوا إلى تخفيف غلواء هذه المذاهب المتطرفة. قال المرجئة إن الخوارج لا يعدون مسلماً غير الخارجي ويحكمون على إيمان الناس بأحكام قطعية، وبهذا يسبقون حكم الله. ورأى المرجئة أن من يتبعون إماماً فاسداً يمكن أيضاً أن يكونوا من المسلمين الصالحين. ويتركون لله الإجابة عن مسألة: من الأحق بالخلافة، علي أو عثمان. وكانوا ينكرون حق الأمويين في الخلافة، شأنهم في هذا شأن سائر الفرق. بيد أنهم لم يبينوا من هو الإمام الحق، بل اكتفوا بأن قالوا إن حق الخلافة ليس حقاً شخصياً لأحد. وكان الحارث بن سريج في خراسان ممثلاً نشيطاً لمذهبهم. ولثابت قطنة قصيدة يذكر فيها مبادئ المرجئة، وقد ترجمها فان فلوتن Van Vloten في «مجلة» جمعية المستشرقين الألمانية» ZDMG سنة ١٨٩١ ص ١٦٢ وما يتلوها. [تجد هذه القصيدة في «الأغاني» جـ ١٣ ص ٥٢، طبع بولاق ـ المترجم].

له ذو الخويصرة فوقف على رسول الله (صلعم) وهو يعطي الناس فقال: يا محمد! قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم! فقال رسول الله: أجل! فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت. فغضب رسول الله (صلعم) ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟! فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ألا نقتله؟ فقال: لا! دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا[١] منه كما يخرج السهم من الرمية: ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء: سبق الفرث والدم[٢].» وطبيعي أن هذه القصة عن هذا السلف

---

(١) وهذا يفسر تسمية «الخوارج» أيضاً باسم «المارقين» لأن الفعل من «خوارج» يدل أيضا بمعنى: نفذ وخرج من الطرف الآخر (أي السهم).

(٢) ابن هشام ص ٨٤٤، الطبري جـ ١ ص ١٦٨٢، الواقدي ص ٣٧٧، الكامل ص ٥٤٥، البخاري جـ ٢ س ١٥٩، ص ١٦١ وما يليها، ص ١٨٧ وما يليها، ص ٢٢٦ وما يليها، جـ ٣ ص ٦٢، ص ١١٤، ص ١٩٦، جـ ٤ ص ٦٣، ص ١٦١ وما يليها، ص ١٨٣ وما يليها. ولقب: «ذو الخويصرة» يستبدل به «ذو الثدية» و«المُخْدَج» ـ والثلاثة بمعنى واحد هو: رجل مشوه الذراع، يده قطعة لحم شبيهة بثدي المرأة (يصحح الواقدي ص ٣٧٧ تبعاً لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٩٢ والمسعودي ٤/ ٤١٦). وورد في «الكامل» ص ٥٩٥ س ١٨ أن التميمي المذكور هو حرقوص بن زهير، راجع ما ورد عنه في الطبري جـ ١ ص ٢٥٤١ وما بعدها، وص ٢٩٥٥، ص ٣٣٤٠ وما يليها، ص ٣٣٦٤ وما يليها، ص ٣٣٨٠ وص ٣٣٨٢. ولكنه في الحقيقة شخص مجهول تماماً. وقد أمر علي بن أبي طالب بالبحث عن جثة ذي الثدية (الطبري ص ٣٣٨٣ وما يليها) بين قتلى معركة النهروان. وكثيراً ما كان علي يتحدث عن رجل =

القديم للخوارج قصة أسطورية. ولكن من الصحيح أن محمداً كان يتصرف في الغنائم والأموال العامة حسبما يتراءى له كما كان هذا شأن عثمان وخلفه (علي) وأن ما أخذ على ذاك يمكن أن يؤخذ بالدرجة عينها على النبي. وما يعنيني هنا قبل كل شيء هو نقد الخوارج الصائب هاهنا، فالتشدد في مبادئ الإسلام يفضي بهم إلى أن يتجاوزوا بنقدهم على النبي نفسه.

ومذهب الخوارج مذهب سياسي، هدفه تقرير الأمور العامة وفقاً لأوامر الله ونواهيه. بيد أن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها، فضلاً عن أنها منافية للمدينة: لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها! وهو أمر لم يكونوا يجهلونه. إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض. وإنما يرضون أن يموتوا مجاهدين. إنهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم على سوق ثمن أرواحهم

= مخدج اليد كعلامة على الخوارج حتى إنّ نافعاً المخدج، من كثرة ما سمع علياً يقول ذلك، حسب أنه هو المقصود فخرج يريد الخوارج تحت تأثير هذا الوهم (الطبري ص ٣٣٨٨). وقد ورد في أبيات للشاعر الشيعي السيد الحميري («الأغاني» جـ ٧ ص ١٣).

فهذا الخارجي القديم المجهول الاسم يبدو إذن أنه صورة قديمة التاريخ.

فيه هو الجنة[١] . والأساس الذي يستند إليه هذا التهور في التقوى هو الإيمان الحق بأن الدنيا عبث وأن بقاءها قصير وأن يوم الساعة قريب. وهم إذن يبذلون كل طاقة عسكرية من أجل تحقيق سياسةٍ خِلْوٍ من كل سياسة، ابتغاء الفوز بالجنة. ويطلبون النجاة لنفوسهم بأن يقاتلوا «الجماعة» الكافرة دون أدنى تحفظ قِبَل غيرهم أو قِبَل أنفسهم. إنهم خصوم ألداء لجمهور الأمة، لا يسايرون النظام السائد للجماعة، انفصاليون. فالفرد في حقيقة الأمر يقوم بمفرده ولذاته. وعليه أن يؤمن إيماناً وثيقاً بحقه في العقيدة الدينية السياسية. وعليه بذل غاية الوسع ليقول الحق («الأغاني» جـ ١٦ ص ١٥٧)، ويثبت ذلك بالأعمال لا بالأقوال وحدها. ومن يشك في أنه على حق فهو كافر («الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٨، ص ١٠٥). كذلك من انحرف في عمله عن الصراط المستقيم فهو كافر، خصوصاً إن زعم أن ذاك لا يمكن تجنبه في جميع الأحوال («الأغاني» جـ ٢٠ ص ١٠٤). ومن زل زلة فقد مرق عن الإسلام

---

(١) ومن هنا تلقيبهم بلقب «الشراة» (لفظة عربية قديمة نجدها مثلاً في ديوان عروة بن الورد ص ٣ س ٧) ونجده كذلك لدى ثيوفانس ص ٣٦٦ س ٢٨ ـ لأن παράβουλς يقصد بها παράβολς واشتقاقها من παραβάλλεσθαι τὴν ψυχήν بمعنى: قدم حياته.

ولا يجدد إيمانه إلا بتوبة علنية وردة قوية إلى الإسلام. وامتحان الإيمان أمر مقرر، لا يقتصر على امتحان المرء إيمان نفسه، بل يتجه خصوصاً إلى امتحان إيمان الآخرين، والأمور كلها حلال أو حرام وليس ثمت أمور لا هي حلال ولا هي حرام (على عكس ما يقول به «المحلِّون»). فالواقع إذن أن الخوارج ذوو نزعة فردية مغالية من نوع خاص تماماً. وبالرغم من أن العلامة المميزة لهم كل التمييز هي الترجمة عن إيمانهم بالأفعال وامتشاق السيف في سبيل إقرارها كلما اجتمع اثنان من رأي واحد، فإنهم مع ذلك قد شاركوا في وضع الزندقة النظرية أعني علم الكلام. فقد كانوا يسألون عن مسائل تتجاوز نطاق الموروث من العقائد ويجادلون خصومهم بشأنها، فلم يتنكروا أبداً لأصلهم وهو القُرَّاء. ولا شك في أن الطبقة الأولى من علماء الكلام في الإسلام قد تأثروا من الخوارج.

٦ ـ وأهم راوية نقل أخبار الخوارج، خصوصاً الكوفيين منهم، هو أبو مخنف، لقد انفصل الخوارج على تربة الشيعة التي نموا فيها لما أن غضبوا من عليٍّ لأنه لم ينقض الميثاق الذي عقده مع أهل الشام ـ وكان الميثاق إنكاراً للإيمان ـ لأنه ينطوي على تزعزع إيمانه بحقه

المطلق في الإمامة كما يقره الإسلام الذي لا يقرّ حق عثمان ومعاوية، فقد رأوا أنه كان عليه أن يبادر بنقض هذا الميثاق تواً حتى يصلح الأمر. ولم يكونوا في البدء متشددين كل التشدد في موقفهم قِبَله، بل اقتنعوا بالتخلي عن مركزهم في حروراء والعودة إلى قاعدة عليٍّ في الكوفة. ولكن علياً سبب لهم بعد ذلك خيبة أمل جديدة، مما أدى إلى انشقاقهم عليه بعد حوالي عام واحد. وعلى الرغم من أن عدد المنشقين هذه المرة كان أقل بكثير من عددهم في المرة الأولى (بعد صِفّين والتحكيم)، فقد كانوا أشد عزماً وصلابةً. ونصبوا له خليفة اختاروه هم، وكان من اختاروه هو عبد الله بن وهب الراسبي الأَزْدي، وكان يُقال له «ذو الثَّفِنات» لأن رُكبَه قد صارت كثفنات الإبل من كثرة السجود، شأنه في هذا شأن يعقوب[١] العادل. وأرادوا جهاد الكفار بقيادته، ومن هؤلاء الكفار علي وشيعته. فخرجوا وحداناً مستخفين من الكوفة حتى يجتمعوا في النهروان على الشاطئ الآخر من دجلة. وهناك التقوا أيضاً بأنصارهم من أهل البصرة وكانوا خمسمائة رجل

---

(١) راجع عن يعقوب العادل هذا: يوسبيوس: «تاريخ الكنيسة» ٢ : ٢٣ Eusebius: Hist. Eccles.

على رأسهم مِسْعَر بن فَدَكي التميمي. فلقيهم في الطريق عبد الله بن خباب وكان رجلاً نابهاً فامتحنوه في موقفه من عثمان ومن علي، ولكن لم يعجبهم جوابه[1]. على أنهم كانوا في نواحٍ أخرى مرهفي الضمير، فيقال إن أحدهم لفظ من فمه ثمرة بعد أن تبين له أنها ليست له، وأن آخر قد دفع ثمن خنزير لصاحبه النصراني لأنه قتل الخنزير من غير حق. أما ضد المسلم الذي لا يؤمن إيماناً صحيحاً فقد كانوا بغير رحمة ولا هوادة. وهكذا اقتادوا ابن خباب إلى ماء وذبحوه عنده هو وامرأته وكانت معه. وكم قتلوا على هذا النحو كثيرين!

فاستولى على أهل الكوفة الغضب، وخرجوا بقيادة عليّ ـ ويقال إنه أرغم على السير معهم ـ لمحاربة هؤلاء المفسدين في النهروان، وكان عليّ في جيش كبير «جعل على ميمنته حجر بن عديّ، وعلى ميسرته شبث بن ربعيّ أو معقل بن قيس

(١) وفي رواية أخرى أنهم غضبوا عليه لأنه أذاع أن الرسول كان يقول بالامتناع عن الاشتراك في حرب بين الأهل، وأولى بالمرء أنْ يُقتل (بضم الياء) من أن يسفك دم أخيه المسلم. [المترجم: نص الحديث هو أن رسول الله صلعم ذكر فتنة «القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى خير من الساعي، قال فإن أدركتم ذلك فكن يا عبد الله المقتول ولا تكن يا عبد الله القاتل ـ راجع الطبري جـ ١ ص ٣٣٧٣ س ١٥ ـ ١٨].

الرياحيّ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجّالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل ـ قيس بن سعد بن عبادة[١]». (وكان شبث بن ربعي من الحرورية أيضاً). فدعا عليّ الخوارج إلى تسليم القتلة، فأنكروا وقالوا: نحن جميعاً قتلته. إنهم لم يريدوا مفاوضة للسلام، بل سعوا إلى الموت في جهاد مع السلطان: «لا تسمعوا لكلامه، بل استعدوا للقاء وجه الله، الرواح الرواح إلى الجنة!» لكن بعضهم انعطفوا إلى الجبال إذ شق عليهم أن يرفعوا السيف على عليّ، وذهب البعض الآخر إلى عليّ وانضموا إليه أو قفلوا عائدين إلى الكوفة. وفي ٩ صفر سنة ٣٧ هـ (١٧ يوليو سنة ٦٥٨ ميلادية) التقى الجمعان. ولم يكن قد بقي مع الراسبي غير ٢٨٠٠ من ٤٠٠٠ رجل. فقتل أكثرهم كما قتل خليفتهم ـ عبد الله بن وهب الراسبي ـ؛ وأخذ الجرحى مع المنتصرين إلى الكوفة حيث قام أهلهم بالعناية بجراحهم.

بيد أن هذه الهزيمة النكراء لم تضع حداً لحركة الخوارج، بل سرعان ما انبثق خوارج أخر من دماء أولئك الشهداء. وإنما كانت نتيجتها أن أصبح الصدع بين الخوارج والجماعة

---

(٣) [نقلنا النص عن الطبري جـ ١ ص ٣٣٨٠ س ١ ـ ٥ لأنه أوفى].

صدعاً لا يمكن رأبه مدى الدهر، وشبيه هذا ما حدث من بعد من شقاق بين كلب وقيس نتيجة لمعركة مرج راهط. وكانت أعظم ضحية للانتقام من معركة النهروان هي الخليفة عليّ نفسه؛ لأن الذي حرض قاتل عليّ على قتله هو عروسه قطام ابنة الشّجنة وقد قتل أبوها وأخوها في ذلك الحمام الدموي الذي كان يوم معركة النهروان. وهكذا انتقم مراديٌّ وأخذ بثأر تميمية، لأن الأمر لم يكن أمر قبيلة بل أمر حزب سياسي أو فرقة دينية.

على أنّ ابن الأثير يضيف ذكر بضعة أحداث وقعت بعد معركة صِفّين (ج ٣ ص ٣١٣ وما يليها). إذ يذكر أن أشرس بن عوف الشيباني، الذي نزل الدسكرة في مائتي رجل، قتل في ربيع الثاني سنة ٣٨ هـ، وأن هلال بن عُلَّفة من تيم الرباب وأخاه مجالدا ـ وكانا على رأس ما يزيد على مائتي رجل في ماسبذان قتلا في جمادى الأولى سنة ٣٨، وأن الأشهب بن بشر البجلي ـ وكان معه ١٨٠ رجل، قتل في جرجرايا على الدجلة. وزحف أبو مريم، من بني سعد تميم، حتى بلغ أبواب الكوفة وقاتل أحد قواد علي، وقتل هو في رمضان سنة ٣٨. وكان جيشه أن يكون كله

من الموالي، والموالي كانوا أشجع الخوارج وأشدهم بسالةً وجسارةً[١].

وكل ما يرويه أبو مخنف ـ فيما نقله الطبري جـ ١ ص ٣٣٨٠ ـ هو أن فروة بن نوفل الأشجعي ترك ميدان القتال النهروان «وانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنيجين والدسكرة» في ناحية شهرزور. ولحق به أيضاً خنثر بن عبيدة المحاربي الذي قاتل يوم صِفّين حتى ارتُثَّ (الطبري جـ ١ ص ٣٣٠٩ وما يليها). ذلك أنهم أبوا أن يقاتلوا علياً وإخوتهم من أهل الكوفة، وكانوا بعد مقتل علي ـ كما يروى بكائي بن عوانة (الطبري جـ ٢ ص ١٠) ـ من أشد الناس عداوة لمعاوية، فبعد أن استولى معاوية على العراق ونزل النخيلة قرب الكوفة ساروا إلى معاوية وقاتلوا فريقاً من أهل الشام حتى كشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بواثقكم. فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم. فقالت لهم الخوارج: ويلكم! ما تبغون منا؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا حتى نقاتله: فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإنْ أصابنا كنتم قد كفيتمونا. قالوا: لا والله

(١) راجع اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٦٢.

حتى نقاتلكم! فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر! هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة» (الطبري ص ١٠٢) فأبى أهل الكوفة وقاتلوهم، وهنالك أدرك الخوارج كم كان إخوانهم الذين قتلوا في يوم النهروان على حق. وكان أقرباء فروة بن نوفل قد أخذوه قبل نشوب القتال[١].

ولم ينتخب الخوارج في الكوفة خليفةً جديداً لهم بعد مصرع الراسبي إلا بعد أن تولى المغيرة بن شعبة أمر الكوفة. وهذا الخليفة الخارجي الجديد هو المستورد بن علفة من تيم الرباب الذي روى ابن الأثير أن أخويه هلالاً ومجالداً استشهدا في المعارك التي وقعت بعد يوم النهروان. ورواية

---

(١) يميز «الكامل» بين معركتين عند النخيلة: (الأولى) ضد علي وكانوا بقيادة المستورد (ص ٥٧٦ وما يليها). راجع عكس هذا في ص ٥٤٨، و(الثانية) ضد معاوية، وكانوا بقيادة خوثر الأزدي ص ٥٧٧ وما يليها. ولكن ذكر المستورد سابق لأوانه، أما خوثر فهو خنثر المحاربي. والقوم الذين حاربوا علياً في معركة النخيلة الأولى لا يمكن أن يكونوا أولئك الذين حاربوا علياً في النهروان. ثم إنه أقرب إلى العقل أن يكونوا لم يحاربوا علياً في معركة النخيلة الأولى، بل حاربوا معاوية. والواقع أن ياقوت (٢/ ١٥٣) يجعل الأبيات، التي يذكر «الكامل» أنها تتعلق بمعركة النخيلة الأولى، يجعلها تتعلق بمعركة النخيلة الثانية، ورأى ياقوت أرجح إذ من الصعب أن نعزو إلى علي أنه أمر بإحضار رؤس الخوارج المطاحة إليه أكواماً. وفي الحق أنه لا فارق بين معركة النخيلة الأولى والثانية. وإذا كان السيد الحميري («الكامل» ص ٥٧٧) قد رأى في القتال الذي نشب هناك أنه ضد علي، فالواقع أنه كان ضد الشيعة من أهل الكوفة الذين أطاعوا أمر معاوية بقتال الخوارج، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا لقتالهم كارهين.

أبى مخنف فيما يتصل به تعود إلى شاهديْ عيان لا يفصلهما عنه إلا راوية واحد، وقد ألف أبو مخنف بين الروايتيْن حتى تتسقا وتكتملا في وحدة واحدة، مع أن الروايتيْن صدرتا عن معسكرين متعاديين. وأحد الشاهدين هو عبد الله بن عقبة الغنوي، كان في شبابه يرى رأي الخوارج وساهم معهم مساهمة غير قليلة، بيد أنه ترك الخوارج فيما بعد، وشخصيته جذابة، وروايته تقدم صورة حية عن قدماء الخوارج، ومن هنا كانت روايته مفيدة كل الفائدة، وإن كانت لا تتعلق إلا بحركة ثورية عابرة.

كان حيان بن ظبيان السلمي «ممن ارتث يوم النهروان. فعفا عنه علي في الأربعمائة الذين كان عفا عنهم من المرتثين يوم النهر. فكان في أهله وعشيرته، فلبث شهراً أو نحوه. ثم إنه خرج إلى الرّيّ في رجال كانوا يرون ذلك الرأي (أي رأى الخوارج). فلم يزالوا مقيمين بالريّ حتى بلغهم قتل علي» وأن قاتله هو أخوهم ابن ملجم «أخو مراد»، فخرجوا معه مغتبطين وأقبلوا حتى نزلوا الكوفة، لينتقموا ليوم النهروان، وليذودوا عن «سنَّة الهدى المتروكة» بقتال الكفرة الفاسقين، فإن لم يظفرهم الله بهم فيكونوا قد أرضوا الله وأبرأوا ذممهم إليه. وتم ذلك في عهد خلافة

الحسن بن علي بن أبي طالب. ولما تولى معاوية الخلافة «بعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم» (الطبري ٢/ ١٩) ما داموا لم ينتقلوا من الكلام إلى الأفعال، «وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون» (٢/ ٢٠). وتبعاً لهذا المبدأ تغاضى عن الخوارج. فراحوا «يتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأنّ في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر» (٢/ ٢٠) فاتفقوا على إعلان القتال على أهل القبلة، أي على أهل السنة والجماعة. ومن أجل هذا عقدوا اجتماعات منتظمة في دار حيان بن ظبيان حضرها أيضاً «معاذ بن جوين بن حصين الطائي السَّنبسيّ وهو ابن عم زيد بن حصين، وكان زيد ممن قتله عليّ يوم النهروان، وكان معاذ بن جوين هذا في الأربعمائة الذين ارتثوا من قتلى الخوارج فعفا عنهم علي»، وحضرها أيضاً المستورد بن علّفة التميمي ـ وكان الثلاثة أبرز الحاضرين. فبايع الجميع المستورد بن علّفة التميمي لأنه أسنُّ الثلاثة، وذلك في جمادى الآخرة، وكان ذلك إيذاناً بالهجوم.

فاتعدوا على الخروج في غرة الهلال، هلال شعبان سنة ٤٣ هجرية[١].

بيد أن المغيرة بن شعبة جاءه خبر هذه المؤامرة فأمر بالشرطة تسير حتى تحيط بدار حيان بن ظبيان. «فسار قبيصة (بن الدمون) في الشرطة وفي كثير من الناس فلم يشعر حيان بن ظبيان إلا والرجال معه في داره نصف النهار وإذا معه معاذ بن جوين ونحو من عشرين رجلاً من أصحابهما» (الطبري ٢/ ٢٩) ووجدت امرأة حيان الوقت لكي تخفي السيوف، التي كانت لهم، تحت الفراش. فلما مثلوا أمام المغيرة أنكروا وادعوا أنهم إنما يجتمعون في منزل حيان بن ظبيان ليقرأوا القرآن عليه، فلم يقتنع المغيرة بكلامهم وأمر لهم أن يسجنوا، فقضوا في السجن

---

(١) الطبري ٢/ ٢١. إذا كان ميعاد الهجوم في سنة ٤٣، فلا بد أن البيعة قد تمت أيضاً في تلك السنة، لا في السنة السابقة عليها كما يبدو مما في الطبري. لأن فترة طويلة مثل ١٤ شهراً لا يمكن أن تكون موضع نظر. وفي مقابل هذا فإن من الممكن أن يكون ميعاد الهجوم قد تأجل بسبب موانع طارئة. وعلى هذا الفرض الأخير تكون سنة ٤٣ هي سنة الهجوم الفعلي، بينما كان الاتفاق في البدء على سنة ٤٢. وسنة ٤٣ تبدأ في ١٥ إبريل سنة ٦٦٢. قارن ما يقوله اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٦٢.

قرابة عام[١]. فلما سمع إخوانهم بأخذهم، حذروا، وخرج صاحبهم المستورد بن علفة فنزل بمدينة الحيرة، ويسكنها النصارى، إلى جنب قصر العدسين من كلب. فبعث إلى إخوانه وكانوا يختلفون إليه ويتجهزون، ولكن فاجأهم هناك حجار بن أبجر، وكان بكرياً من أصل مسيحي[٢]، إذ أشرف عليهم من دار كان هو فيها. ووعدهم حجار بألا يذيع سرهم، وكان عند وعده، لكنهم تركوا ذلك المكان واستتروا في الكوفة. ووجد المستورد ملجأ له وأصحاب له خمسة أو ستة في دار سليم بن محدوج من بني عبد القيس، وكان له صهراً ولكنه لم يكن خارجياً. فبلغ المغيرة بن شعبة أن الخوارج يدبرون أمراً دون أن يتبين بالدقة حقيقة ما يدبرونه. فقام في الناس وخطب قائلاً إنه لم يكن يود استعمال العنف ولا يريد أن يُعْصَب الحليم التقيُّ بذنب السفيه، ولكنه مضطر أن يطلب إليهم أن يكفوا سفهاءهم قبل أن يشمل البلاء عوامَّهم، ولكنه لم يكن يعرف أسماء هؤلاء السفهاء،

---

(١) راجع في الطبري ٢/ ٣٦ أبياتاً قالها معاذ بن جوين بن حصين ـ وكان أحد هؤلاء المسجونين ـ يحض فيها إخوانه الخوارج على الهجرة من ديار الكفار ويأسى على عدم تمكنه من ذلك.

(٢) الطبري ١/ ٣٦٤٠، ٢/ ٢٣٥، الدينوري ص ٢٢٨.

إذ لم يسمّ له أحد منهم. فتنادى رؤساء القبائل أنْ يدل كل رئيس على سفهاء قومه إذا عرف شيئاً «فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة. وجاء صعصعة بن صوحان فقام في عبد القيس» (الطبري ٢/ ٣٣). قام فيها بعدما صلى العصر فقال إن بني عبد القيس كانوا دائماً من أخلص الناس للرسول ولعليّ، وكانوا بهذا خصوماً للخوارج. فأمَّن جميع الحاضرين على قوله، «غير سليم بن محدوج فإنه لم يقل شيئاً. فرجع إلى قومه كئيباً واجماً يكره أن يخرج أصحابه من منزله فيلوموه... ويكره أن يطلبوا في داره فيهلكوا ويهلك» (الطبري ١/ ٣٥). بيد أن المستورد أخرجه من ورطته وحيرته، وذلك بأن قرر بنفسه الارتحال ومن معه من منزل سليم. «فبعث المستورد إلى أصحابه فقال لهم: اخرجوا من هذه القبيلة لا يصب امرءاً مسلماً في سببنا بغير علم معرة... فاتعدوا «سوراً» فخرجوا إليها مقتطعين من أربعة وخمسة وعشرة، فتتاموا بها ثلثمائة رجل. ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة» (٢/ ٣٧). غير أن المغيرة بن شعبة أخبر خبرهم، فدعا رؤساء الناس وسألهم من يريد الذهاب لمقاتلهم. وكانوا من

الشيعة فتحمسوا جميعاً لقتالهم. وكان من أشدهم حماسة صعصعة بن صوحان العبدي فقام وقال: «ابعثني إليهم أيها الأمير! فأنا والله لدمائهم مستحلٌّ وبحملها مستقلٌّ. فقال (المغيرة) اجلس فإنما أنت خطيب. فكأنه أحفظه بذلك. وإنما قال ذلك لأنه بلغه أنه يعيب عثمان بن عفان ويكثر ذكر عليٍّ ويفضله» (الطبري ٢/ ٣٨). واختار المغيرة معقل بن قيس التميمي فخرج على رأس جيش يبلغ «ثلاثة آلاف: نقاوة الشيعة وفرسانهم» (٢/ ٣٩).

ويروي أبو مخنف حكاية عن عبد الله بن عقبة الغنويّ أنه قال: «كنت فيمن خرج مع المستورد بن علفة، وكنت أحدث رجل فيهم... فخرجنا حتى أتينا الصراة فأقمنا بها حتى تتامّت جماعتنا. ثم خرجنا حتى انتهينا إلى بهرسير[1]. فدخلناها». وأرادوا أن يعبروا الجسر على الدجلة إلى المدينة العتيقة، أعني المدائن. ولكن سماك بن عبيد العبسيّ ـ وكان عاملاً للمغيرة على المدائن ـ قطع الجسر

---

(١) في مواجهة المدائن (= طيشفون)، واسمها في اليونانية «سلوقية». ووردت عند ثيوفانس ٣٢٣/ ١٨ (نشرة دي بور) برسم: Guedesir، كما أن أردشير وردت برسم: Adesir. راجع ترجمة نيلدكة لفصل «الفرس» من تاريخ الطبري جـ ١٠ تعليق ٣.

عليهم ومنعهم من دخول المدائن. فكتب إليه المستورد كتاباً يقول فيه: «نقمنا على قومنا الجور في الأحكام وتعطيل الحدود والاستئثار بالفيء. وإنا ندعوك إلى كتاب الله ـ عزّ وجل! ـ وسنة نبيّه ـ صلعم! ـ وولاية أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما، والبراءة من عثمان وعليّ لإحداثهما في الدين وتركهما حكم الكتاب. فإن تقبل فقد أدركت رشدك، وإلا تقبل فقد أبلغنا في الإعذار إليك. وقد آذنّاك بحرب فنبذنا إليك على سواء» (الطبري ٢/ ٤٠ ـ ٤١). وكان على عبد الله بن عقبة الغنويّ أن يحمل هذا الكتاب إلى سماك. وكان مطلباً شاقاً على نفسه إذ كان فتى حدثاً لم يجرّب الأمور، فقال للمستورد: «أصلحك الله! لو أمرتني أن استعرض دجلة فألقي نفسي فيها، ما عصيتك. ولكن تأمن عليّ سماكا أن يتعلّق بي فيحبسني عنك. فإذا أنا قد فاتني ما أترجاه من الجهاد! فتبسم وقال: يا ابن أخي! إنما أنت رسول، والرسول لا يعرض له. ولو خشيت ذلك عليك لم أبعثك، وما أنت على نفسك بأشفق مني عليك. قال: فخرجت حتى عبرت إليهم من معبر، فأتيت سماك بن عبيد، وإذا الناس حوله كثير. قال: فلما أقبلت نحوهم أبدُّوني أبصارهم. فلما دنوت منهم

ابتدرني نحو من عشرة وظننت والله أن القوم يريدون أخذي وأن الأمر عندهم ليس كما ذكر لي صاحبي. فانتضيت سيفي وقلت: كلا! والذي نفسي بيده، لا تصلون إليّ حتى أعذر إلى الله فيكم. قالوا لي: يا عبد الله! من أنت؟ قلت: أنا رسول أمير المؤمنين المستورد بن علّفة. قالوا: فلم انتضيت سيفك؟ قلت: لابتداركم إليّ، فخفت أن توثقوني وتغدروا بي. قالوا: فأنت آمن، وإنما أتيناك لنقوم إلى جنبك ونمسك بقائم سيفك وننظر ما جئت له وما تسأل. قال: فقلت لهم: لست آمناً حتى تردّوني إلى أصحابي؟ قالوا: بلى! فشِمْتُ سيفي، ثم أتيت حتى قمت على رأس سماك بن عبيد، وأصحابه قد أنشبوا بي: فمنهم ممسك بقائم سيفي، ومنهم ممسك بعضدي. فدفعت إليه كتاب صاحبي. فلما قرأه، رفع رأسه إليّ فقال: ما كان المستورد عندي خليقاً ـ لما كنت أرى من إخباته وتواضعه ـ أن يخرج على المسلمين بسيفه، عرض على المستورد البراءة من عليّ وعثمان، ويدعوني إلى ولايته، فبئس والله الشيخ أنا إذاً. قال: ثم نظر إليّ فقال: يا بنيّ! اذهب على صاحبك فقل له: اتقّ الله وارجع عن رأيك، وادخل في جماعة المسلمين. فإنْ أردت أن أكتب لك في طلب الأمان

إلى المغيرة فعلت، فإنك ستجده سريعاً إلى الإصلاح محباً للعافية. قال: قلت له ـ وإن لي فيهم (أي الخوارج) يومئذ بصيرة (أي ثقة وإيماناً بهم): هيهات! إنما طلبنا بهذا الأمر الذي أخافنا فيكم في عاجل الدنيا الأمنَ عند الله يوم القيامة. فقال لي: بؤساً له! كيف ارحمك! ثم قال لأصحابه: إنهم خلوا بهذا، ثم جعلوا يقرأون عليه القرآن ويتخضّعون ويتباكون. فظن بهذا أنهم على شيء من الحقّ. إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلا! والله ما رأيت قوماً كانوا أظهر ضلالة ولا أبين شؤماً من هؤلاء الذين ترون: قلت: يا هذا! إني لم آتك لأشاتمك ولا أسمع حديثك وحديث أصحابك. حدثني أنت: تجيبني إلى ما في هذا الكتاب، أم لا تفعل فارجع إلى صاحبي؟ فنظر إليّ ثم قال لأصحابه: ألا تعجبون إلى هذا الصبيّ! والله إني لأراني أكبر من أبيه وهو يقول لي: أتجيبني إلى ما في هذا الكتاب! انطلق يا بنيّ إلى صاحبك، إنما تندم. لو قد اكتنفتكم الخيل وأشرعت في صدوركم الرماح ـ هناك تتمنّى لو كنت في بيت أمك! ـ قال: فانصرفت من عنده، فعبرت إلى أصحابي. فلما دنوت من صاحبي قال: ما ردّ عليك؟ قلت: ما ردّ خيراً! قلت له كذا وقال لي كذا

ـ فقصصت عليه القصة» ـ (الطبري جـ ٢ ص ٤١ ـ ص ٤٣).

ووجد المستورد أن منازلة أهل الكوفة ونيل الشهادة أكرم له لأن هذه الحياة الدنيا لا تساوي عنده قِبال نعله. لكنه فضل أن يرهق الأعداء المغيرين ويفرّق شملهم وذلك بالارتحال عنهم حتى يخرجوا في طلبهم فيتقطّعوا ويتبددوا. فخرج في أصحابه ومضوا على شاطئ دجلة حتى انتهوا إلى جرجرايا وعبروا دجلة ومضوا في أرض جوخى حتى بلغوا المدار وكان يتبع منطقة البصرة[١]. ومر أهل الكوفة بسورا فمكثوا بها يوماً ثم ارتحلوا ونزلوا كوثى فأقاموا بها يوماً ومن ثم مضوا حتى جاءوا إلى بهرسير، ولكن خاب ظنهم إذ كان الخوارج قد ارتحلوا وتبيّن لهم أنه لا مفر لهم من الاستمرار في هذه المطاردة المضنية. ثم أرسل قائدهم معقل ابن قبس أبا الروّاغ الشاكريّ في ثلثمائة فارس فاتبع آثارهم وخرج معقل في أثره، ولم يزل هذا دأبهم حتى لحقوا بالخوارج في المدار مقيمين. فلما دنا أبو الروّاغ منهم «استشار أصحابه في لقائهم وقتالهم قبل قدوم معقل عليه»

---

(١) يظهر من هذا إذن أنّ المدار ـ وهو مركزهم ـ كان يقع على الشاطئ الأيسر من دجلة، مثل جرجرايا.

فاختلف رأي أصحابه، فقال أبو الرواغ «إن معقل بن قيس حين سرحني أمامه أمرني أن أتبع آثارهم. فإذا لحقتهم لم أعجل إلى قتالهم حتى يأتيني... فقال له جميع أصحابه: فالرأي الآن بيِّن: تَنَحَّ بنا فلنكن قريباً منهم حتى يقوم علينا صاحبنا. فتنحينا[1]، وذلك عند المساء» (الطبري ٢/ ٤٦). ثم حدثت عند غروب الشمس وقعة عظيمة اضطر معها الخوارج إلى الاحتماء ببيوت مذار، ولما سمع الخوارج أن مدداً يبلغ ثلاثة آلاف من شيعة البصرة قد أقبل إلى جيش معقل، وأكثرهم من قبيلة ربيعة، وعلى رأسهم شريك بن الأعور الحارثي[2]، وأن هذا المدد صار قريباً كل القرب، فمضوا في الليل لا يشعر بهم أحد على طريق منعزل حتى عادوا إلى أرض الكوفة وبلغوا جرجرايا فنزلوها. وكانوا واثقين أن أهل البصرة لا يمكن أن يلحقوا بهم إلى هناك، وصدق ظنهم لأن أهل البصرة أبَوا اللحوق بهم في أرض الكوفة، وقالوا: «لا نفعل.

---

(١) طلب إليه أنْ يعترف بالهزيمة وإخلاء الميدان، فإنّ الله لا يستحي من الحق. ولكن كما يقول تريملكيو إنه لم يشأ الاعتراف بالحق.

(٢) وكان من الشيعة المتحمسين، راجع الطبري ١/ ٣٤١٧، ٢/ ١٩٦، ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٩.

إنما أقبلنا نحوهم لننفيهم عن أرضنا ونمنعهم من دخولها، فإن كفانا الله مؤونتهم فإنا منصرفون إلى مصرنا، وفي أهل الكوفة ما يمنعون به بلادهم» (الطبري ٢/ ٥٤) وإلا كان أمرهم كما قال أخو بني كنانة:

كمُرْضعةٍ أولادَ أخرى وضَيَّعَتْ بنيها، فلم تَرْقَعْ بذلك مرقعا

هنالك أرسل معقل أبا الرواغ في ستمائة فارس ليكونوا في إثرهم حتى نزلوا جرجرايا، وكان أبو الرواغ في المقدمة. ورأى الخوارج أنه لا قبل لهم بجيش أبي الرواغ، فانصرفوا حتى نزلوا ساباط[1] وانتهوا إلى جسر، وهو جسر نهر المَلِك وهو من جانبه الذي يلي الكوفة، وأبو الرواغ وأصحابه مما يلي المدائن. هنالك قرر المستورد خطة مفاجئة. إذ بينما خدع أبا الرواغ، اتجه إلى معقل نفسه وقد جاء بجيش الكوفة الرئيسي ونل ديلمايا وهي تبعد بثلاثة فراسخ عن بهرسير. ففوجئ معقل واضطرب جيشه ولم يبق معه إلا قرابة ثلثمائة رجل جثوا على ركبهم يستقبلون الخوارج بأطراف الرماح وقاوموا مقاومة شديدة مستميتة. وأوشك النصر أن يعقد لواؤه للخوارج، لولا أن ظهر

(١) مثل بهرسير: إحدى المدن المواجهة للمدائن (طيشفون).

أبو الرواغ فجأة وحمل هو وأصحابه على الخوارج من مؤخرتهم. فاحتدم القتال العنيف حتى قتل الخوارج عن آخرهم، كلهم تقريبا، بعد أن كبدوا العدو ثمناً فادحاً عن حياتهم. أما معقل بن قيس والمستورد بن علفة فقد «مشى كل واحد منهما إلى صاحبه: بيد المستورد الرمح، وبيد معقل السيف، فالتقيا، فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره، فضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط السيف أم الدماغ فخرَّا ميتين». (الطبري ٢/ ٦١) وأما عبد الله بن عقبة، الذي عرفناه من قبل رسولا إلى سماك، فقد نجا بجواده إلى الكوفة وجاء هناك بأول نبأ عن نتيجة هذه المعركة، وكان جزاؤه عن هذا أن عفى عنه. ولو جاء الخوارج كلهم إلى المغيرة لكان قد عفا عنهم أيضاً.

ولزم خوارج الكوفة الهدوء سنوات طوالا إلى أن انتخبوا لهم خليفة جديداً. وانتخاب خليفة جديد كان معناه دائماً استئناف الكفاح ضد «الجماعة». وأبو مخنف ينقل هنا أيضاً عن عبد الله بن عقبة الغنوي. وكان قيام الخوارج هذه المرة في سنة ٥٨/ ٥٩ إبان إمارة ابن أم الحكم الثقفي على الكوفة، والذين قاموا بها لا يمكن أن يكونوا من بين

أولئك الذين اشتركوا في مغامرة المستورد، لأن هؤلاء كانوا في أعماق السجون. والذي حدث هو أن الخوارج أحسوا بالندم على سكوتهم، والله قد منحهم القلب والجوارح لإنكار الجور وجهاد الظلمة ولا عذر لهم إلا بالاستشهاد. وبايعوا حيان بن ظبيان السلمي، وكان أول من بايعه زميله القديم معاذ بن جوين الطائي الذي اقترح على القوم أن يسيروا إلى حلوان فينزلوها وهناك يجمعون كل من كان على رأيهم من أهل المصر والثغر والجبال والسواد بين الكوفة والري[١]. فقال له حيان: إنهم لن يتركوا لكم الوقت بل سيعاجلونكم، لهذا أرى «أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّبَخة أو زرارة والحيرة ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا. فإني والله لقد علمت أنكم لا تقدرون، وأنتم دون المائة رجل، أن تهزموا عدوكم ولا أن تشتد نكايتكم فيهم. ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم كان لكم به العذر وخرجتم من الإثم» (الطبري جـ ٢ ص ١٨٢ ـ ص ١٨٣). ولكنهم ردوا عليه بأن هذا لا يجدي بل يفيد العدو فيتخلص من شجا في حلقه، ثبت حيان على

---

(١) كانت هذه المدينة على حدود أرض الكوفة.

رأيه، ولم يشأ الباقون أن يعارضون. بيد أنهم رأوا ألا يقوموا بالقتال في الكوفة خوفاً من أن يرجمه النساء والأطفال بالحجارة من فوق سقوف المنازل، بل ساروا إلى بانقيا على مسافة قريبة واستقبلوا القوم بوجوههم وجعلوا البيوت في ظهورهم. «فخرجوا، فَبُعِث إليهم جيشٌ، فقتلوا جميعاً» في ربيع الأول سنة ٥٩، كما أرادوا[١].

٧ ـ وكانت تلك نهاية الخوارج في الكوفة. لقد كانوا قوماً جادين بالغي الإيمان، أنبل بكثير جداً من اليهود الغيورين Zeloten، ولهذا لم يكونوا أسوأ من مبتدعة النصارى والقديسين، لأنهم كانوا رجالاً فعالين لم يطلبوا الشهادة على المقصلة، بل في ميدان الجهاد. ومن يزنهم بميزان المدينة الحديثة العلمانية لن يكون عادلاً في الحكم. لقد كان للشيعة بعد هذا سلطان غر منازع في الكوفة، بينما قضي على الخوارج فيها. مما دفعهم إلى زيادة نشاطهم في البصرة. والطبري يشير في البداية إلى خوارج البصرة

(١) ولي ابن أم الحكم إمارة الكوفة في سنة ٥٨ وطرد منها سنة ٥٩. ووقعت مأساة بانقيا في السنة الأخيرة من ولايته. ومعنى هذا في السنة الهجرية الثانية التي قضاها بالكوفة، لأن إمارته لم تستمر عاماً كاملاً. وربيع الأول سنة ٥٩ = يناير سنة ٦٧٩.

إشارة موجزة جداً، ولكنه يأتي في جـ ٢ ص ٣٩٠ فيقول إنه سبق أن ذكر سبب خروج مروان بن عمرو بن حدير وما كان من توجيه عبد الله بن زياد إليه أسلم بن زرعة الكلابي وهزيمة أسلم وجيشه منه ومن أصحابه «فيما مضى من كتابنا هذا» (جـ ٢ ص ٣٩١ س ٢)، بيد أننا لا نجد أبداً ما يشير إليه هنا. على أننا نستطيع أن نكمل ما ورد في الطبري بما ورد في ابن الأثير، أما رواية «الكامل» هنا فيحسن ألا يلتفت إليها.

في سنة ٤١ هجرية ثار في البصرة سهم بن غالب التميمي[١] والخطيم الباهلي، الخارجيان، في سبعين رجلاً «فأصبحوا عند الجسر فوجدوا عبادة بن قُرْص الليثي أحد بني بجير، وكانت له صحبة، يصلي عند الجسر، فأنكروه فقتلوه» (الطبري ٢/ ١٦). هنالك اضطرهم الوالي ابن عامر إلى التسليم، فسألوه الأمان فآمنهم (الطبري ٢/ ١٥ ـ ١٦، ابن الأثير ٣/ ٣٥٠ وما يليها). ولما تولى زياد بن أبيه أمر البصرة[٢]، خافه سهم بن غالب،

---

(١) [المترجم: في الطبري ٢/ ١٦، ٢/ ٤٦: سهم بن غالب الهُجَيْمي].

(٢) [المترجم: كان ذلك في آخر ربيع الثاني أو غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ].

فخرج إلى الأهواز ودعا إلى الثورة، وقتل مسلماً لم ينكر إيمانه، بينما خلى سبيل يهود صرحوا بيهوديتهم. وتجاسر على الذهاب إلى البصرة. ولكن أنصاره فيها تخلوا عنه، فاضطر إلى الاستتار، «وطلب الأمن فلم يؤمنه زياد وطلبه حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه» (الطبري ٢/ ٨٣) وكان ذلك في سنة ٤٦ هـ. أما الخطيم الباهلي فأظهر الفتنة أيضاً، فنفاه زياد إلى البحرين «ثم أذن له فقدم، فقال له: الزم مصرك (بيتك). وقال لمسلم بن عمرو (وهو والد قتيبة بن مسلم المشهور) اضمنه فأبى، وقال: إنْ بات عن بيته أعلمتك. ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته. فأمر (زياد) به فقتل، وألقي في باهلة» (الطبري ٢/ ٨٣، ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٥١، ص ٣٧٩). ووقع حادث شبيه بهذا تماماً، هو الثالث من نوعه، وذلك في سنة ٥٠ هـ. إذ خرج قريبُ الأَزْديُّ (الإيادي: في «الكامل» ص ٦٧٧ س ١١) وزَحَّاف الطائي ـ وكانا ابنيْ خالة ـ في سبعين رجلاً فمروا بشيخ [يقال له حكال] من بني ضبيعة فقتلوه وتفرقوا بعد ذلك، فقُتِل قريبٌ. وبعد هذا الحادث اشتدّ زياد (وعامله سَمُرةُ بن جُنْدب) على الخوارج وطالب أهل البصرة بأنْ يكفوه

أمر الخوارج (الطبري ٢: ٩١) فثاروا بالخوارج فقتلوهم. وقد قتل زياد من الخوارج وحبس آلافا كثيرة (الطبري ٢: ٤٥٩). ولكن أمثال هذه الأعداد الكبيرة لا تقبل أدنى تصديق. وذلك أنّه لا محل للكلام عن قسوة زياد على الخوارج، وإنما فعل ما يقضي به منصبه وما فرض عليه القرآن («الكامل» ص ٥٩٤). كان يأخذ القتلة بجرائمهم[١]. وهؤلاء الخوارج البصريون كانوا يسلكون مسالك اللصوص والسفاحين، وكانت الفوضى التي تسود البصرة، بعكس[٢] الكوفة، مجالاً ملائماً لهم، وما كان لهم أن يعجبوا إذا عاملتهم الشرطة معاملة سائر المجرمين الذين يعكرون الأمن. ولم يكن الشرفاء من الخوارج راضين عن هذا المسلك، حتى إنّ أبا بلال لعنهم وأبرأ ذمة والي البصرة منهم.

ولم يكن زياد، بل ابنه عبيد الله، أشدَّ من اشتد على الخوارج، لما أن ولي أمر البصرة في سنة ٥٥ هـ. بدأ

---

(١) [المترجم: هذا نص ما ورد في الكامل ص ٥٩٤ س ٩ ـ س ١٠: «فأما زياد فكان يقتل المعلن ويستصلح المسر، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة»].

(٢) الطبري جـ ٢ ص ٧٣ وما يليها، ص ٨٨.

بمهادنتهم وأطلق سراحهم من السجن[١] . فلما لم يفلح هذا معهم، فكر في اتخاذ طريقة أخرى. ذلك أنه ضم إلى جانبه جماعة منهم برئاسة رجل يدعى جدار؛ ثم ترك أفرادهم يقاتل بعضهم بعضاً فمن ظفر بأخيه فاز بالحرية، ومن بين أولئك الذين قتلوا إخوانهم وفازوا بالحرية كان طرّاف العبد قيسي. فعنّف من كان معه في معسكر واحد تعنيفاً شديداً بسبب مسلكهم هذا، فراحوا يكفّرون عن جريمتهم بكفّارة فعالة. فعرضوا الدية على أولياء القتلى أولاً، ثم عرضوا دماءهم من بعد. ولكن سدى. فقرروا ـ عملاً بالآية ١١١ من سورة «النحل» ـ أن يكفروا عما أتوا بالقيام بحركة عنيفة جديدة واستئناف القتال ضد عبيد الله. كانوا سبعين رجلاً كلهم من بني عبد القيس، اضطروا إلى التبكير بالهجوم لأن أمرهم اكتشف، فذبحهم حراس عبيد الله وكانوا من أهل بخارى، وذلك في عيد الفطر من سنة ٥٨[٢] هـ (أي ٢٧ يوليو سنة ٦٧٨).

وظل عبيد الله يتعقب الخوارج بشدة عظيمة، فحبس من بدا له أنه خطر ولمجرد الاشتباه في أمره، وهذا شيء

---

(١) «الكامل» ص ٥٩٤. وعكس هذا ورد في رواية أخرى غير صحيحة، راجع ألقرت ٧٩: ٦. «الكامل» ص ٦١٠ س ١

(٢) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٧.

لم يفعله أبوه («الكامل» ص ٥٩٤). وكان أبرز الخوارج في البصرة أبو بلال مرداس بن أُدَيَّة التميمي المذكور آنفاً. أنكر اشتراك النساء في الحروب[١]، كما أنكر «الاستعراض» وهو قتل كل مسلم لا يرى رأى الخوارج، بغير تمييز متى وجدوه في طريقهم. قام عبيد الله فحبس أبا بلال هذا مع غيره من الخوارج، ولكنه استطاع أن ينال الإذن من السجان في أن ينصرف في الليل ليزور أهله «فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن. وكان صديقٌ لمرداس يسامر ابن زياد. فذكر ابن زياد الخوارج ليلةً فعزم على قتلهم إذا أصبح. فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم وقال: «أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فلْيَعْهَد فإن مقتول». فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب

---

(١) كانت حماسة نساء الخوارج في القتال أمراً مشهوداً. ومن المشهورات بذلك منهن أم حكيم التي قاتلت في صفوف قطري بن الفجاءة. وطلبت الشهادة في الجهاد («الأغاني جـ ٦ ص ٦ وما يليها):

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله؟!

وقد حاول عبيد الله بن زياد عبثاً أن يبرّد من حماسة النساء لطلب الشهادة في القتال بأن يعرض جثثهن عارية («الكامل» ٥٨٢) ويظهر أن هذه الوسيلة قد أفلحت قبل ذلك بعدة قرون ـ فيما يروى فلوطرخس ـ لما أن استخدمت في ملطية منعاً لتفشي عادة الانتحار بين الفتيات.

السجن فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع. فلما كان الوقت الذي يرجع فيه إذا به (أي مرداس) قد طلع (أي أقبل إلى السجن). فقال له السجان: «هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟» قال: «نعم!» قال: «ثم غدوت (أي عدت إلى السجن)»؟ قال: «نعم، لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببي». ـ وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج. ثم دعا بمرداس فلما حضر، وثب السجان ـ وكان ظئراً لعبيد الله ـ فأخذ يقدمه ثم قال: «هب لي هذا!» وقص عليه قصته. فوهبه له وأطلقه بينما قتل الآخرين. هكذا يروي عمر بن شبة ـ حسبما نقله الطبري (جـ ٢ ص ١٨٦ وما يليها) ـ هذه القصة المشهورة، وفيها بحسب هذه الرواية ما يعد مفخرة لعبيد الله بن زياد ولذا جرى فيها قلم التعديل بما صاغها على هذا النحو.

أما أخو بلال مرداس، ونعني به عروة بن أديّة الذي كان أول من دعا إلى التحكيم في صِفّين قبل ذلك بعشرين سنة، فلم يكن مصيره ذلك المصير اللّين الرحيم. كان ثمت رهان حضره عبيد الله بن زياد وجلس ينتظر الخيل، فكسب عروة بن أدية أن هذه فرصة سانحة ليبرز أمام عبيد الله ويذكّره بأنه ارتكب خمسة آثام كبيرة.

ففهم الأمير (ابن زياد) من كلام عروة أن ذلك بدء فتنة، فقام وترك رهانه وركب. وأدرك عروة خطورة ما فاه به، فتوارى. ولكن اكتشف مكانه فأخذ بالكوفة» فقدم به على ابن زياد، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه. ثم دعا به فقال: «كيف ترى؟» قال: «أرى أنك أفسدت دنياي، وأفسدت آخرتك». فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها[١]». ولقى هذا المصير نفسه امرأة شديدة الحماسة تدعى «البجاء[٢]»، كانت تخطب خطباً نارية مثيرة ضد عبيد الله وطغيانه. فأنذرها وحذرها من شر زياد، فلم تستتر منه حتى لا تجر السوء على غيرها، فقبضوا عليها وقتلوها في سوق البصرة[٣].

أثر مقتل هذه المرأة في نفس أبي بلال مرداس تأثيراً بالغاً أبلغ من مقتل أخيه، وكان قد شهد مقتلها. لقد طفح الكيل، ولم يعد له قِبَلٌ بمشاهدة هذا الذي يحدث. فخرج

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٨٥ وما يليها عن وهب بن جرير الذي ألف كتاباً عن بعض الخوارج («الأغاني» جـ ١ ص ١١ س ٢٨).

(٢) كذا ابن الأثير ٣/ ٤٢٨ وما يليها. أما في «الكامل» فاسمها: «البلجاء».

(٣) أورد «الكامل» قصة شبيهة بهذه ص ٦٠٢ س ١٥ ـ ص ٦٠٤ س ٧.

في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٦٠ هـ، لأنه رأى أنه لا يحق له أن يعيش بعد في البصرة تحت هذا السلطان. لم يتعرض لأحد بسوء، ولم ينل من الخراج إلا ما يحق له أن يعيش منه هو وأهله. لم يعتدِ، بل دافع عن نفسه ضد المعتدين وبنجاح يثير الدهشة. ففي آسك، وهو موضع يقع بين رامهرمز وأرجان، قاتل بالأربعين رجلاً الذين معه جيشاً مؤلفاً من ألفي رجل حتى اضطرهم إلى الفرار بعد أن قتلوا فيهم قتلاً كثيراً، وقد ذكرت هذه الأرقام (الأربعون والألفان) في أبيات قالها شاعر معاصر[1]. وفي سنة ٦١ هـ انهزم أمام جيش كبير بقيادة عباد بن الأخضر التميمي، حمل عليهم أبو بلال وأصحابه وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم. «ورجع عباد بن الأخضر وذلك الجيش الذي كان معه إلى البصرة. وأقبل عبيدة بن هلال معه ثلاثة نفر هو رابعهم، فرصد عباد بن الأخضر، فأقبل (عباد بن الأخضر) يريد قصر الإمارة وهو مردف ابناً له غلاماً صغيراً. فقالوا:

---

(١) يذكر الطبري في ٢/ ١٨٧ أن هذا الجيش كان بقيادة ابن حصن التميمي، ثم يعود في ٢/ ٣٩٠ فيذكر أن القائد كان أسلم بن زرعة الكلابي ـ وذلك بحسب رواية أبي مخنف، و«الكامل» ص ٥٨٧، ص ٦٠٤ وكذلك الدينوري بذكر أن هذه الرواية الثانية، قارن ما يقوله ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨.

يا عبد الله! قف حتى نستفتيك! فوقف. فقالوا: «نحن إخوة أربعة، قتل أخونا، فما ترى؟» قال: «استعدوا الأمير!» قالوا: «قد استعديناه لم يُعِدنا» ـ قال: «فاقتلوه! قتله الله!» فوثبوا عليه فحكّموا، وألقى ابنه فقتلوه» (الطبري ٢/ ٣٩١) وكان الأربعة من الخوارج[١].

٨ ـ وكانت دعوة عبيدة بن هلال للقتال هي أنه («الكامل» ص ٦٧٩ س ١٢) «شيخ على دين أبي بلال» ـ وستتوالى أنباء عبيدة هذا فيما بعد. ذلك أن أبا بلال قد صار عند خوارج البصرة القديس الحقيقي، وإن لم يتمثلوه هم في رقة نفسه ودمائه طبعه. فأثار استشهاده أبلغ الحفيظة في نفوسهم، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً في البصرة طالما كان أبو عبيدة وطيد المكانة في ولايته. وإنما تغير الموقف حينما شاع الاضطراب بعد وفاة يزيد الأول ابن معاوية. ويصف ذلك أبو مخنف ـ كما نقله الطبري جـ ٢

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٨٧، ص ٣٩٠. ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨ وما يليها. «الكامل» ص ٥٨٥ وما يليها. ويقال إن ابن زياد قال («الكامل» ص ٦٠٤ س ٢) إنه كلما قتل منهم أحداً غدروا بمن أمرته بقتله. وقد أورد «الكامل» أسماء مشاهير خوارج البصرة، كما وردت أسماؤهم أيضاً في ابن الأثير (جـ ٣ ص ٤٢٨) ضمن أبيات.

ص ١٥٣ ـ ص ٥٢٠ ـ فيقول إن عبد الله بن زياد استطاع أن يوفر لأهل البصرة الأمن[١]. وهربا من اشتداد عبيد الله توجه الخوارج، بعد قتل أبي بلال، من البصرة إلى مكة وساعدوا عبد الله بن الزبير ضد أهل الشام. فلما مات يزيد الأول وارتحل أهل الشام ظهر الخلاف بين موقف الخوارج السياسي وبين موقف ابن الزبير[٢]، فارتحلوا عن مكة. فذهب أبو طالوت وأبو فديك وابن الأسود ـ وهم من آل بكر ـ إلى اليمامة فاستولوا عليها، وذهب نافع بن الأزرق[٣] وعبد الله بن الصفّار وعبد الله بن أباض وحنظلة بن بَيْهَس ـ وهم من بني تميم ـ، وعبد الله وعبيد الله والزبير[٤] أبناء الماحوز ـ ذهبوا إلى البصرة. وهيّأ هرب

---

(١) ألقي بالخوارج في السجن وراح يمن على أهل البصرة بصنيعه هذا ويطالبهم بشكره عليه (الطبري ٢/ ٤٣٣).

(٢) راجع «الكامل» ص ٦٠٤ س ١٨ ـ ص ٦٠٨ س ١٢.

(٣) ابن الأزرق لم يكن في الواقع تميمياً (حنظلياً عند الطبري ٢/ ٥١٧) بل بكرياً من بني حنيفة («الكامل» ص ٥٤١ س ١٦، ص ٦٠٤ س ١٢، وراجع نشرة ألقرت ٧٨: ١). وكذلك كان عبيدة ابن هلال بكرياً، ولكن من بني يشكر.

(٤) ورد خطأ في الطبري ٢/ ٥٧٣ بالصورة: «زهير». كان ابنا لعلي بن الماحوز، بينما عبد الله وعبيد الله كانا ابني بشير بن الماحوز. راجع عن أسرة الماحوز: ألقرت ص ٨٠، «الكامل» ص ٦٠٩، ورأس هذه الأسرة فيما يقول «الكامل» هو حسان بن بحدج، وقد ورد =

عبيد الله بن زياد وتنازع القبائل في البصرة ـ الفرصة لكي يتنفس الخوارج فكسروا أبواب السجون وخرجوا منها. وتولى نافع بن الأزرق قيادة ثلثمائة رجل، وخرج يريد الأهواز[١]. فلما اصطلح أهل البصرة على إمارة ببّة[٢]: [وهو لقب عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب القرشي] اجتمعوا ضد الخوارج الباقين في البصرة واضطروهم إلى الفرار واللحاق بنافع بن الأزرق، «إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذلك: منهم عبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض ورجال معهما على رأيهما» (الطبري ٢/ ٥١٨). وكان خلافهما مع ابن الأزرق

= ذكره أيضاً في الكتاب المجهول المؤلف بنشرة ألقرت ص ١٤٩ س ٤، ولكن هذا كان بكرياً (من بني حنيفة) ـ أخا لعبد الرحمن بن بحدج الذي حارب أولاً مع نجدة ثم توجه بعد ذلك إلى فارس فأتعب عمر بن بني معمر (نشرة ألقرت ص ١٣٧ ص ١٦، ص ١٤٨ وما يليها).

(١) حسبما ورد في نشرة ألقرت ص ٧٩ من ١٥ أن ذلك وقع في نهاية شوال سنة ٦٤ هـ (منتصف يونيو سنة ٦٨٤ م).

(٢) [الببة: كثرة اللحم وتراكبه، ولقب بهذا اللقب لكثرة لحمه في صغره، وله تقول أمه هند بنت أبي سفيان وهي تنقزه:

لأنكحن ببه جارية كالقبه
مكرمة محبه تجبُّ أهل الكعبة

تجبهم أي تغلبهم، أي أنها تغلب نساء قريش بحسنها. ـ راجع «الكامل» ص ٦١٦ تعليق أ].

يقوم على أساس أن هذا الأخير يرى أن الله حرم على المسلم الصحيح الإيمان المقام بين أظهر المشركين، بل عليه مفارقتهم نهائياً. على أن ابن صفار وابن إباض قد اختلفا هما أيضاً فيما بينهما. واجتمع لابن الأزرق معظم الخوارج واشتدت شوكته «وكثرت جموعه. وأقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر. فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عُبَيْس بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ـ في أهل البصرة» (الطبري ٢/ ٥٢٠).

وترى بعض المصادر الأخرى ـ وبها يأخذ برنُّوف (ص ٣٨) ـ أنّ عبيد الله نفسه هو الذي أطلق سراح الخوارج من السجن، والبصريين منهم بخاصة، وأنّ الخوارج قد اشتركوا في تنازع القبائل في البصرة مع بني تميم ضد الأَزْد. ولكن هذا يضفي نوراً كاذباً تماماً على موقف أهل البصرة من الخوارج. فأهل البصرة كانوا يبغضون الخوارج أشدّ البغض، ولم يشذّ بنو تميم عن سائر أهل البصرة في ذلك، رغم ما يقوله برنُّوف. وإنما الذي أعان بني تميم على الأزد هم الأساورة، ولو أن عبيد الله هو الذي سرّح الخوارج من السجن لما أرضى أهل البصرة،

هذا إنْ لم يكن الأصح هو ما يقوله أبو مخنف وهو أن

الخوارج هم الذين كسروا أبواب السجون وخرجوا منها[١].

والهدف الرئيسي الذي يستهدفه أبو مخنف هو أنْ يروي تفرّق الخوارج إلى فرق. فالأسماء التي يذكرها هي (باستثناء أبناء الماحوز) في الوقت نفسه أسماء مؤسسي فرق وأحزاب: فالأزارقة هم أصحاب نافع بن الأزرق، والصفرية أصحاب عبد الله بن صفار، والإباضية أصحاب عبد الله بن إباض، والبيهسية أصحاب أبي بيهس[٢] (الطبري ص ١٨٩٧ س ٢٠). بيد أنه لم يفسر لنا كيف نشأ الخلاف بين الخوارج، كذلك لم تدلنا المصادر الأخرى على ذلك (مثل «الكامل» ص ٦٠٤ س ٧ ـ س ١٢)، بل تظهر الفرق الأربع في لحظة معلومة حاضرة كلها كاملة التكوين. والمتأخرون من مؤرخي علم الكلام سينظرون إليها على أنها فرق كلامية. وفي رواية أبي مخنف وكذلك

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٤٣٣ س ٢٠، ص ٤٤١ س ١، ص ٤٤٢ س ٥، ص ٥١٧ س ٢٠. ويبدو في الواقع أن عبيد الله بن زياد إنما أطلق سراح المسجونين عند بدء ولايته («الكامل» ص ٥٩٤) لا عند منتهاها.

(٢) [المترجم: في نص المؤلف: «ابن» بيهس ـ والصواب كما أثبتنا ـ راجع «الكامل» ص ٦٠٤ س ١١، ص ٦١٦ س ٢، ص ٦١٨ س ١٠ الخ].

عند المدائني (في «الكامل» وفي نشرة ألڤرت للكتاب المجهول المؤلف) تظهر معارضة مشتركة للثلاثة الآخرين ضد نافع بن الأزرق، حتى إن غلو ابن الأزرق وربما أيضاً الحسد منه كانا نقطة ابتداء الخلافات الناشبة بينهم. ويلوح أنه كان ذا تأثير عظيم جداً في عصره، وإنْ لم يبلغ الذروة قبل سنة ٦٤ هـ ثم انقضى في سنة ٦٥ هـ. والذي حرضه على الخروج كان ـ فيما يروي «الكامل» ص ٦٠٤ وما يليها ـ أبا الوازع الراسبي، فقد نعا عليه أن لسانه صارم وقلبه كليل، وود لو أن صرامة لسان نافع كانت لقلبه وكلال قلبه كان للسانه، فسمع له نافع واستبدل بلسانه صارماً. وحتى يدله أبو الوازع على ما يجب عليه، مضى أبو الوازع «فاشترى سيفاً، وأتى صيقلاً ـ كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ـ فشاوره في السيف فحمده فقال: اشحذه! فشحذه، حتى إذا رضيه حكّم وخبط به الصيقل. وحمل على الناس، فتهاربوا منه» («الكامل» ص ٦٠٥ س ٩ ـ س ١١) إلى أن وصل إلى حي بني يشكر فجندله رجلٌ، ولكن كرهت بنو يشكر أن يدفن في مقبرتهم «خوفا أن تجعل الخوارج قبره مهاجراً» («الكامل» ص ٦٠٥ س ١٢ ـ س ١٣). ـ

هذا المثل جعل من نافع[1] بن الأزرق «خارجياً» أو «شارياً» بدلاً من «قاعد»، فمنذ ذلك الحين أصبح المبدأ الأسمى عنده هو أنه لا يجوز المقام بين أظهر المشركين، بل يجب الذهاب إلى «دار الهجرة» وقتالهم وبيع أنفسهم لله: وبسبب هذا كان الخلاف بينه وبين من بقي في البصرة: هم أيضاً يريدون الخروج، ولكن في الوقت المناسب، لا في وقت غير مناسب. فالخلاف كان يدور إذن حول مسألة الفرصة المناسبة. ولم يكن أمراً جديداً عليهم، فمن جماعة القاعدين كانت تنفصل دائماً فئة قليلة من الفعّالين، فمن خلل الرماد المنطوي على الحطب الساخن كان يبرز وميض نار من حين إلى حين. ولكنه هذه المرة برز بكل وضوح: وكان ثمت في هذا الصدد خلافات مشابهة كان موقف نافع بن الأزرق فيها موقف المتشدد المغالي. كان يحبذ «الاستعراض»، تلك العادة القديمة عند خوارج البصرة، وطبق مبدأ الانفصال عن «الجماعة» على الأسرة والوراثة، وأخضع «المهاجرة» ـ أي المنضمين حديثاً إلى رأي الخوارج ـ لامتحان قاسٍ ولم يعترف بـ «التقية» أعني بالانضمام على رأي الخوارج خوفاً منهم دون إيمان

---

(١) [المترجم: ورد في النص هنا خطأً: «ابن» نافع].

باطن صادق[١]: أما أصحاب الفرق الخارجية الأخرى فكانوا في هذه المسائل أكثر ليناً ومرونةً، على درجات متفاوتة فيما بينهم لا يمكن تحديدها بالدقة. والفارق الرئيسي هو أنهم كانوا يجوزون التستر في بعض الأحيان وعدم خوض القتال باستمرار ضد «الجماعة». ولكن حين ينشب القتال ويشتركون فيه كانوا يظهرون من الجرأة وعدم الاحتياط ما لا يقل عما كانت تفعله الأزارقة.

وقد انتشرت الفرق الخارجية المضادة لفرقة الأزارقة من البصرة إلى سائر مواطن الخوارج في دار الإسلام. وكانت هناك فرقة من الخوارج غير هذه كلها، لا تُذْكَر كثيراً نظراً لقصر عمرها ولانحصارها في بيئة صغيرة، ونعني بها فرقة «النجدات» التي كانت تقيم في اليمامة من أرض البصرة. كان رجالها من بني بكر، ومن الفلاحين العتاة من بني حنيفة منهم بخاصة. وسموا بذلك نسبة إلى نجدة بن عامر الحنفي الخارجي. وهو وحده، لا أحد غيره، الذي سمح بأنْ يساعد الخوارج ابن الزبير في مكة

---

(١) في رواية الكتاب المجهول المؤلف الذي نشره ألڤرت يرد حديث عن هذه المبادئ التي قال بها ابن الأزرق وموقف نجدة منها. ويمكن استخلاص معنى «التقية» (لا «التقية» كما في النص) مما ورد في ذلك الكتاب ص ١٤٢ س ٤.

(الطبري جـ ٢ ص ٤٠١ وما يليها، ص ٤٢٥ س ١٤). ولما رفع الحصار عن مكة لم يلحق بأولئك الذين قفلوا راجعين إلى اليمامة، بل لحق بابن الأزرق ـ وهما ينتسبان إلى قبيلة واحدة ـ وذهبا معاً إلى البصرة في سنة ٦٤ هـ. ثم ما لبث أن انفصل عنه لخلاف بينهما ولأنه ـ فيما يلوح ـ تواری في ظله. فعاد إلى اليمامة. ولدينا روايتان عن نشاطه هناك تتفقان فيما بينهما[١]، وترجعان في جوهريهما إلى ما رواه المدائني: وإحدى الروايتين مفصَّلة وردت في الكتاب المجهول المؤلف الذي نشره ألفرت ص ١٢٥ وما يليها، والأخرى موجزة نقلها ابن الأثير في الجزء الرابع ص ١٦٥ وما يليها.

اختار خوارج اليمامة أبا طالوت قائداً لهم على أن يظل كذلك حتى يجدوا خيراً منه. فمضى إلى الحضارم في سنة ٦٥ هـ («الكتاب المجهول المؤلف» ص ١٢٧) واستولى عليها، وكانت أرضاً لبني حنيفة فأخذها منهم معاوية فجعل فيها من الرقيق ما عدتهم وعدة أبنائهم ونسائهم أربعة آلاف. وفي السنة التالية ـ أي سنة ٦٦ هـ ـ خلع الخوارج أبا طالوت وبايعوا

---

(١) راجع الكتاب المجهول المؤلف ص ١٣٩ س ٥ وقارنه بما في ابن الأثير ١٦٨ س ١٨ وما يليه.

نجدة؛ وبايعه أبو طالوت فكان نجدة خليفة[١]. ثم إن نجدة قال للخوارج ربُّوا العبيد ـ الذين غنموا هناك ـ واجعلوهم يعملون في الأرض كما كانوا يعملون من قبل بالاشتراك فيما بينهم وذلك لحساب الخوارج فإن ذلك أنفع. واعترض عند جبلةَ قافلةً من البصرة كانت في طريقها إلى ابن الزبير في مكة («المجهول المؤلف» نشرة ألقرت ص ١٢٧). ثم «سار في جمع إلى بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فلقيهم بذي المجاز، فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعاً» واستولى على ما كان معهم من قمح وتمر كانوا نهبوهما من سوق هناك: وثمت أشعار كثيرة تشهد على ما فعلوه وعلى الأثر الذي تركوه («المجهول المؤلف» ص ١٢٨ ـ ص ١٣١). وانتقل من هذه الغزوات ـ مثله في هذا مثل النبي محمد في المدينة ـ إلى إخضاع أراض عربية، في مقدمتها الشريط الساحلي في الشمال الشرقي والجنوب الغربي، فكان يأخذ منها الصدّقة. وكان له في ضعف حكومة ابن الزبير خير معوان، وأظهر له عبد الملك بن مروان المودّة، ووعده بولاية اليمامة إذا تعهد بالاقتصار عليها والتوقف عندها

---

(١) «ونجدة يومئذ ابن ثلاثين سنة» (ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٦ س ٦)، ولكن ابن المطرح كان قد بلغ النضوج (ص ١٦٦ س ٢٠). قارن ياقوت جـ ٢ ص ٤٥٠ وما يليها.

(«المجهول المؤلف» ص ١٤٣). فلم ينقد نجدة لهذا الإغراء، بل بسط نفوذه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثم خلّف والياً على اليمامة، وتوجَّه بنفسه سنة ٦٧ («المجهول المؤلف» ص ١٣١) إلى البحرين[١] وضم الأزد إلى صفه، وهاجم بني عبد القيس فالتقوا بالقطيف، «فانهزمت عبد القيس وقتل منهم جمع كثير وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف... وأقام نجدة بالقطيف» (ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٦). وحاول حمزة بن عبد الله بن الزبير إخراجه منها ـ وكان حمزة والياً على البصرة من قِبَل أبيه عبد الله بن الزبير ـ فأرسل عبد الله بن عُمَيْر الليثي في أربعة عشر ألفاً من أهل البصرة إلى القطيف سنة ٦٧[٢] هـ. «فأتى نجدة إلى ابن عمير وهو غافل، فقاتلهم طويلاً، وافترقوا، وأصبح ابن عمير فهاله ما رأى في عسكره من القتلى والجرحى، وحمل عليهم نجدة فلم يلبثوا أنْ انهزموا،

---

(١) وكان قد أرسل من قبل حملة هناك («المجهول المؤلف» ١٢٨).

(٢) هذه السنة هي الصحيحة كما في الطبري ٢/ ٧٥٢ س ٣، و«المجهول المؤلف» ص ١٣٣ س ٨. والرواية التي تقول إن ذلك وقع سنة ٦٩ ومصعب وال على البصرة («المجهول» ص ١٣٣ س ٥ وابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٦ س ٢٣) لا تتفق مع التسلسل التاريخي، ومن السهل تفسير هذا الخلط، كما أن الرقمين سبع وتسع يصعب تمييزهما في الكتابة العربية.

فلم يبق عليهم نجدة وغنم ما في عسكرهم» (ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٧ س ٢ ـ س ٤)، فهربوا، وقد عيَّرهم الفرزدق بذلك في أشعار مليئة بالتقريع («المجهول المؤلف» ص ١٣٤). «وبعث نجدة أيضاً ـ بعد هزيمة ابن عمير ـ جيشاً إلى عمان، واستعمل عليهم عطية بن الأسود الحنفي... واستولى عطية على البلاد فأقام بها أشهراً، ثم خرج منها واستخلف رجلاً يُكنى أبا القاسم، فقتله سعيد وسليمان أبناء عباد (بن عبد الله الذي كان مستولياً على عمان) وأهل عمان، ثم خالف عطية نجدة» (ابن الأثير ٤/ ١٦٧)، «فعاد إلى عمان. فلم يقدر عليها. فركب في البحر وأتى كرمان... وأقام بكرمان. فأرسل إليه المهلب جيشاً. فهرب إلى سجستان، ثم إلى السند، فلقيه خيل المهلب بقندابيل فقتله[1]» (الموضع نفسه). وفي تلك الأثناء كان نجدة بن عامر قد بسط سلطانه على شمال البحرين (كاظمة) وأرغم بني تميم على أن يؤدوا له الصدقة. ثم سار من اليمامة إلى الجانب الآخر الغربي من بلاد العرب، وأخضع بنفسه جزءاً من اليمن بما فيه صنعاء العاصمة، وبعث أبا فديك إلى

---

(١) ليس من الواضح متى وقع ذلك. قارن أيضاً ابن بحدج المذكور من قبل ص ٦٩ التعليق رقم ٤.

حضرموت فجبى صدقات أهلها، وذلك سنة ٦٨ هـ. وفي نهاية هذا العام حجّ نجدة وهو في ثمانمائة وستين رجلاً، وقد وافت عرفاتٍ ألويةٌ: لواء ابن الحنفية، ولواء ابن الزبير، ولواء نجدة بن عامر، ولواء بني أمية ـ ولم ينشب بينها قتال بل اشتركت كلها في الوقوف بعرفات في سلام[1]. وقد تخلى نجدة عن فكرة مهاجمة المدينة لما أن «أخبر بلبس عبد الله بن عمر بن الخطاب السلاح» تأهباً لقتاله مع أهل المدينة، ذلك أن نجدة وسائر الخوارج كانوا يوقّرون أباه ـ عمر بن الخطاب ـ توقيراً شديداً. ويقال إن نجدة كتب إلى ابن عمر يسأله عن أشياء في الفقه، ولكنها كانت أسئلة عويصة فترك الإجابة عنها إلى ابن عباس، فسألوا ابن عباس فدهش كيف أن رجلاً لا يتورع عن سفك دماء المسلمين أنهاراً يهتم ويدقق في هذه الأمور الفرعية الفقهية! ثم نجده بعد ذلك في الطائف[2]، حيث جاءه عاصم بن عروة بن مسعود

---

(١) الطبري عن سنة ٦٨ جـ ٢ ص ٧٨٢ س ٣، «الكتاب المجهول المؤلف» ص ١٣٧ س ٦، ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٨ س ٢. هذه هي الرواية المعتبرة، أما الرواية التي ترجع الحادث إلى سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ فخطأ.

(٢) [المترجم: في ابن الأثير ٤/ ١٦٨ س ١٧: «ولم يدخل نجدة الطائف... واستعمل الحاروق ـ وهو حراق ـ على الطائف وتبالة والسراة»].

الثقفي ـ ممثل الحكومة الشرعية ـ فبايعه عن قومه، واستمر يسير جنوباً حتى تبالة. واستعمل عمالاً له في هذه المواضع ووضع قواعد لإدارتها[١]. ورجع نجدة إلى البحرين. وبينما أحجم عن مهاجمة البلدين الحرام: مكة والمدينة، لم يتورع عن قطع الميرة عن أهل الحرمين الواردة إليهم من البحرين ومن اليمامة، إلى أن كتب إليه ابن عباس «أن ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون، فكتب إليه رسول الله صلعم: إن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة، فجعلها لهم. ـ وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون. فجعلها نجدة لهم» (ابن الأثير ص ١٦٨). وكان نجدة بسبيل بسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها، وكان ابن الزبير ضعيف الحول. ولكن اختلف عليه أصحابه فطمع فيهم الناس. ذلك أن الخوارج لم يكونوا يحتملون السلطة عليهم مدة طويلة. حقاً إنهم عارضوه لأسباب دينية، كما يزعمون. فقد نقموا منه أنه أعطى بعض الجنود مالاً أكثر مما أعطى آخرين، وهذا أيضاً كان

---

(١) لا بدّ أنّ ذلك كان سنة ٦٩ هـ. ومنذ هذه السنة يقف تحديد السنوات حتى مقتل نجدة في سنة ٧٢ هـ. ومن أبرز عماله في اليمن الحاروق، ويسمى أيضا حراق في أشعار نقلها «الكتاب المجهول المؤلف» ص ١٤٠. راجع أيضاً ابن الأثير ص ١٦٨ س ١٩.

السبب فيما وقع من خلاف بينه وبين عطية بن الأسود المذكور آنفاً، فضلاً عن أن عطية اتهم نجدة ـ حين كتب عبد الملك بن مروان إلى نجدة يدعوه إلى طاعته مقابل توليه اليمامة ويهدر له ما أصاب من الأموال والدماء ـ نقول إن عطية اتهم نجدة قائلاً إنه ما كاتبه عبد الملك بن مروان حتى علم منه دهاناً في الدين. وفي حمى بنتاً لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ـ بعد أن سباها ـ من المصير الذي ينتظر السبايا من النساء، وكان ذلك في تعارض مع الشريعة ولكنه فعله لأسباب إنسانية، ويقال أيضاً بسبب خوفه من تهديد ابن الزبير له [إذ كتب إليه: «والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطأن بلادك وطأةً لا يبقى معها بكري» ابن الأثير ٤/ ١٦٨] ـ (راجع «الكتاب المجهول المؤلف» ص ١٣٨ س ٦، وابن الأثير ص ١٦٨ س ١٣). ومن الأسباب التي نقموها عليه أيضاً أنه لم يعاقب رجلاً كان شديد النكاية على العدو ولكنه كان يشرب الخمر في عسكره. وكلما امتد به الزمان، ازدادت الاتهامات ضده وعلا صوت شكايتهم منه. ثم عاهدهم على أن يتوب وأن يصلح من أمر نفسه، ولكن السخط وجد دواعي جديدة أبداً. فخلعوه وولوا أمرهم رجلا آخر. ووقع

اختبارهم أولاً على أحد الموالي، وهو ثابت التمار، لكنهم سرعان ما تبينوا أنه لا بد لمن يكون أميرهم أن يكون عربياً خالصاً، فكلفوا ثابتاً بأن يبحث لهم عمن يصلح لتولي أمرهم[١]. فاختار لهم أبا فديك، فنال أبو فديك البيعة. فاستخفى نجدة بن عامر في قرية من قرى حجر، فدلت عليه جارية، فطلبه أصحاب أبي فديك، ففر وأتى أخواله من بني تميم فاستخفى عندهم. ثم أراد المسير إلى عبد الملك بن مروان (في الكوفة)، فعلم بذلك أصحاب أبي فديك فقصدوه وغشيه أصحاب أبي فديك فقتلوه، بعد أن رفض الهرب على فرس قدمه له أحد الفديكية. وقد وقع ذلك بحسب الطبري (جـ ٢ ص ٨٢٩) في سنة ٧٢ هـ. وعند نهاية هذه السنة نفسها هزم أبو فديك أهل البصرة ـ وكانوا بقيادة أمية بن عبد الله أخي خالد بن عبد الله والي البصرة من قِبَل الأمويين ـ وكانت هزيمة نكراء (الطبري جـ ٢ ص ٨٢٩ وص ٨٦١ س ١٠). ولكنه في سنة ٧٣ هـ انهزم أمام جيش مؤلف من أهل البصرة وأهل الكوفة معاً وقُتِل، وحصر جيشه في المُشَقَّر فاضطروا إلى التسليم وقتل منهم نحو من ستة آلاف

(١) مما هو جدير بالملاحظة البون الشاسع بين طريقتهم في الانتخاب وبين الانتخاب الشعبي بالمعنى المفهوم عند اليونان والرومان أو بالمعنى الحديث.

(الطبري جـ ٢ ص ٨٥٢ وما يليها). وبهذا كان سقوط دولة النجدات في اليمامة والبحرين[١].

٩ ـ ونعود إلى سنة ٦٥ هـ وإلى الأزارقة في الأهواز. وإذا كان اسمهم: «الأزارقة» يرجع إلى حنفي (من بني حنيفة) فقد كان العرب منهم أغلبهم من بني تميم. وقد وصلنا من قبل برواية أبي مخنف إلى النقطة التي عندها سار نافع بن الأزرق إلى البصرة فبعث إليه بَبَّةُ ـ وهو عبد الله بن الحارث ـ مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس «في أهل البصرة. فخرج إليه (مسلم) فأخذ يحوزه (أي يبعد نافعا بن الأزرق) عن البصرة ويرفعه عن أرضها حتى بلغ مكاناً من أرض الأهواز يقال له دولاب» على نهر الدجيل وهو النهر الفاصل بين الحدود والمشهور بالوقائع التي جرت فيه. فوقع قتال عنيف لم يرد قتال قط أشد منه على الجانب الشرقي من النهر. فقُتِل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة، كما قُتِل نافع بن الأزرق رأس الخوارج: فهل كان تأثيره الكبير بالرغم من ـ أو بالأحرى بسبب ـ نهايته هذه؟ كذلك قتل من خلفهما وهما: الحجاج بن باب الحميري أمير أهل البصرة بعد

---

(١) راجع كذلك ابن الأثير جـ ٥ ص ٨٨ وما يليها.

مسلم بن عبيس، وعبد الله بن الماحوز أمير الأزارقة. «ثم إن أهل البصرة أمَّروا عليهم ربيعة الأجذم التميمي، وأمّرت الخوارج عليهم عبيد الله بن الماحوز. ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال. فإنهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سريةٌ لهم جامَّة لم تكن شهدت القتال، فحملت على الناس من قِبَل عبد القيس، فانهزم الناس، وقاتل أمير البصرة، ربيعة الأجذم، فقُتل» (الطبري جـ ٢ ص ٥٨١ ـ ٥٨٢) وهكذا انتصر الخوارج، وهربت جموع البصريين سابحين في النهر وغرق منهم أثناء ذلك كثيرون. ولكن حارثة بن بدر ـ وهو الذي حمل راية أهل البصرة بعد مقتل ربيعة الأجذم ـ نقول إن حارثة بن بدر قاتل من وراء الناس وغطى انسحابهم، واستطاع بفرقة من جنوده الصابرين أن يعبر إلى الجانب الآخر من النهر. وفي مقابل رواية أبي مخنف هذه نجد ثلاث روايات مناظرة لها في «المجهول المؤلف» (نشرة ألڤرت ص ٨٥ وما يليها) وفي «الأغاني» (جـ ٦ ص ٣ وما يليها)، وفي «الكامل» (ص ٦١٦ وما يليها). والمصدر الرئيسي الذي ننقل عنه هذه الروايات هو المدائني، ونجده في أصفى صورة في

«الكتاب المجهول المؤلف». ولو أن المدائني يختلف بعض الاختلاف عن أبي مخنف في أسماء القواد وترتيبهم، فإنّهما يتفقان معاً في الأمور الجوهرية ويكمله في إيراد بعض البيانات الدقيقة. وعنده (أي المدائني) أن القتال استمر عشرين يوماً بعد مقتل نافع بن الأزرق. وكان عدد أهل البصرة عشرة آلاف رجل، ولكن تخلف منهم كثيرون. أما الأزارقة فكان عددهم ستمائة رجل، وجاءهم مدد من اليمامة يتراوح بين ٤٠ أو ٤٠٠ رجل. وتمت المعركة في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ (ديسمبر ويناير سنة ٦٨٤ و٦٨٥ م) أي قبل معركة سِلَّبْرىٰ بستة عشر شهراً. وقد أُوْلجت في روايتيْ «الكامل» و«الأغاني» إضافات على رواية المدائني الأصلية، وهذه الإضافات يفترض برنُّوف أنها ترجع إلى ابن خداش.

وبعد هذه المعركة عزل بَبّة، وحل محله عمر بن عبيد الله بن معمر ـ وهو قرشي مثله وكان رجلا كفءاً. بيد أن أبا مخنف يجهل عمر بن عبيد الله هذا ويجعل القباع [وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي] هو الذي خلف بَبَّة مباشرة (الطبري جـ ٢ ص ٥٨٢ س ١٩)، وبهذا يتخطى فترة تبلغ نصف عام تقريباً. ومن هنا أغفل

معركة نشبت بين الأزارقة وبين أهل البصرة في ولاية عمر بن عبيد الله بن معمر عليها. على أن أبا مخنف ليس حجة في أمور البصرة كما هو في أمور الكوفة. يقول المدائني («الكتاب المجهول المؤلف» ص ٩٧ وما يليها، و«الكامل» ص ٦٢٣ وما يليها) إن عمر بن عبيد الله بن معمر لمّا أن تولى أمر البصرة سرعان ما أرسل جيشاً جديداً لمحاربة الخوارج، لا بقيادة حارثة بن بدر الذي تحصَّن عند نهر تِيرىٰ مع قومه من بني تميم ومنع الخوارج من عبور نهر دجيل، بل بقيادة أخيه عثمان الذي حارب الخوارج حتى قتل وانهزم جيشه، فأخذ حارثة بن بدر الراية وقاتل لتغطية انسحاب جيش عثمان، وعبر نهر دجيل وتحصّن عنده. أما أنّ رواية المدائني صحيحة ـ فهذا أمر تشهد عليه شهادةً حاسمة أبيات لشاعر تميمي («الكتاب المجهول المؤلف» ص ٩٩)، كذلك من المفهوم أن يُرْسل من البصرة جيش جديد ضد الأزارقة لحمايتها منهم. لكن لما كانت المعركتان قد وقعتا في نفس السنة (سنة ٦٥ هـ) وكان ميدانهما الشاطئ الشرقي من نهر دجيل[١]، ولعب

(١) يُطلق اسم «دولاب» على المعركة الأولى وحدها. أما موضع المعركة الأخرى فيذكر «الكامل» (ص ٦٧١ س ٩) أنه «دارس».

حارثة بن بدر في كِلتيهما نفس الدور، فلم يكن عجباً إذن أن يُظنّا معركة واحدة. ووهب بن جرير («الكتاب المجهول المؤلف» ص ٨٤، الطبري جـ ٢ ص ٥٨٠ وما يليها؛ وقارن الطبري ٢، ٤٦٥ وما يليها) ـ شأنه شأن أبي مخنف ـ لم يعرف غير معركة واحدة تمت عند نهر عند نهر دجيل ضد الأزارقة، ولكنه يذكر ـ بخلاف أبي مخنف ـ تلك التي تمت في ولاية عمر بن عبيد الله بن معمر، لا تلك التي تمت في ولاية ببّة، كما يذكر أن قائد جيش البصرة كان إما عثمان بن عبيد الله بن معمر أو مسلم بن عبيس أو الحارثة بن بدر ـ كما تشاء!

وكانت نتيجة هذه الهزيمة الجديدة أن حدث تغيير في الولاية على البصرة، وذلك في رمضان سنة ٦٥ هـ بحسب الطبري (جـ ٢ ص ٦٠١) أو في (أوائل) سنة ٦٦ هـ بحسب رواية «الكتاب المجهول المؤلف». فقد ولي أمر البصرة القُباع، وهو قرشي لا نعلم عنه أكثر من ذلك. لم يكن حارثة بن بدر موجوداً يقاتل معه، إذ كان قد تحصن من جديد هو وبقية الجيش المنهزم عند نهر تِيرىٰ، كذلك تخلى عنه جنوده وعادوا إلى البصرة دون أدنى أذى، وهكذا وقع هذا التميمي[١] الشجاع النبيل ضحية للأزارقة. فقد غرق

---

(١) راجع عنه الأغاني جـ ٢١ ص ٢٦ وما يليها.

في الدجيل وهو يفر أمامهم، إذ جنحت السفينة التي أراد النجاة عليها لما أن وثب فيها أحد الجنود بكامل سلاحه من الشاطئ الوعر. ففتح موته الطريق أمام العدو إلى البصرة.

وأبو مخنف لا يعرف عن هذا شيئاً، ويذكر أن حارثة بن بدر كان لا يزال حيّاً بعد ذلك[١]. كما يذكر أنه بعد الفزع الذي أحدثه يوم دولاب عيّن المهلّب قائداً ما لبث أن انتصر في سِلَّبْرىٰ، ولكن الفترة الواقعة بين تعيينه وانتصاره يمر بها أبو مخنف مروراً سريعاً جداً. فإن اتخذنا رواية المدائني، كما نقلها «الكتاب المجهول المؤلف» و«الكامل» أساساً، وألّفنا بينها وبين ما أورده الطبري (٢/ ٥٩٠ وما يليها) لأمكن تصوير الأحداث، التي أفضت إلى تعيين المهلّب وإلى معركة سلّبرىٰ، على النحو التالي:

نقل عبيد الله بن الماحوز، أمير الأزارقة، معسكره إلى نهر تِيرىٰ عند الموضع الذي كان يحرسه حارثة بن بدر. وبعد مقتل عبيد الله بثلاثة أشهر أقبل فرسانه ناحية الفرات، أعنى على الشاطئ المقابل لمدينة البصرة من نهر دجلة،

---

(١) الطبري ٢/ ٥٨٥. والبيت الوارد في ص ٥٨٠ س ١٧ وص ٥٨٥ س ٦، وفي «المجهول المؤلف» ص ١٠٠ س ١٢ تختلف مواضع إيراده.

وعقدوا جسراً على الفرع الأكبر من النهر وتقدموا حتى بلغوا جزيرة. ولا يفصلهم عن البصرة إلا الفرع الأصغر. لكنهم طردوا بعد ذلك بقليل، فثبتوا على الشاطئ الآخر بعد أن قطع الجسر مرة ثانية[1] . هنالك ألحّ أهل البصرة في أن يتولى المهلّب بن أبي صفرة قيادة جيشهم، فاشترط شروطاً أجيب إليها كلها. فنهض لقتال الأزارقة وطردهم من ناحية نهر دجلة، ولكن لم يتعقبهم بل أقام أربعين يوماً يجبى ما حواليه من كور في هذا الجانب من نهر دجلة إذ كان قد اشترط أن يحتفظ لنفسه وقومه بخراج البلاد التي يطهّر العدو منها، وذلك لعدة سنين. فلما توافر لديه المال جاءه الرجال. فمضى ناحية المشرق وطارد الأزارقة ببطء، وفي أثناء ذلك ناله هزائم أليمة. فقد وقع أخوه، المعارك بن أبي صفره، بين أيدي الأزارقة فقتلوه وصلبوه. وجرت وقعة دامية بسولاف ـ على هذا الجانب من نهر دجيل ـ كان القتال فيها سجالاً[2] .

---

(١) «الفرات» ليس نهر الفرات (برنُّوف ص ٧٢) بل البلاد الواقعة على الشاطئ الأيسر من نهر دجلة في مواجهة البصرة، وتتبع إقليم مزون [= عمان]. وكان في وسط النهر جزيرة عليها يمر جسر السفن. والفرع الأكبر يسمى الجسر الأكبر والأصغر الجسر الأصغر، وكذلك حينما ينقطع الجسران في بعض الأحيان. ـ قارن الطبري جـ ٢ ص ٥٩٠ وما يليها، «الكامل» ص ٥٢٦ وما يليها.

(٢) كان قائد تميم حينئذ حريش بن هلال، راجع الفهرست الخاص بكتاب «الكامل» وفهرست «الكتاب المجهول المؤلف». ونعثر عليه قبل ذلك في خراسان (المدائني في رواية الطبري جـ ٢ ص ٥٩٥ وما يليها).

بيد أنّ الأعداء (الأزارقة) استصوبوا الانسحاب عبر النهر.

تتبعهم المهلب، فالتقى الفريقان في سِلَّىٰ أو سِلَّبْرىٰ ـ شرقي نهر دجيل ـ في شوال سنة ٦٦ هـ (مايو سنة ٦٨٦) فانتصر المهلب انتصاراً حاسماً. وهنا يستأنف أبو مخنف روايته ولكن بصورة مخالفة لروايات غيره، بالرغم من اتفاقهم عرضاً في جزئية غريبة. على أنه يتبين أن الميزان ظل زمناً طويلاً يترجح بين الناحيتين على نحو خطير. فقد فرّ بعض جنود الحكومة (وهم جنود أهل البصرة) ولم يتوقفوا إلا في البصرة. وأنقذ المهلب وقومه من أَزْد عُمَان الموقف، ونافسوا منافسيهم بني تميم الذين كانوا حتى ذلك الحين خير من أبلوا في قتال الأزارقة. وكانت الوقعة على هؤلاء الأخيرين شديدة، والذين كانوا يقاتلون في خمسة مواضع أو ستة لم يجدوا في هذه المعركة إلا موضعاً واحداً [إذ استقبلهم أصحاب المهلّب بالحجارة يستعرضون بها أوجه الأزارقة فيرمونهم حتى يثخنوهم، ثم يطعنونهم بعد ذلك بالرماح أو يضربوهم بالسيوف]، وكان عبيد الله بن الماحوز نفسه من بين القتلى. وكان قد انضم إلى الأزارقة عدد كبير من غير العرب، ممن ولدوا في البلاد التي يقيمون بها، ولعلهم إنما كانوا يقصدون من وراء انضمامهم إليهم

أنْ يتخلصوا من مضطهديهم والمتولين عليهم، ثم صاروا بعد ذلك أشدّ المتعصبين للخوارج كلما ينقص منهم يزيد فيهم («الكامل» ص ٦٨٠ س ١١). ورغم ذلك لم يكن الأزارقة جماعة من الدهماء والرعاع، كما يدّعي خصومهم، بل بالعكس كانوا أتم سلاحاً وعتاداً من أولئك الخصوم. فقد كانت الغالبية فيهم من الفرسان. حقاً لقد كانت الفروسية أيضاً عند خصومهم الأمر الرئيسي، حتى إذا كانوا فقدوا خيولهم، كما حدث مرة بسبب نقص العلف (الطبري جـ ٢ ص ٨٢٨) عادوا إلى دورهم. ويروي («الكامل» ص ٦٧٥ س ٧ ـ س ٨) أن المهلّب بن أبي صفرة كان أول من أمر بضرب الرُّكُب من الحديد وهو أول من أمر بطبعها، وذلك أن رُكُبَ الناس كانت قديماً من الخشب «فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد».

وأدع ما بقي من الأحداث لرواية أبي مخنف كما نقلها الطبري، لأنها أبسط، ولا أضيف إليها إلا تكملة سهلة الاتساق مع الباقي، وأميزها من غيرها. بعد هذه المعركة الطاحنة التي أصابت مقاتل الأزارقة ارتحلوا عن الأهواز وساروا ناحية المشرق إلى الجبال. وبايعوا الزبير بن علي

[وهو من بني سليط بن يربوع من رهط ابن الماحوز] . فاشتبكوا مع المهلب في عدة مناوشات، خصوصا على حدود فارس والأهواز[١] . ولما أصبح مصعب بن الزبير والياً على البصرة في نهاية سنة ٦٦ هـ أو بداية سنة ٦٧ هـ وبدأ القتال ضد المختار بن أبي عبيد، رفع من مكان المهلب. وبعد هزيمة المختار (في ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ = ٣ أبريل سنة ٦٨٧ م) لم يبعث به إلى فارس[٢] كما كان من قبل، بل بعث به إلى الموصل لحماية حدود العراق من أهل الشام. وفي نفس الوقت خلع ابنه ـ المغيرة بن المهلب ـ وكان ينوب عن أبيه حتى ذلك الحين في فارس («المجهول المؤلف» ص ١١١، «الكامل» ص ٦٤٣) وولى مكانه عمر بن عبيد الله بن معمر، وكان ذلك فيما يلوح سنة ٦٧ أو في مستهل سنة ٦٨ هـ. فشخص إلى الخوارج الأزارقة فقاتلهم وهم بقيادة الزبير بن علي السليطى عند سابور (واصطخر) فهزمهم، فانسحبوا إلى

---

(١) «المجهول المؤلف» ص ١١٠، «الكامل» ص ٦٤١، وفي هذا الوقت انكسفت الشمس («الكامل» ص ٦٤١ س ٨) ولا بد أن يكون ذلك الكسوف قد وقع في صيف سنة ٦٨٦ ميلادية.

(٢) ورد ها هنا خطأ في ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٢.

نـواحي أصـفهان وكرمـان[١]، ولكـنهم احتشـدوا مـن جديـد وزحفـوا بعـد فتـرة خلال بلاد فـارس والأهواز في اتجاه البصرة. فتقدم عمر بن عبيد الله للقائهم بعد أن أفزعـه قـدومهم وأنـه تـركهم ولم يجهز عليهم، كذلك أقبل مصعب بن الزبير من البصرة. هنالـك انحرفـوا إلى نـواحي الكوفـة متجهـين إلـى المـدائن، فهـرب أميـر المـدائن. وفـي هـذه المنطقـة أثـار الخـوارج الرعـب فـي المسلمين، حتى النساء منهم والأطفال، وفي إحدى المواقع معهم قتل أبو بكر بـن مخنـف وكـان يتولى منصباً في تلك النواحي[٢]. وكان القُباع [وهو الحـارث بـن عبـد اللـه بـن أبـي ربيعـة] قـد صار والياً على الكوفة بعد أن تولى مصعب بن الزبير ولاية البصرة. فتثاقل القبـاع عـن الخـروج لقتال الأزارقة، فذمره إبراهيم بن الأشتر، ولكـن سـائر رؤسـاء القبـائـل لـم يكونـوا معـه. ثـم خـرج القباع متحاملاً، فمال الخوارج دون قتال إلى ناحيـة البصـرة، فتـركهم وشـأنهم. ومضـى الخـوارج في جبال ميديا،

---

(١) يبدو أن كرمان كانت كلها تحت سلطان الخوارج، فمن هناك كانوا يخرجون ثم إليها يعودون.

(٢) لعله من أقارب أبي مخنف الذي يروي عنه الطبري، إذ يتبين من أبيات لسراقة بن مرداس البارق (الطبري ٢/ ٧٥٧ وما يليها) أن أبا بكر هذا سيد من الأزد، وأبو مخنف من أسرة سيد بني الأزد في الكوفة.

وهاجموا مدينة الري[١] وحاصروا أصفهان. ولكن عتاب بن ورقاء من بني تيم بالكوفة أبلى في القتال عند هذه المدينة بلاءاً حسناً طوال عدة أشهر. ثم هجم عَتَّاب هجوما شديداً جريئاً حتى استولى على المكان وأرغم الخوارج على الانسحاب. وقتل أميرهم الزبير بن الماحوز، فبايعوا رجلاً آخر من بني تميم خليفة له هو قطريّ بن الفجاءة، وكان شجاعاً موهوباً اشتهر أيضاً بقرض الشعر[٢]. فعاد بهم قطريّ إلى كرمان حتى يستريحوا ويجتبروا ويقووا ويستعدوا ويكثروا. ثم إنهم خرجوا ومروا بأصفهان فالأهواز وزحفوا عبر نهر دجيل حتى بلغوا سولاف. ففزع أهل البصرة، وأصبحت المدينة نفسها مهددة، إذ كان مصعب مشغولاً كالعادة بقتال أهل الشام. فكتبوا إلى مصعب

---

(١) لا يتضح مما أورده «الكتاب المجهول المؤلف» (ص ١١٨) ولا من «الكامل» (ص ٦٤٧ وما يليها) ما إذا كان هجومهم على الري قد وقع قبل حصار أصفهان أو أثناءه. لكن يبدو من كلام ابن الأثير (جـ ٤ ص ٢٣٦) أن أهل الري هم الذين دعوا إليهم الخوارج أو على الأقل هبوا لمساعدتهم ضد الحكومة (حكومة مصعب بن الزبير).

(٢) أعظم شعراء الخوارج هو عمران بن حطان، وكان ورعاً يحفظ القرآن والحديث («الأغاني» جـ ١٦ ص ١٥٢ وما يليها). ولم يكن الخوارج أعداء للشعراء، رغم شدة تدينهم، وكان شعراء الخوارج يسلكون مسلك شعراء الجاهلية.

يسألونه أن يرسل إليهم بالمهلب[١] . فبعث المهلب إليهم، وولى إبراهيم بن الأشتر مكانه في الموصل. وجهز المهلب جيشاً في البصرة وتوجه للقاء الأزارقة، ودارت بين الفريقين مناوشات استمرت ثمانية أشهر عند سولاف، إلى أن حدثت معركة مسكن بين مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وقد انتهت المعركة بانتصار عبد الملك وهزيمة مصعب وقتله. فبلغ نبأ قتله الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه. فاستغل الخوارج هذه الفرصة ليفضحوا انعدام الرأي السياسي عند أهل البصرة. تواقف الخوارج على الخندق ونادوا أهل البصرة: «ما تقولون في مصعب؟» قالوا: «إمام هدى، وهو ولينا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤه». قالوا: «فما قولكم في عبد الملك؟» قالوا: «ذاك ابن اللعين، نحن إلى الله منه براء، هو عندنا أحل دماً منكم». قالوا: «فإن عبد الملك قتل مصعباً ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم وأنتم الآن تتبرأون

---

(١) كان القباع ـ فيما يقول الطبري جـ ٢ ص ٧٦٤ س ١٨ ـ عاملاً لمصعب بن الزبير على البصرة، وكان عاملاً له على الكوفة. ويحق للمرء أن يتساءل عن صحة هذا الخبر.

منه وتلعنون أباه[1]». قالوا: «كذبتم يا أعداء الله!» فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب. فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان. وقد صدق الأزارقة في تقديرهم لحقيقة خصومهم (الطبري جـ ٢ ص ٧٥٣ وما يليها، ص ٨٢١ وما يليها، [وابن الأثير جـ ٤ ص ٢٧٣]).

وهذه الحوادث تشغل فترة طويلة تمتد من نهاية سنة ٦٦ هـ (صيف سنة ٦٨٦ م) إلى مستهل سنة ٧٢ هـ (خريف سنة ٦٩١ م). وأبو مخنف لا يورد إلا القليل من التواريخ. وبعد مقتل المختار بن عبيد في ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ (٣ إبريل سنة ٦٧٨) بقي مصعب في الكوفة عاماً كاملاً معزولاً عن البصرة وتولى أمر البصرة خلال ذلك شخص آخر هو ابن أخيه، حمزة بن عبد الله بن الزبير (الطبري جـ ٢ ص ٧٥٢ س ١٣ ـ س ١٤)، وأعيد إلى ولاية البصرة في رمضان سنة ٦٨ هـ

---

(١) على الرغم من أن هذه الحكاية أجمل من أن تكون صحيحة، لكنها مع ذلك ليست غير ممكنة. فإنه حين كان يتوقف القتال بالسلاح، كان الفريقان يتابعان عراكهم بحد اللسان، كما يتبين ذلك مما ورد في «الأغاني» جـ ٦ ص ٦، جـ ٧ ص ٣٩. كذلك يروي «الأغاني» أنه حدث نقاش عنيف في معسكر المهلب حول أيهما أشعر: جرير أم الفرزدق؟ حتى احتكموا إلى أحد الخوارج، وهو عبيدة بن هلال، ففضل جريرا.

أو قبل ذلك أو بعده بقليل. فلا يمكن تحديد هجوم الأزارقة على نواحي الكوفة إلا حوالي نهاية سنة ٦٨ هـ. ولا يمكن أن يكونوا قد جاءوا إلى أصفهان قبل سنة ٦٩ هـ. وبقوا في نواحي أصفهان وقتاً طويلاً، وحاصروا مدينة أصفهان عدة أشهر (سبعة أشهر بحسب «الكامل» ص ٦٤٩). وتبعاً لهذا لا يكون قطريّ بن الفجاءة قد تولى إمارة الخوارج قبل نهاية سنة ٦٩ هـ، ولعله بعد ذلك. ونستطيع أن نفترض أنه أقام يستريح ويستعدُّ بكرمان طوال السنة التالية، ليعيد تنظيم جنوده، وحوالي بداية سنة ٧١ ظهر من جديد في الأهواز. وجرت استعدادات المهلب ومناوشاته التي استمرت ثمانية أشهر بسولاف، خلال سنة ٧١ هـ وبداية السنة التالية. والطبري ـ بغير تفكير وتدبر كما هي عادته دائماً ـ يحشد كل هذه الحوادث في سنة ٦٨ ثم يقفز منها إلى سنة ٧٢ لإتمام رواية الحوادث، والخانات الخاصة بسنتيْ ٦٩ و٧٠ بقية لديه خاوية عموماً. وهذا يدل على صعوبة تاريخ هذه الفترة التي وقعت فيها الحروب بين عبد الملك ومصعب، وليس فقط فيما يتعلق بهذه النقطة بل على وجه العموم.

والروايات المناظرة الواردة في «الكتاب المجهول المؤلف»

وفي «الكامل» تتضمن كالعادة تفاصيل أكثر مما أورده أبو مخنف، وتختلف عنه في ثلاث نقط خصوصاً. (أولاً): لما هذه الزبير بن الماحوز البصرة ثم انقلب إلى المدائن توجه للقائه أولاً حمزة بن عبد الله بن الزبير الذي كان والياً على البصرة آنذاك، ثم مصعب مرة أخرى بعد أن أعيد إلى منصبه والياً على البصرة وترك الكوفة. ولانتظار تغيير الوالي سيكون الزبير قد بقي وقتاً طويلاً في مركز خطر جداً يهدده عمر بن عبيد الله بن معمر من الخلف. (ثانياً) بعث المهلب من الموصل إلى البصرة لما خرج الزبير بن الماحوز من كرمان إلى الأهواز، لا بعد ذلك حينما خرج قطريٌّ من كرمان إلى الأهواز. ولكنه لم يبدأ العمل إلا في سنة ٧١ هـ. وفضلاً عن ذلك فإن من خلفه على الموصل ـ وهو ابن الأشتر ـ كان لا يزال في الكوفة في نهاية سنة ٦٨ هـ. (ثالثاً) كان ميدان القتال سنة ٧٢ هـ لا في سولاف، بل على الجانب الآخر من نهر دجيل في أماكن متعددة من نواحي رامهرمز. ويمكن أن يكون الأمر قد اختلط هنا على أبي مخنف، وهو أمر من السهل أن يقع فيه لأنه يجهل القتال الذي قام به المهلب في سولاف سنة ٦٦ هـ.

ولم يكن من شأن دخول العراق في طاعة عبد الملك

ابن مروان إصلاح الموقف من ناحية تأثير الخوارج في تكييف هذا الموقف. لقد ولى عبد الملك ولاة أمويين نَحَّوُا المهلّب ليظهروا هم. فولى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، الذي تولى بنفسه قيادة القتال ضد الأزارقة، وكانت النتيجة أن وضع جيشه عند نهر تِيرىٰ في وضع خطر جداً لم ينقذه منه إلا يقظة المهلّب. وبعد ذلك عاد الخوارج إلى كرمان، ورجع خالد إلى البصرة بعد أن ترك قيادة الجيش لأخيه عبد العزيز الذي تولى إمارة فارس مكان عمر بن عبيد الله بن معمر. مضى عبد العزيز لقتال الخوارج فهزموه شر هزيمة في دَاريجَرْد، وخلص بنفسه لكنه فقد معظم جيشه وأخذت امرأته [«ابنة المنذر بن الجارود، فأقيمت فيمن يزيد فبلغت مائة ألف، وكانت جميلة فغار رجل من قومها كان من رؤوس الخوارج يقال له أبو الحديد الشَّنِّيّ، فقال: تنحوا هكذا! ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم، فضرب عنقها «الطبري ٢/ ٨٢٣] فكان من حسن حظها أن قتلوها. وفي نفس الوقت هزم أمية، أخو خالد، في البحرين، هزمه أبو فديك الذي كان ربما يعمل وهو متفاهم مع قطريّ بن الفجاءة. وتعقب الأزارقة الظافرون أهل البصرة الفارين حتى بلغوا قنطرة أَرْبُك، واستولوا على

الأهواز كلها، وتقدموا حتى بلغوا فرات ميسان، في مواجهة البصرة («الكامل» ص ٦٦٣ س ٩). فعاد الموقف (في سنتيْ ٧٣، ٧٤ هـ) إلى مثل ما كان عليه من قبل في سنة ٦٥ هـ بعد يوم دولاب. وكان المهلب في حفنة من الرجال، فلم يستطع الثبات بل لحق بالفارين من أهل البصرة، وهو يكتم سروره بالكارثة التي حلت بأمراء بني أمية الغلاظ المتكبرين، ولكنه عرف أن ساعته هو الآخر قد أزفت الآن.

تلك هي الأحداث كما يرويها «الكامل» (في ص ٦٥٤ وما يليها). أما رواية أبي مخنف في الطبري ٢، ٨٢١ وما يليها فتجري على نسقٍ عكسي، إذ يذكر أولاً حملة عبد العزيز البائسة، ثم حملة خالد الموفقة وإن كانت لها ذيول أليمة، دون النتيجة وهي أن الأزارقة قد استولوا على الأهواز وتقدموا حتى بلغوا الشاطئ لمواجه للبصرة من نهر دجلة. ولكن هذه المسألة الأخيرة يشهد على صحتها أبيات لشاعر معاصر هو كعب الأشقري [والأشقر بطن من الأزد] يذكر فيها يوم رام هرمز وأيام سابور وأيام جيرفت، أوردها الطبري (جـ ٢ ص ١٠١٠ وما يليها): كان أهل البصرة في خطر شديد ولم يجرؤوا على عبور القنطرة، إلى أن تولى المهلب القيادة فطارد الأزارقة حتى رام هرمز.

وهذا يدل على أن رواية «الكامل» ها هنا أفضل من رواية أبي مخنف.

وبعد هذا تتفق رواية أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٨٥٥ وما يليها، ص ٨٧٣ وما يليها، ص ١٠٠٣ وما يليها) مع رواية «الكامل» (ص ٦٦١ وما يليها) بحيث يجب على المرء أن يُؤلف بينهما ويُكمل الواحدة بالأخرى. عزل عبد الملك خالدا بن أَسِيد وولى بشر بن مروان وهو بالكوفة فاجتمع له المصران. فولى المهلّب حرب الأزارقة وجعله مستقلاً عن الوالي وأعطاه الحق في جمع جنود من البصرة. كذلك زوده بشر بجيش من الكوفة عقد لواؤه لعبد الرحمن بن مخنف[1] ولكنه أمر عبد الرحمن بن مخنف بأن يخالف أوامر المهلّب وأن يفسد عليه رأيه، وذلك لأن بشراً كان يُبْغِض المهلّب لأنه معيّن من قِبَل الخليفة مباشرة ولا يخضع له: ولحسن الحظ لم يتبع عبد الرحمن بن مخنف ما أسرَّ إليه به بشر، بل فعل ما أملاه عليه واجبه. فانكشف الأزارقة عن الفرات، فاتبعهم المهلّب، فرحلوا عبر دجيل إلى أن بلغوا الجبال، واستولى أهل البصرة والكوفة على موضع حصين عند رام هرمز. وبعد أن أقاموا

---

(١) أحد أقرباء أبي مخنف الراوية.

بها عشرة أيام جاءه نبأ موت بشر في البصرة. فترك معظم الكوفيين وكثِيرٌ من البصريين هذا المكان وعادوا أدراجهم، ولم يقدر قادتهم على وقفهم، حتى لم يبق معهم غير عدد قليل. وهذه النتيجة تلقى ضوءاً على النظام العسكري في الجيش العراقي. ومن العجيب أن العدو (أي الأزارقة) لم يستغلَّ، فيما يبدو، هذا الموقف، على أن المهلّب كان لا يزال قوياً للدفاع ضد هجومهم لو قاموا به، فإن الأزد، قومه وقوم جيشه، بقوا إلى جانبه.

وتبين فيما بعد أن موت بشر كان كسباً عظيما للمهلّب. فقد ولى مكانه في أوائل سنة ٧٥ الحجاج بن يوسف الثقفي وكان يثق ثقة عظيمة بالمهلّب هو حقاً جدير بها. وكان أول ما فعله الوالي الجديد (أي الحجاج) هو أنه رد الفارين من أهل الكوفة والبصرة إلى رام هرمز، وجاء بنفسه إلى الميدان وقضى في هذه المناسبة على تمرد بني عبد القيس البصريين، وذلك في أوائل شعبان سنة ٧٥ هـ. وفي نهاية شعبان سنة ٧٥ هـ (ديسمبر سنة ٦٩٤ م) استطاع المهلّب أن يبدأ الهجوم. ففرّ الأزارقة أمامه عائدين إلى فارس، فتتبعهم إلى أرَّجان ثم السَّرَدان حتى كازرون في نواحي سابور. فحندق على نفسه هناك مع أهل البصرة، كما كانت

عادته دائماً في حروبه. وكان أهل الكوفة أقل احتياطاً، فعوقبوا عن ذلك. وذلك أن الأزارقة هجموا هجمة ليلية نجح المهلّب في ردها، ولكنها أصابت مقتلاً في أهل الكوفة، حتى قتل سبعون من القراء فيهم وكانوا من خير قرائهم وأقدمهم، وكذلك قتل قائدهم ابن مخنف (الثلاثاء إلى الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ٧٥ هـ = ١٢ يناير سنة ٦٩٥ م). فولى الحجاج مكانه في القتال عتاب بن ورقاء الرياحي، كتب إليه ـ وهو والي أصفهان ـ يأمره بالمسير إلى المهلب وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف، وذلك في سنة ٦٧ ولكنه رده بعد ثمانية أشهر في مستهل سنة ٧٧ هـ، لأنه كان أنفع في العراق (ضد شبيب) ولأنه بدأ يختلف مع المهلب اختلافاً خطيراً كان يهدد بإثارة خصومة قَبَلية بين بني تميم والأزد في الجيش. وبعد أن استمر القتال في نواحي سابور واصطخر أكثر من عام، انسحق إلى الأزارقة من فارس وعادوا إلى كرمان التي كانت في قبضة أيديهم منذ زمن طويل. مضوا أولاً إلى السِّيرجان، فلما أجلوا من هناك تحصنوا في جيرفت. فتبعهم المهلب، وكان عليه أن يقضي، بعد طردهم من فارس، ثمانية عشر شهراً في قتالهم حتى يقهرهم تماماً. وظن الحجاج أنه إنما

تعمد أن يطيل الحرب مع الخوارج حتى يحتفظ لنفسه بالقيادة ويستغل ذلك. فضغط عليه الحجاج، وذلك أنه رفع منه إدارة إقليم فارس وجباية خراجه بعد أن طرد منه الخوارج، باستثناء جزء صغير منه تركه له يجبى خراجه للصرف منه على جيوشه. وأرسل إليه الرسل المرة تلو المرة لحثه على الإسراع في القتال. ولكن المهلب لم يتأثر بهذا حتى لا يخطئ السبيل، فقد كانت خطته في هذه الحالة تقوم على الانتظار والترقب، لا على الاندفاع والهجوم المستمر، وكان يبني حسابه على انتشار المرض أو الجوع أو قيام الخلاف في صفوف العدو[١]. ودب الخلاف فعلاً بين الخوارج. فقد صنع الأزارقة مع قطريّ صنيع النجدات مع نجدة تماماً. ذلك أنهم راحوا يتعقبونه ويأخذون عليه مخالفات شرعية، وكانوا أشداء عليه حين كان يثبت أمامهم ويدافع عمن ولاهم، ولا يشايعهم على رأيهم في أمور القتال، وبالجملة تألبوا عليه ولم يكونوا

---

(١) على أنّ المهلب لم يكن في الواقع ـ كما يبدو فيما بعد ـ متوقفاً عن كل عمل، فقد ورد في أبيات كعب الأشقري (الطبري جـ ٢ ص ١٠١١ ـ ص ١٠١٤) ذكر عدد غير قليل من المعارك المتفاوتة في الشهرة، لا نعثر على ذكر لها في «الكامل» ولا لدى أبي مخنف. لقد كان شغله الشاغل ألا يقتحم العدو نقطة تمكنه من النفوذ إلى البصرة.

رهن إرادته. وكان أساس هذا كله تعارض عام. فالعرب في جيشه كانوا من أخلص أنصاره، بينما كان الموالي يعارضونه ويبرزون في الطليعة واحداً منهم هو عبد ربه الصغير[١]. وكان هناك منهم ثمانية آلاف، وهم القراء، وانضم إليهم بعض العرب بزعامة عمرو القنا. ونشبت الحرب بين فريقيْ الخوارج فتهايجوا وانحاز كل قوم إلى صاحبهم، واستمر القتال مدة شهر تقريباً، وآثر المهلب أن يعتصم بالهدوء، إذ خشي أن يكون هجومه عليهم خير سبب في جمع كلمتهم من جديد. وأخرجت العجم العرب من المدينة وأقام عبد ربه بها، وخندق قطريّ على باب المدينة وجعل يناوشهم، ثم ارتحل بعد مدة إلى طبرستان. فلم يكن أمام المهلب إلا الموالي بقيادة عبد ربه، فهزمهم وقضى عليهم قضاءاً تاماً. وبهذا أدى المهلب واجبه، وعاد إلى البصرة فاستقبل باحتفال عظيم وكوفئ بولاية خراسان (في سنة ٧٨ هـ).

وقد استمرت الحروب التي قام بها المهلب ضد الأزارقة في ولاية الحجاج ثلاث سنوات حسبما يقوله كعب الأشقري

---

(١) [المترجم: يلاحظ أن اسمه في الطبري جـ ٢ ص ١٠٠٣ س ٣ هو: عبد رب الكبير، وقارن أيضاً الطبري جـ ٢ ص ١٠١٨ س ٢].

(الطبري جـ ٢ ص ١٠١٤ س ١)، فبدأت من بعد منتصف سنة ٧٥ هـ وانتهت حوالي منتصف سنة ٧٨ هـ وقد اختلط التسلسل في رواية أبي مخنف لأنه ورد في الطبري ص ١٠٠٣ أنه بعد صرف عتاب بن ورقاء عن عسكره ـ وقد حدث ذلك في مستهل سنة ٧٧ هـ ـ بقي المهلب حوالي عام في فارس وعاماً ونصف العام في كرمان يقاتل. وهذا يؤدي بنا إلى حوالي نهاية سنة ٧٩ هـ. فالعبارة: «بعد ما صرف... عتاب» خطأ، ويجب أن تكون: «بعد وصول عتاب إلى كازرون». والخطأ ليس من صنع أبي مخنف، بل من الطبري الذي أراد أن يصل ما انقطع في ص ٨٧٨ واستمر الانقطاع طويلاً، وهذه الإضافة غير موجودة في الفقرة الواردة ص ٨٨٠ من الطبري والتي تماثل الأخرى تماماً. كذلك يمكن أن نستخلص مما أورده «الكامل» (صفحات ٦٧٦ س ١٨، ٦٧٧ س ٧٥ وما يليه) أن عتاباً لم يدعه الحجاج بالمصير إليه بعد انتهاء الحملة في فارس، وهذا وحده الشيء المقبول المتفق مع حقيقة الأمر. إذ بهذا تتسق الأخبار كلها هكذا: بعد منتصف سنة ٧٥ بدأت الحرب في الأهواز واستمرت حتى بداية سنة ٧٧، فاستمر القتال في فارس أكثر من

سنة، وعند منتصف سنة ٧٨ انتهى القتال في كرمان بعد أن استمر حوالي سنة ونصف سنة.

وأبو مخنف (في الطبري جـ ص ٢ ص ١٠١٨ وما يليها) هو وحده الذي يورد رواية محكمة عن الأزارقة العرب الذين ارتحلوا بقيادة قطريّ وعبيدة بن هلال من كرمان إلى طبرستان. وُجِّه إليهم سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش عظيم من أهل الشام كان قد قضى على شبيب عند نهر دجيل حوالي نهاية سنة ٧٧، وساعده إسحق بن محمد بن الأشعث بجيش لأهل الكوفة بطبرستان، وكذلك ساعده جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف بجيش من الري. وساروا «في طلب قطريّ بن الفجاءة حتى لحقوه في شِعب من شعاب طبرستان، فقاتلوه فتفرق عند أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فقد هوى حتى خر إلى أسفله» (الطبري جـ ٢ ص ١٠١٨) فرآه هناك عِلْجٌ من أهل البلد وحَدَّر عليه حجراً عظيماً من فوقه دهدأه عليه فأصاب إحدى وركيه فأوهنته وصاح بنفر من أهل الكوفة فابتدروا قطرياً فقتلوه، وأخذه أبو الجهم بن كنانة الكلبي فحزّ رأسه وقدم به على الحجاج ثم أتى به عبد الملك بن مروان فألحق في الفين وفرض لأبنائه في الديوان، وكان أبو الجهم

يطلب الثأر لأبيه عند قطريّ. وبعد ذلك اتجه سفيان بن أبرد الكلبي إلى عبيدة بن هلال ـ وكان قد تحصن في قصر بقومس، فحاصره فقاتله أياماً ثم دعاه إلى التسليم فرفض عبيدة وقال قصيدة في ذلك، فيها حزن وفيها عزم، وقد حفظت لنا هذه القصيدة [أوردها الطبري جـ ٢ ص ١٠٢١]. فتفشى الجوع في الذين حوصروا بالقصر حتى أكلوا دوابهم، ثم إنهم خرجوا للقاء سفيان فقاتلوه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج. ولقوا مصيرهم هذا تقريباً في نفس الوقت الذي لقي فيه إخوانهم السابقون مصيرهم في جيرفت وذلك سنة ٧٨ هـ. وبهذا استؤصل الأزارقة من وجه الأرض. ولم يستمروا بعد ذلك على هيئة فرقة دينية، لأنهم كانوا رجال عمل لا رجال نظر. لكن بقيت ذكراهم في الروايات المنقولة والأشعار. حتى ظلوا يذكرون عدة سنوات في الشرق الإسلامي. ولس من اللائق أن يكتفي ببضع كلمات من الحديث عنهم في كتب التاريخ الحديثة. وكان لخلافاتهم الداخلية فيما بينهم أثر في القضاء عليهم لا يقل عن أثر براعة المهلب في حربهم، وقد استطاع بفضل انتصاره عليهم أن ينال شهرة عالية. والعرب والموالي لم يحتمل أحدهما الآخر، وظهر أن مفعول الطبيعة أقوى من مفعول المبدأ.

١٠ ـ وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الأزارقة تهدد البصرة، كان فريق آخر من الخوارج قدموا من نواحي الموصل يهددون الكوفة. وخير رواية، بل الوحيد في هذا الباب هو أبو مخنف كما نقل عنه الطبري (جـ ٢ ص ٨٨١، ص ٩٨٩)، وقد فصَّل في الرواية وهو أوثق الرواة في كل ما يتعلق بالكوفة.

كان يعيش في دارا، بين نصيبين وماردين، رجل ناسك مخبت مصفر الوجه صاحب عبادة اسمه صالح بن مُسَرِّح، وكان زعيماً للخوارج في تلك النواحي [: دارا وأرض الموصل والجزيرة]، وهؤلاء كانوا على اتصال بالكوفة ومن هناك انتشروا (الطبري جـ ٢ ص ٨٨١، ص ٩٧٧). وكان تميمياً، ولكن غالبية العرب الذين كانوا يسكنون هناك على جانبي الدجلة كانوا من بني ربيعة، وعلى الأخص من بني شيبان بن بكر، الذين نزحوا من مواطنهم الأولى على الجانب الأيمن من نهر الفرات إلى صحارى الكوفة[١].

---

(١) كانت أم شبيب الشيباني من نواحي الموصل عند منحدر جبل ساتيدما. ولا شك أن أباه كان يعيش هناك، ولكن أسرته كانت قد نزحت إلى هناك من ماء يدعى اللصف (الطبري ص ٩٧٨) مارة بالكوفة، وماء اللصف هذا يقع في صحراء الكوفة («الحماسة»: ١٥)، ولكن بعض بني أبيه بقي في اللصف وكان يزورهم هناك والدا شبيب (الطبري =

كان أتباعه من بين هؤلاء، وكان يقرئهم القرآن ويعظهم داعياً إلى الحمية لله والثأر للناس من مظالم الحكام ومكافحة أئمة الباطل ومن والاهم من الفاسقين[١].

ولكنه لم يتعجل العمل، بل ظل يدعو ويجتذب الأنصار إليه طوال عشرين عاماً. وإنما حمل حملاً على تقديم جماعته للقتال[٢]. بث رسله في أصحابه وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٦ هـ (يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ٦٩٥ م) واجتمع إليه من أصحابه جماعة تتراوح بين ١١٥ و١٢٠ رجلاً كان عليهم أن يبدأوا بالهجوم على دوار الحاكم في رستاق دارا حتى تكون لهم خيول، بغيرها وهم قلة لن يستطيعوا عمل شيء. [وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة] وتحَصَّن منهم أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار. ثم إن صالحاً ومن معه فاجأوا جيشاً مؤلفاً من ألف قيسي بعث به محمد بن مروان [وهو يومئذ والي

= جـ ٢ ص ٩١٥، ص ٩٧٨). ولعل تفرق بني شيبان لم يكن باختيارهم، بل بسبب من معاوية.

(١) كان هناك مجموعة من هذه المواعظ أورد الطبري نموذجاً منها (جـ ٢ ص ٨٨١ وما يليها).

(٢) من قبله خرج فضالة بن سار وقتل (الطبري جـ ٢ ص ٨٩٣ وما يليها).

الجزيرة] في سوق دوغان وهم قائمون يصلون الضحى فلم يشعروا إلا والخيل طالعة عليهم فتفرقوا وهزموا[١] . ثم التقى الفريقان مرة أخرى في آمد على الشاطئ الأيسر من الدجلة فكان قتال مرير لم يصبر له جيش صالح فأخلوا أرض الجزيرة ودخلوا نواحي الكوفة.

هنالك أصبح أمرهم مع الحجاج الذي أرسل إليهم جيشاً من الكوفة يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل. والتقى الجمعان في قرية يقال لها المدبح من أرض الموصل على تخوم ما بينها وبين أرض جوخىٰ، وذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٦ هـ (= الخميس ٣ سبتمبر سنة ٦٩٥ م)، وانتهت في غير صالح الخوارج، وأصيب صالح بن مسرح وقتل، فمجد الخوارج ذكراه تمجيداً عظيماً وحزنوا عليه حزناً بالغاً. ولكن موته لم يكن خسارة فعلية لهم، إذ بايعوا بعد قتله شبيب بن يزيد بن نعيم وهو رجل كفاح حقيق، ومن أسرة عريقة هي مُرّة بن همام من ذهل بن شيبان. فتولى شبيب القيادة على البقية الباقية

---

(١) كان القيسيون يسكنون جنوب العراق، وكان الوالي يقيم بينهم، في حران (الطبري جـ ٢ ص ٨٨٧ س ٩، س ١٥، ص ٨٨٩ س ٢، ص ١٣٧٧ س ٣، س ٥).

من رجال صالح وكانت تبلغ سبعين أو تسعين رجلاً، وزحف بهم في نواحي الموصل على تخومها[١] حيث كان بمأمن من أهل الكوفة. ولم يكف هناك عن القتال، بل شفى للخوارج من قبيلتيْ شيبان وعنزة. ومضى شبيب إلى أمه فحملها من السفح فأقبل بها، ثم مضى إلى المدائن ـ وهي من نواحي الكوفة ـ ومعه ١٦٠ رجل، وتقع بين الدجلة والجبل، أعني في أرض جوخى[٢] عند النهروان، وهي الأرض العتيقة للخوارج التي قدستها عظام شهداء الخوارج الأقدمين. وكان في تلك النواحي عدد كبير من أديرة النصارى كانت معسكرات ونقط ارتكاز ملائمة للمحاربين. ولكن لم يكن لشبيب مركز ثابت، منه يخرج للقتال وإليه يعود، بل كان يغير مقامه باستمرار. ثم تهيأت له الفرصة للانتقام من هزيمة المدبح، إذ هزم جيش الحكومة مرتيْن الأولى في خانقين والثانية في النهروان. وجاء شبيب حتى

---

(١) اسم هذه النواحي أرض الجال (الطبري جـ ٢ ص ٨٩٣ س ٧، ص ٨٩٤ س ١٦، ص ٨٩٥ س ٥). ويبدو أن جبل ساتيدما يوجد هناك. راجع «مقتطفات هوفمن Hoffmann» برقم ١٤٨٨. وأخبار أبي مخنف عن شبيب تتضمن كثيراً من المعلومات الجغرافية.

(٢) كان يتبع المدائن أيضا الأنبار (الطبري جـ ٢ ص ٩٨٠ س ١١) والأستان (الطبري ٢/ ٩٢٩ س ١٢).

انتهى إلى بيوت المدائن ثم ارتفع بأصحابه عنها، ثم خرج يسير في أرض جوخى ومضى نحو تكريت، وخاف جند الكوفة في المدائن من مقدم شبيب، فارتحل عامة الجند هاربين ولحقوا بالكوفة.

عند ذلك بعث الحجاج جيشاً قوياً قوامه أربعة آلاف رجل من الكوفة إلى المدائن بقيادة الجزل بن سعيد. وراح هذا يحاكي خطط المهلب من المطاولة وشدة الحيطة في مطاردة العدو في أرض جوخى، ولم يهاجم الخوارج بل كان في الليل يخندق ويتحصن. واستمرت الحال على هذا النحو شهرين حتى نفد صبر الحجاج، فعزل الجزل وولى مكانه سعيد بن المجالد الهمداني وأمره أن يلقى الخوارج، وإذا لقيهم يزحف عليهم، ولا يناظرهم ولا يطاولهم بل يواقفهم ويطلبهم طلب السبع ويحيد عنهم حيدان الضبع. وكان شبيب قد أخذ إلى براز الروز فنزل قطيطياً[١] ودخلها وأمر دهقانها (حاكم البلد) أن يصلح لهم غداءاً ففعل، وأغلق الباب. فلم يفرغ من الغداء حتى أتاه سعيد في ذلك المعسكر. وكان الدهقان قد صعد السور فنظر إلى جند سعيد

---

(١) لا تبعد كثيراً عن النهروان (الطبري جـ ٢ ص ٩٠٨ س ٢، ص ٩٠٩ س ٢). والنهروان هي في الواقع قناة متشعبة واسم المكان المحيط بها.

ابن المجالد مقبلين قد دنوا من حصنه، فنزل وقد تغير لونه، فقال له شبيب: ما لي أراك متغير اللون؟ فقال له الدهقان: قد جاءتك الجنود من كل ناحية! ثم فرغ شبيب من طعامه هادئاً وركب بغلة وحمل عليهم ـ وسعيد على باب المدينة ـ فقال: لا حكم إلا للحكم الحكيم! وكان سعيد على رأس فرسانه أمامه يجمع قومه وخيله ثم يدلفها في إثره. فلما رآهم شبيب قد تقطعوا وانتشروا لف خيله كلها ثم جمعها ثم قال: استعرضوهم استعراضاً وانظروا إلى أميرهم فوالله لأقتلنه أو يقتلني، وحمل عليهم مستعرِضاً لهم فهزمهم. وثبت سعيد بن المجالد ثم نادى أصحابه وأخذ قلنسوته فوضعها على قربوس سرجه، وحمل عليه شبيب فعمَّمه بالسيف، فخالط دماغه فخر ميتاً. وهكذا انهزم جيش الحجاج وقتل قائده سعيد بن المجالد. فتولى الجزل قيادة البقية التي ثبتت، فقاتل قتالاً شديداً حتى حمل من بين القتلى إلى المدائن مثخناً بجراحه، وبعث إليه الحجاج بطبيبه الخاص لعلاجه من جراحاته[١].

---

(١) يورد الطبري رواية مغايرة لهذه في ص ٩١١ س ١٨ ـ ص ٩١٥ س ١. وفي ص ٩١٥ س ١ يستأنف تسلسل الرواية الذي انقطع من ص ٩١١ س ١٨.

وأقبل شبيب ظافراً يتابع الزحف حتى قطع دجلة عند الكرخ وبعث إلى سوق بغداد فآمنهم، ثم أخذ بأصحابه نحو الكوفة ومزّق جيشاً اعترض طريقه، وعبر الفرات إلى خفّان واللصف في البادية، وراح يقتل في بدو من ذوي قرابته كانوا يستوطنون هناك حتى استغاثوا بأنه يريد القضاء على القبيلة كلها. ثم مضى إلى مكان بعيد. فظن الحجاج أن الجو قد خلا، فخرج إلى البصرة. وهناك تلقى الحجاج نبأ عودة شبيب للقتال. فعاد مسرعاً، وفي مساء اليوم الذي عاد فيه إلى الكوفة ظهر شبيب أمام الكوفة ومعه مائتا فارس. وفي الليل دخل شبيب وأصحابه الكوفة حتى انتهى إلى السوق، ثم شدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ضربة أثّرت أثراً عظيماً كان لا يزال يرى بعد ذلك بمدة طويلة[١]. وفي الصباح لم يكن لهم أثر هناك. فبعث الحجاج

---

(١) إنّ الخبر الذي يقول إنّ شبيباً بدخوله الكوفة قد هيأ لزوجه غزالة أن تحقق نذرها أنْ تصلي ركعتيْن بمسجد الكوفة ـ لا يرد في كلام أبي مخنف (وكل ما يقوله هو إنَّ شبيباً دخل مساجد الكوفة ليقتل من كان لا يزال يصلي بالليل فيها ممن عثر عليه) ـ بل نجده في المسعودي جـ ٥ ص ٣٢١، و«الأغاني» جـ ١٦ ص ١٥٥، ويشهد عليه بيت شعر (المسعودي جـ ٥ ص ٤٤١) تسمى فيه غزالة:

وفت الغزالة نذرها   يا رب لا تغفر لها

راجع أيضاً ص ١٢٠ تعليق ٢. ومما يلفت النظر ما ورد في الطبري جـ ٢ ص ٧٦٧.

في إثره زائدة بن قدامة الثقفي في جيش كبير، فلم يعثر له على أثر أينما بحث عنه. ذلك أن شبيباً قد سار في طريق منحن، ثم ظهر فجأة في القادسيّة من الناحية الأخرى من الكوفة. ولم يقو على الوقوف في وجه جماعة من الفرسان أرسلوا إليه على عجل، وصارت الكوفة مفتوحة أمامه. ولكنه فضّل أن يهاجم زائدة بن قدامة الذي كان يعسكر عند رذبار على بعد ٢٤ فرسخاً. ونجح هذا الهجوم المفاجئ، وقتل زائدة بن قدامة، وأبيد شطر من جنوده. ورغم ذلك رفض شبيب أن يدخل الكوفة على الرغم من حث أنصاره له على ذلك. ومضى في طريقه مارا بنِفَّر والصّراة وبغداد حتى بلغ خانيجار فأقام بها.

ولم يقتصر نصر شبيب على إصابة الحجاج بالعار والخزي، بل أصابه أيضاً في الخراج الذي يجبيه من هذه النواحي، فقد ضاع عليه خراج مناطق واسعة، ونهبت دور المال. فبعث مرة أخرى جيشاً قوياً من أهل الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، المشهور. وخرج عبد الرحمن بن الأشعث الكندي في الناس حتى مرّ بالمدائن وأتى الجزل ـ سلفه ومن بني قومه ـ فسأله عن جراحته وأوصاه الجزل بخطة في القتال وعاها عبد الرحمن وخرج

بالناس نحو شبيب. فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب إلى دقوقاء وشهرزور واستمر في طلبه حتى ترك شبيب نواحي المدائن، وأذن له الحجّج بالسلوك في إثره أين سلك حتى يدركه فيقتله أو ينفيه، فسار عبد الرحمن في إثر شبيب حتى وصل نهر حولايا على تخوم الموصل الفاصلة بين نواحي الموصل وسواد الكوفة، وقد كانت خطة شبيب أن يرهق جيش عبد الرحمن بحمله على السير في إثره في طرائق ملتوية في أرض جبلية وعرة، ولم يجد شبيب فرصة لمفاجأته. ولكن الحجاج لم يطق صبراً على هذه الخطة المراوغة المطاولة، فعزل عبد الرحمن وأمّر مكانه عثمان بن قطن الحارثي[(١)] إذ الأول شديد الحذر والثاني مغامر. أراد عثمان أنْ يمسك بالثور من قرنيْه، فكان الإخفاق جزاءه. ففي يوم الخميس العاشر من ذي الحجة سنة ٧٦ هـ (= الثلاثاء العشرين من مارس سنة ٦٩٦ م) نشب القتال بينه وبين شبيب، فكانت الدائرة على عثمان فهزم وقتل. وعاد عبد الرحمن بن الأشعث بالفلول المنهزمة إلى دير أبي مريم ومن ثم إلى الكوفة.

وقام شبيب في شتاء سنة ٧٦ هـ (٦٩٥/ ٦٩٦ م) ببعض الغارات. ولكي يستجم هو وأصحابه أتى في مستهل

---

(١) ابن حصين (الطبري جـ ٢ ص ٩٨٢ س ٣) أي حصين ذو الغصة المشهور. وقد كان قواد أهل الكوفة غالباً من أعاظم الرجال.

سنة ٧٧ هـ (ابريل سنة ٦٩٦ م) إلى جبال ماء بهراذان[١] فصيَّف بها ثلاثة أشهر وهناك انضم إليه ناس كثيرون بعضهم ممن كان الحجاج يطلبهم بمال أو تباعات (تارات). فلما انفسخ الحرّ - وإذن لم يكن ذلك في يوليو أو أغسطس -، خرج من ماه بهراذان وأقبل نحو المدائن وكان عليها، من قِبَل الحجاج، مطرّف ابن المغيرة بن شعبة ولم يكن يشبه أباه، وكانت لديه ميول شديدة نحو الخوارج، ولكنه لم يشأ أن يكون تابعاً لشبيب، كما لم يشأ أن يقاتله، فأخلى المدائن وخرج نحو الجبال حيث لقى نهايته. وباستيلاء شبيب على المدائن احتلّ مركزاً منيعاً جداً، ولكن يبدو أنه لم يستفد منه كثيراً.

واستغلّ الحجاج الوقت الذي تركه العدوّ فيه في راحة - فألّف جيشاً أكبر بعشر مرات من أيّ جيش سابق بعث به، انخرط فيه كل من له عطاء في ديوان الكوفة: شبابا وشيباً، كان من بينهم من شهدوا معركة القادسية قبل ذلك بستين سنة. كذلك انضمّت إليه الفصائل المختلفة

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٩٤١. ولا أعرف أين هذا الموضع. على أن الطبري أورد رواية مخالفة لذلك في جـ ٢ ص ٩٨٢، فقال إنّ شبيباً توجه من ساتيدما قاصداً المدائن.

خصوصاً تلك للتي كانت تساعد أهل البصرة ضد الأزارقة وأصبح قائدهم، عتّاب بن ورقاء، هو القائد الأعلى لهذا الجيش الكبير. تحرك هذا الجش بعد استيلاء الخوارج على المدائن، أعني بعد فصل القيظ من سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م)، فأتى سوق حكمة بالصراة[١]، في الجنوب الغربي من الدجلة غير بعيد من بغداد، ففاجأ هذا الجيش شبيب ومعه ستمائة رجل. وكان أمره مع هذا الجيش سهلاً، لأن هذا الجيش كان أشبه بالقطعان منه بالجيش المنظم، ولم يكن أعظم أخطائهم أنهم لم يعودوا يحسنون الأناشيد الحربية القديمة ولم يكن فيهم خطباء يشعلون حماستهم. وتركوا أمر القتال لرؤسائهم وأبرز المحاربين، فلما سقط هؤلاء قتلى، ومن بينهم عتّاب بن ورقاء نفسه، ولّوا هاربين.

فكان في وسع شبيب بعد ذلك لا أن يثير الرّعب في الكوفة فحسب، بل وأن يهاجمها هجوماً جدّياً. فبعد أن هزم جيشاً صغيراً اعترض طريقه، قطع الجسر وعسكر دونه إلى الكوفة وأقام في عسكره مدة غير قصيرة، إذ بني مسجداً هناك[٢]. ولو أن الحجّاج اكتفى بجنوده من أهل

---

(١) الصراة ـ كالنهروان ـ اسم قناة واسم مكان على القناة.

(٢) أو بناء لتحقيق نذر زوجه غزالة؟ لقد بقى المسجد مدة طويلة يحمل اسمه. وقد أمر بنبش القبر الذي دفن فيه رأس زوجه ـ وكان قد أرسل إلى الحجاج بعد قتلها ـ ودفن شبيب رأسها هناك.

الكوفة، لكانت النتيجة كارثة عليه، كذلك العبيد والموالي الذين سلّحهم لم يكن في استطاعتهم إنقاذه رغم شجاعتهم وإخلاصهم له. بل كان عليه أن يطالب بجنود من الشام يرسلهم إليه الخليفة، وقد وصلوا فعلاً في الوقت المناسب، وعددهم أربعة آلاف بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي. وخرج أهل الشام في السَّبَخَة أمام الكوفة للقاء الخوارج، واحتدم القتال بين الفريقيْن والحجّج يشهده وهو جالس على كرسيّ في مكان مرتفع. فدفعوا الخوارج خطوة إثر خطوة، وحمل خالد بن عتّاب ـ وهو ابن عتاب بن ورقاء الذي قتل من قبل ـ على الخوارج فخرج بعصابة من أهل الكوفة[1] حتى دخل عسكرهم من ورائهم فقتل غزالة، امرأة شبيب، قتلها فروة بن الدفّان الكلبي، وحرق في عسكره وأتى ذلك الخبر الحجاج وشبيباً، فأما الحجاج وأصحابه فكبّروا تكبيرة واحدة. وأما شبيب فوثب هو وكل راجل معه على خيولهم وفرّوا عابرين فوق جسر الفرات، وتخلّف شبيب في

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٩٦١، ص ٩٦٧. ومن هذا يتبين أن أهل الكوفة قد اشتركوا في القتال إلى جانب أهل الشام، وهذا يناقض ما ورد في الطبري جـ ٢ ص ٩٥٥. وعمر بن شبة، الذي يورد الطبري روايته المخالفة لرواية أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٩٦٢ س ٥ ـ ص ٩٦٨ س ١٧) لا يتحدث عامة عن أهل الكوفة، ولعله تعمد أن يغفل ذكر أهل الشام.

حامية الناس حتى كان آخر العائدين وجعل يخفق برأسه غير مكترث وهو يفكر طويلاً. ونبهه أصحابه إلى أن أهل الشام يتبعونه، فالتفت غير مكترث ثم أكبّ يخفق برأسه فنبّه إلى دنوهم مرة أخرى فالتفت غيرَ مكترث ثم جعل يخفق برأسه. فبعث الحجّاج إلى خيله أن دعوه في حرق الله وناره ـ فتركه أهل الشام ورجعوا. ويبعد أن تكون المعركة قد وقعت قبل منتصف سنة ٧٧ هـ، على أنه ليس لدينا تاريخ محدد.

وخاض شبيب معركة أخرى في الأنبار، ثم انسحب في بقية فرسانه ـ لأن كثيراً منهم كانوا قد تخلوا عنه وتركوه ـ إلى أرض جوخى، ولكن المقام لم يستقر به طويلاً هناك، فقرر الذهاب إلى كرمان حيث كان الأزارقة لا يزالون أقوياء هناك. وكان قد عبر دجيل عند الأهواز لما أن أقبل أهل الشام بقيادة سفيان بن الأبرد فعبر شبيب إلى سفيان[١] لمقاتلته. فاضطرب القتال بين أهل الشام وبين الخوارج واستطاع أهل الشام أن يصمدوا لاندفاع شبيب، فعاد شبيب إلى المكان الذي كان فيه بعد أن كرّ عليهم أكثر من ثلاثين كرّة، وزحف أهل الشام إلى شبيب وأصحابه زحفاً،

---

(١) في رواية أبي مخنف أنه كان قد وصل إلى كرمان وانجبر واستراش.

فلما انتهى شبيب إلى الجسر نزل ونزل معه نحو من مائة رجل واستحدّ القتال مرة أخرى ثم عاد شبيب وأصحابه وتخلّف في آخرهم فأقبل على فرسه وكانت بين يديه فرس أنثى ماذيانة فنزا فرسه عليها وهو على الجسر فاضطربت الماذيانة ونزل حافر رجل فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء. ولم يستطع ـ لثقل سلاحه ـ أن يسبح وينجو، فارتمس في الماء ثم ارتفع فقال: «ذلك تقدير العزيز العليم!» ولعل ذلك كان لا يزال في سنة ٧٧ هـ حوالي نهاية العام. وقد أثارت جثته عجب أهل الشام لأنه كان قوياً محكم الأَسْر كأنه صخرة. وكانت أمه لا تزال في قيد الحياة، وأمه كانت أسيرة رومية. وكان شبيب ينعي لأمه فيقال: قتل ـ فلا تقبل، فقيل لها إنه غرق، فقبلت وقالت إني حين ولدته رأيت أنه خرج مني شهاب نار فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء[١]. وكان هلاك شبيب في تيار نهر دجيل مناسباً لحاله، فبقيت ذكراه حية في الأجيال التالية[٢].

---

(١) مستند هذا الحلم إلى اشتقاق (فاسد) لاسم «شبيب» من الفعل «شب». وذكر اليعقوبي (جـ ٣ ص ٣٢٨) أن اسم أمه: جهيزة.

(٢) حتى أن ثيوفانس (أخبار سنة ٦٩٦) سمع به: ظهر شبيب في خراسان وكاد أن يجعل الحجاج يغرق في نهر ـ. «كاد»!

وهناك دلائل تشير إلى أن مصرع شبيب لم يكن فقط بسبب تفوق أعدائه، بل وأيضاً لمنازعات ومنافسات خائنة قامت بين أنصاره. ففي رواية عمر بن شبة التي أوردها الطبري (جـ ٢ ص ٩٦٧) ذكر أنه حدث في الساعات الحرجة في معركة السَّبخَة (أمام الكوفة) أن تناول مصقلة بن مهلهل الضَّبِّي لجام شبيب وقال له: ما تقول في صالح بن مسرح، وبما تشهد عليه؟ فقال شبيب: أعلى هذه الحال وفي هذه الحزة والحجاج ينظر؟! وتبرأ شبيب من صالح. فقال مصقلة: «برئ الله منك!» وفارقه هو وجماعة من أنصاره إلا أربعين فارساً، هم أشدّ أصحابه ـ وانحاز الآخرون إلى دار الرزق. فكان هذا الخلاف وشبهه ميسراً للحجاج أن ينال النصر على شبيب.

وثمت رواية أخرى أضافها أبو مخنف نفسه إلى روايته الأصلية (الطبري جـ ٢ ص ٩٧٥ وما يليها) تدل على أنه كان هناك خيانة في الحرب التي أدت إلى كارثة نهر دجيل: إن شبيباً لم يعبر الجسر سليماً لأن بعض أنصاره قطعوا الحبال[1]. وهذه الرواية أقرب إلى التصديق من تلك الرواية

---

(١) في رواية اليعقوبي: (جـ ٢ ص ٣٢٨) أن الذين قطعوا الحبال هم أهل الشام، إذ كان من الضروري أن ينتصروا. على أنّ رواية اليعقوبي لا تثبت أمام رواية أبي محنف.

الأسطورية الأخرى التي تزعم أن الفرس نفر لأنه كانت أمامه فرس أنثى فنزا عليها، وكان بين الجماعة التي يقودها نفر لم يكونوا له مخلصين تمام الإخلاص وهو أمر من السهل أن يوجد في قوم لا لواء لهم يعترفون به غير الله تعالى. أخذ هؤلاء عليه أنه كان يستثني قومه من أن يطبِّق عليهم ما يأمره به دين الخوارج من قتل من كان على غير رأيهم، أقارب كانوا أو غير أقارب، وكانوا متحمسين في تطبيق هذا المبدأ. ولاموه كذلك على أنه كان يقبل الاعتراف بالتقيّة (أي من يقرّ ـ خوفاً لا عن إيمان ـ بأنه يؤمن بمذهب الخوارج)، وأنه كان يطلق سراح الأسرى بمجرد قولهم: «لا حكم إلا لله!» أو يردد عليهم هذا القول: «لا حكمَ إلا لله!» ليخلِّصهم (الطبري جـ ٢ ص ٩٦٧ ـ ص ٩٦٨). أما أن رأفته كانت في الوقت نفسه مهارة جعلت كثيراً من أهل الكوفة يفضِّلون ألا يوغلوا في القتال ـ فهذا أمر لم يكن يعنيهم. وعلى الأخصِّ أثار تفوّق شخصيته الحقد والحسد في نفوس البعض من أمثال مصقلة بن مهلهل الضَّبِّي الذي أراد أن يقضي على سلطان الحي (شبيب) بواسطة سلطان الميّت (وهو صالح بن مسرّح) مؤسس الحزب.

لقد برز شبيب على أصحابه بشدة أسره وقوة بدنه

وشجاعته. ولم يكن مجرد مغامر مندفع دائماً. فإن ما يروى عنه من غارات جريئة كان يتحدى بها ـ مثله مثل شمشون ـ الولاة والطغاة ويثير في أنفسهم الفزع ـ نقول إن هذه الغارات لا تلقي ضوءاً إلا على جانب من جوانب شخصيته. فقد كان إلى جانب ذلك كثير الحيطة والفطنة، واسع التدبير والحيلة. لم يكن لديه غير جيش صغير جداً: نواته من قومه بني شيبان، ولا نعلم أنه كان في جيشه أحد من الموالي. وكان عليه أن يقتصد ما استطاع في العدد القليل من الفرسان الذين كانوا معه. لهذا حرص على تزويدهم بخير السلاح والمؤونة، وأن ينالوا حظهم من الراحة والاستجمام، ووجد من المال ما يكفيه في بيوت أموال الحكومة. وعوض عن قلة العدد بسرعة التحرك في أرض كان يُحْسِن اختيارها. فكان يتحرّف عن العدو إذا أراد العدو الهجوم عليه، ويهجم على العدو على غرة منه. وكان في الغالب على اطلاع على عمليات العدو وتحركاته، لأنه كان على تفاهم تام مع نصارى البلاد، الذين رأوا فيه نصيراً ضد المستبدّين بهم، وإذا كان هؤلاء النصارى لم يقفوا إلى جانبه علناً، فقد قدّموا له خدمات جليلة كلما استطاعوا إلى

ذلك سبيلاً[١]. وهكذا كان يتقن الإفادة من ذرائع الحرب الصغيرة. ومع هذا كله لم يكن يطمع في الأموال، بل كان فيه زهد وغرابة لم يكن يعبّر عنهما بالألفاظ. ولا بد أن يكون قد أغضب الكثيرين حينما ترك الذهب الوفير الذي حصل عليه من بيت المال في سامَرا ً يسقط من خُرج دابته في النهر! وفي أحرج ساعات الخطر كان يكشف عن عدم اكتراث عجيب. وبعد هزيمته الأولى كان مطرقاً برأسه بعيد الخاطر عما حوله: أكان يفكر في مقتل زوجه التي كان لا يفصله عنها شيء روحياً ومادياً؟ لعل ذلك كان يشغل ذهنه أكثر من فقدانه المعركة. ولم يبع نفسه للقضية التي عمل من أجلها بيعاً تاماً، فقد كانت نوازعه الإنسانية أقوى من أن تدعه يفعل ذلك. وهذا أمر لا شك

---

(١) لما عسكر في كنيسة البتّ عند نهر حولايا في مواجهة أهل الكوفة، أقبل عليه السكان النصارى وقالوا له: «أصلحك الله! أنت ترحم الضعفاء وأهل الجزية، ويكلّمك من تلى عليه، ويشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم وتكفّ عنهم. وإن هؤلاء القوم (أي أهل الكوفة) جبابرة لا يكلّمون ولا يقبلون العذر. والله لئن بلغهم أنك مقيم في بيعتنا ليقتلنّا إن قضى لك أن ترتحل عنا. فإن رأيت، فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالاً» فقال شبيب: «فإنى أفعل ذلك بكم». ثم خرج فنزل جانب القرية (الطبري جـ ٢ ص ٩٣٤ س ٧ ـ س ١٢).

أنّ المتعصبين من رجال حزبه قد أحسّوا به. فما كان يستثير عطف الآخرين عليه (ومنهم أيضاً أبو مخنف) كان يثير في أولئك المتعصبين الكراهية. وإنه لمن المؤلم حقاً أن يكون قد وضع قوته في خدمة جماعة كهذه. لهذا فإن خاتمته ـ في مثل هذه الظروف ـ تبعث على الرضا. لقد انفجر الشهاب الثاقب في أعلى السماء!

١١ ـ وبعد موت شبيب لم تعد عصابته بذات أهمية. ولكن حركة الخوارج ظلّت قوية في نواحي الموصل بين بني شيبان وسائر آل بكر، وقامت لهم حركات من حين إلى حين. ولم يكن قديسهم أو وليهم هو شبيب، بل سلفه صالح بن مسرِّح، يتعظون بمواعظه المجموعة ويزورون قبره ويحلقون رؤسهم عنده[١]. وعدَّ صالح من الصفرية (الطبري جـ ٢ ص ٨٨٠ س ١٦)، والصفرية لم يكونوا قساة غلاظاً كالأزارقة. ولكن رقتهم لم تكن تدوم إلا بقدر ما يدوم الوفاق بينهم وبين جماعة المسلمين، ثم تأخذ بهم الشدة مأخذها حينما يخرجون ويمتشقون السيوف. فالخلاف إذن بين الصُّفْرِيّة والأزارقة لا يدل على شيء ذي بال في الواقع

---

(١) ابن قتيبة ص ٢٠٩. وكان الخوارج عامة يحرصون على ذكر شهدائهم والاستغفار لهم والبكاء لموتهم (الطبري جـ ٢ ص ٩٠٠ س ٢ ـ س ٤).

العملى. فالصفرية كما توصف أحوالهم في القتال تحت إمرة شبيب كانوا في حقيقة الأمر يمثّلون النموذج التقليدي العام للخوارج. وفي هذه المنطقة من نهر دجلة وجد بعد ذلك فرَق كثيرة من الخوارج خرجت أحياناً للغارات والقتال[١]. وكانت ألوية بعضهم بيضاً، والبعض الآخر سودا أو عمائم (الطبري جـ ٢ ص ١٦٢٤، ١٨٩٨).

وتكاد جميع ثورات الخوارج التي نسمع بها في العصر الأموي المتأخر أن تكون قد خرجت من الموصل ومن آل بكر. ففي عهد يزيد الثاني خرج شوذب (وهو بسطام ـ الطبري جـ ٢ ص ١٣٧٨ س ١٧) ومعه فرسان من بني شيبان ويشكر (الطبري جـ ٢ ص ١٣٧٨ س ١٢، س ١٥) وقد اتخذوا مركز قيادتهم في أرض جوخى، فهزم أهل الكوفة وبنى قيس الحرانين، ولكن تغلّب عليه جيش من الشام. وفي أيام هشام الثاني خرج بهلول بن بشر[٢] من الموصل

---

(١) الطبري جـ ص ١٨٩٧ وما يليها. وإلى جانب الصفرية (جـ ٢ ص ١٩٠٠ س ٥، ص ١٩٠١ س ١٠) كان منهم أيضاً بيهسية (جـ ٢ ص ١٨٩٨ س ٢٠).

(٢) كان جندياً عرف باسم كثارة (الطبري جـ ٢ ص ١٦٢٥ س ١٥) وكان يتقاضى من ديوان العطاء سدس درهم في اليوم. أرسل في شراء خل فجاءه بنبيذ، ولم يستطع أن يحمل البائع على أن يبدله كما لم يستطع =

ضد خالد القسري والي العراق وحاصر جيوشه مرّتين، ولكنه هزم في معركة الكحيل قرب الموصل. وفي نفس الوقت تقريباً هجم الصحارى بن شبيب المشهور، في ثلاثين رجلاً من آل بكر في جبّل[1] على أرض لخالد، لكن لم يفلح، وهرب عبر نهر دجيل وقتل عند مناذر. وهذه الأحداث الثلاثة رواها أبو عبيدة ونقلها عنه الطبري جـ ٢ ص ١٣٤٨ وما يليها، ص ١٣٧٥ وما يليها، ص ١٦٢٢ وما يليها، ص ١٦٣٣ وما يليها.

ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوباً آخر يختلف تماماً عما مضى، لما أن بدأت الدولة الأموية تتداعى، إذ انقلبت تلك الحركة إلى ثورة شاملة. ونظرة إلى أعدادهم الآن تكشف لنا الفارق: فبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم، أصبحوا يقاتلون الآن بجماهير قوية. ـ بعد اغتيال الوليد الثاني ثار سعيد بن بحدل الشيباني في العراق وزحف بمن معه، وقضى في طريقه على منافس اعترضه من بني ربيعة، ثم توجه قاصداً الكوفة. لكنه مات

= أنْ ينال من الموظف الذي شكا إليه جواباً عن شكايته، فكان ذلك مدعاة لإثارة حفيظته، فكون عصابة، وبدأ بقتل ذلك الموظف.

(١) جبل هي جمبل القديمة في سهلة الدجلة (راجع: Delitzsch Paradies, 240 ويرد ذكرها كثيراً، مثلاً في الأخبار عن فتنة الزنج.

بالطاعون أثناء الطريق، فخلفه الضحّاك بن قيس الشيباني (جـ ٢ ص ١٩٠٠ س ٤) الذي انضوى تحت لوائه عدة آلاف، وانضم إليه صفرية[1] شهرزور الذين حرصوا مع ذلك أن يكون لهم إمامهم الخاص في الصلاة. ووجد في هذا الجيش كثير من النسوة اتخذت أسلحة الرجال وقاتلن قتالاً مجيداً. وكان النزاع قائماً منذ أربعة أشهر في الكوفة بين الوالي القديم، وهو ابن عمر الثاني، وبين الوالي الجديد ابن الحَرَشي، الذي عينه الخليفة مروان. لكنهما اتفقا على الخوارج، وهزمهما الخوارج في رجب سنة ١٢٧ هـ (إبريل سنة ٦٥٧ م) واضطر إلى التخلِّي عن الكوفة. ورجع ابن الحرشي إلى الشام، أما ابن عمر فمضى إلى مدينة واسط الحصينة، وهناك لحق به الضحاك بن قيس في شعبان ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) وحاصره. وبرّز في قتال الخوارج منصور بن جمهور الكلبي، لكنه كان أول من انضم إلى الخوارج؛ وامتحنوا إيمانه وأخذ على نفسه أن يتبع تعاليم الإسلام ويطيع ما أمر به الله. وجاء ابن عمر، بعد

---

(١) هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا قد استولوا على أرمينية وآذربيجان، ونازعوا مروان السلطان. هكذا يروى البلاذري ص ٢٠٩، ولم يرد عن هذا شيء في الطبري وابن الأثير. قارن ڤيل Weil جـ ض ص ٥٩٠.

تردّد، فبايع الضحاك بن قيس في نهاية شوال سنة ١٢٧ هـ (أوائل أغسطس سنة ٧٤٥ م). قرشيّ إذن من الأسرة الحاكمة يصلّي وراء خارجي من بكر بن وائل! ولم يكن الوحيد، بل تبعه أموي آخر كما سنرى. فليس بعجب أن يدهش شاعر، أورد لنا الطبري شعره (جـ ٢ ص ١٩١٣) من تغيّر الأزمان. ولم يخجل ابن عمر بعد ذلك من أن يبقى والياً على واسط من قِبَل الضحّاك وأن يدير النصف الشرقي من دولته. أما الضحاك فعاد إلى الجوفة ابتغاء أن يدير النصف الغربي من دولته من هناك. ولكن الأحداث دعته للتوجّه إلى الموصل، فترك الكوفة في ذي القعدة سنة ١٢٧ قاصداً إلى هناك. أو هذا ما يقوله على الأقل أبو عبيدة الذي أخذنا عنه جوهر كلامنا عن خروج الضحاك في سنة ١٢٧ هـ (الطبري جـ ٢ ص ١٩٠٠ وما يليها، ص ١٩٠٤ وما يليها، ص ١٩١٣ وما يليها). ولكن تاريخ زحف الضحاك بشهر ذي القعدة سنة ١٢٧ (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٤ س ١٦) يدعو إلى مزيد من التفكير. إذ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداث أخرى (ص ١٩١٣ س ١٣) منها أن مروان قد فرغ من أمر حمص والشام في ذي القعدة سنة ١٢٧ وأنه أصبح بذلك طلق اليد أن يتولى

أمر الضحاك، وهذا خطأ أسبق من الواقع بسنة تقريباً. فتبعاً لما يقوله الطبري في جـ ٢ ص ١٩٣٨ س ١٩ لم يرجع الضحاك في نفس السنة التي خرج فيها (أي سنة ١٢٧ هـ) إلى بلاده (الموصل) بل كان ذلك بعد أن تغيّب عنها عشرين شهراً.

أما الأحداث الأخرى فالراوية الرئيسي لها في الطبري ص ١٩٣٨ وما يليها هو عبد الوهاب (عن أبي هاشم). دعا أهل الموصل الضحاك فأقبل وطرد عامل الخليفة. وجرى له الأمر على ما يرام، لأنه كان يدفع عطاءاً كبيراً جدا للجند، جتى ليقال إن جيشه بلغ ١٢٠٠٠٠ (مائة وعشرين ألف) مقاتل[١]. بل لقد انضم إليه ابن الخليفة المتوفى هشام، وأعني به القائد المغامر الذي لا يهدأ سليمان بن هشام، وكان معه جيش من أربعة آلاف. وكان مروان لا يزال في سوريا يحاصر حمص، فكلّف ابنه عبد الله ـ وكان مروان قد تركه في حرّان ـ بأن يمنع الضحّاك من الزحف من الموصل. فأقبل عبد الله إلى نصيبين، إذ كان عليه أن يتوقف ويتحصّن في هذه المدينة بعد أن هزم في التحام مع الضحّاك. فحاصره الضحاك

(١) يستند هذا العدد طبعاً إلى تقديرات شعبية، لكن ثيوفانس أيضاً في أخبار سنة ٦٢٣٧ يقول إن الضحّاك كان معه قوة عظيمة جداً μετὰ πλείης δυνάμεως.

هناك، وبعث فصيلة للاستيلاء على حصن الرقة على الفرات فباءت بالإخفاق. وفي تلك الأثناء كان مروان قد فتح حمص عنوةً وأقبل بنفسه إلى الرقة لمواجهة الضحّاك. فالتقى الجمعان في كفر توته، وعرّض الضحّاك نفسه دون تحوّط في منازلة أولية فسقط قتيلاً. وخلفه الخبيرى فجدّد القتال بعد فترة قصيرة وتقدّم حتى بلغ معسكر العدوّ، لكن تكاثر عليه القوم وقتله العبيد في المعسكر بالهراوات. وكان ذلك في سنة ١٢٨، ولعله نحو نهاية العام. وأقوال أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٩١٣ وما يليها، ص ١٩٣٨، ص ١٩٤٠) في هذا موجزة، ولكن ما أورده ثيوفانس (عن سنة ٦٢٣٦ وما يليها) يتفق مع رواية عبد الوهاب في الأمور الجوهرية. فهو يقول إن الضحّاك خرج في سنة ١٢٧ في العراق، وفي السنة التالية ظهر بقوة جبارة فيما بين النهرين. فبعث إليه مروان أولاً بابنه، وبعد أن استولى على حمص بعد حصار دام أربعة أشهر توجه بنفسه إلى ما بين النهرين وقتل الثائر (أي الضحّاك).

وكان لا يزال مع الخوارج أربعة آلاف مقاتل، فولّوا خليفة عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري (أبا دلف). وبناء على مشورة سليمان بن هشام عاد بهم شيبان إلى الشاطئ

الشرقي من نهر دجلة في مواجهة الموصل، وكانت المدينة في حوزتهم ويصلهم بها جسر سفن. فعسكر مروان في مواجهتهم على الشاطئ الأيمن، وقضى شهوراً طوالاً (في سنة ١٢٩ هـ) دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة. لكن لما أن استطاع قائده ابن هبيرة أن ينتزع الكوفة من سلطان الخوارج[١]، كتب إليه ليرسل له جيشاً لمساعدته. ولما لم يستطع الخوارج أن يهزموا هذا الجيش تخلوا عن مراكزهم ـ وكان ذلك بمشورة سليمان أيضاً ـ في الموصل حتى لا يقعوا بين نارين ومضوا إلى الأهواز وفارس مارّين بحلوان، وهناك انضموا إلى ابن معاوية الجعفري (الطبري جـ ٢ ص ١٩٧٧). بيد أن العدوّ طاردهم إلى هناك، فتفرقوا. أما سليمان فمضى ومن معه فعبر البحر إلى السند. وأما شيبان فمضى إلى الساحل الشرقي لبلاد العرب، وقتل أثناء قتاله مع أمير عمان من بني جُلندي، وهم أسرة جاهلية قديمة، وكان ذلك في سنة ١٣٤ هجرية[٢].

---

(١) كان ذلك في رواية أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٦) في رمضان سنة ١٢٩ هـ، ولكن لعل هذا التاريخ متأخر عن الواقع نوعاً ما.

(٢) كذا في الطبري جـ ٣ ص ٧٨، قارن الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٥ (عبد الوهاب)، ص ١٩٤٩ (أبو عبيدة)، ص ١٩٧٩ (المدائني). ويقول أبو مخنف (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٨) إن شيبان بن عبد العزيز =

١٢ ـ وهذه الثورة الكبرى قد قرّبت الخوارج من السلطان في ظروف مواتية تماماً أكثر من أية ثورة لهم سابقة. ولكنهم سمحوا هذه المرة بدخول عناصر أجنبية أو التحالف مع فرق أخرى، تمشياً مع المبدأ القائل: من ليس ضدّنا فهو معنا. ولكن هذا مبدأ سياسي، ولا يتفق مع مذهب الخوارج. وثمت حركة أخرى متأخرة كانت آخر حركات الخوارج في العصر الأموي، وكانت أقل أهمية من الناحية السياسية ولكن أقرب إلى مذهب الخوارج، وقد جرت في بلاد العرب. والذي رواها في الطبري رواية خاص غير معروف بغير هذه الرواية، وهو هارون بن موسى الذي نجده كذلك في فصل طويل في «الأغاني» (جـ ٢٠ ص ٩٦ وما يليها) وإلى جانبه المدائني برواية أكثر تفصيلاً[١].

= كان قد قتل في سنة ١٣٠ هـ في سجستان. ولعله خلط بينه وبين شيبان بن سلمة الحروري الذي قام في ذلك الوقت بحركة في خراسان وقتل في الواقع سنة ١٣٠ هـ، لا في سجستان ولكن في سرخس.

(١) ترد نسبة هارون في الطبري جـ ١ ص ١٩٤٢ س ١٤، ص ١٩٨١ س ١٢، والأغاني جـ ٢٠ ص ٩٨ س ٢٩ بصورة مختلفة في كل مرة. وعنه نقل الأغاني جـ ٢٠ ص ٩٨ س ٢٩ ـ ص ١٠٠ س ٢٣ = الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٢ وما يليها، ص ١٩٨١ وما يليها، ص ٢٠٠٦ وما يليها، والأغاني جـ ٢٠ ص ١٠٣ س ٢١ ـ ص ١٠٥ س ٢ = الطبري ص ٢٠٠٨ ـ ص ٢٠١١. وخاتمة روايته لا يوردها غير الطبري جـ ٢ ص ٢٠١٢ وما يليها، أما في «الأغاني» فلا يرد إلا بضع شذرات برواية =

وبذر إباضية البصرة بذورهم في جنوب الجزيرة العربية[١]، وكان عبد الله بن يحيى في حضرموت على صلة وثيقة بهم، وهو كندي من بني شيطان، أراد أن ينتقض على جور الحكّام. وشجعه المقيمون بالبصرة على الخروج

= مختلفة في موضوع آخر. ولكن «الأغاني» ص ١٠٥ ـ ص ١٠٨ يتوسع في إيراد مواعظ الخوارج التي يلذ لهارون ذكرها، أكثر مما يفعل الطبري. ولهذا فلا يمكن أن يكون مؤلف «الأغاني» ـ كما قد يخيل إلى المرء مما ورد فيه بصفحات ٩٨ س ٢٩، ص ١٠٣ س ٢١ ـ قد نقل روايات هارون عن الطبري. على أن ذلك غير ممكن لأسباب أخرى إذ صاحب «الأغاني» يتابع تسلسل الرواية، التي غالباً ما يقطعها الطبري ثم يستأنفها بعد ذلك، بينما صاحب الأغاني يأتي بالتسلسل كاملاً دون الثغرات التي نراها في رواية الطبري، كما أنه يصور الجو من حين إلى حين على نحو أوضح وأوسع، كما يظهر خصوصاً من مقارنة «الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٩ س ١٩ وما يليه بالطبري جـ ٢ ص ١٩٨٢ س ١٠. وكان من الممكن إصلاح بعض الأخطاء وإكمال الناقص في طبعة ليدن لكتاب الطبري بمراجعة المواضع المناظرة في الأغاني. ـ وعن المدائن نقل «الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٧ س ١ ـ ص ٩٨ س ٢، ص ١٠٠ س ٢٤ ص ١٠٣ س ٢٠، ص ١٠٨ س ٨ ـ ص ١١٤ س ١٥. وثمة اختلافات في الرواية وردت في أخبار القسم الأخير وهذه الاختلافات مأخوذة عن هارون (ص ١٠٦، ص ١١٠). ووردت في الطبري روايتان موجزتان نقلاً عن الواقدي، راجع الطبري ص ٢٠٠٨، ص ٢٠١٢.

(١) علمتهم التجربة أن يستغلوا موسم الحج في مكة لنشر مبادئهم (الطبري جـ ٢ ص ١٩٤٢). وقد حدث من قبل في سنة ١٠٧ هجرية أن خرج عباد الرعيني باليمن محكماً (الطبري جـ ٢ ص ١٤٨٧) أي داعياً بدعوة الخوارج.

وأقبل إليه من هناك أعضاء بارزون في حزب الإباضيَّة، من بينهم بلج بن عقبة بن الهيصم الأسدي[١] وأبو حمزة المختار بن عوف الأزدي. وكان هذا الأخير اليد اليمنى لعبد الله وكان في الواقع أهمَّ من عبد الله. وفي بداية سنة ١٢٩ بويع عبد الله خليفة للخوارج ولقِّب بـ «طالب الحق»، بينما لقّبه خصومه بـ «الأعور»، ولعل ذلك لأن هذه علامة «الدجّال» وهم كانوا ينظرون إليه على أنه كذلك («الأغاني» جـ ٢٠ ص ١٠٨ س ٢٤). استولى على حضرموت، ثم زحف على اليمن فانتصر على والي اليمن[٢] وتوقف بحملته في العاصمة صنعاء، وذلك في النصف الثاني من سنة ١٢٩ هـ («الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٧ س ٢١، ص ٩٨ س ٢٤). فأقام حكمه هناك وأبقى على الموظفين السابقين، وأظهر لين الجانب فاستطاع أن يمتلك قلوب أهل اليمن. وأكد أنه لا اختلاف بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السنة والجماعة في الجوهر، ولكنه اشتد على

---

(١) هكذا يسمّى في الطبري ص ٢٠١٢ س ١٠، ولكن نسبه يرد بخلاف ذلك في «الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٧ س ١٤، وكذلك نسبته (وقد وردت محرفة هناك).

(٢) من بني عقيل، وهي أسرة ارتفع شأنها بفضل الحجاج، وكانت تحكم اليمن منذ خمسين سنة.

مرتكبي الذنوب التي نصّ عليها القرآن، وكان ارتكابها شائعاً في ذلك الحين. وقد انضم إليه كثير من الخوارج جاؤوه من مختلف الأصقاع. وعند نهاية سنة ١٢٩ لما كان موسم الحجّ بعث جيشاً إلى مكة بقيادة أبي حمزة الخارجي، يتألف من ألف رجل تقريباً على رؤوسهم عمائم سود وحمر[١]. وكان الذي يحج بالناس في ذلك العام هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك الأموي، والي المدينة، فلم يتعرض لأبي حمزة بل عقد هدنة معه طوال أيام الحج ثم عاد إلى المدينة. ومن المدينة أرسل جيشاً ضد أبي حمزة تحت إمرة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان الأموي[٢]. وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل كانوا كالدهماء ليس عليهم سيماء المقاتلين الحقيقيين، وكان فيهم كثير من بني قريش، يلبسون فاخر الثياب، وقد ظنوا أن الأمر

---

(١) «الأغاني» جـ ٢٠ ص ٩٩ س ٨، ص ١١٢ س ٣١. والواقدي ـ كما نقله الطبري ص ٣٠٠٨ ـ يقتصر على العدد أربعمائة.

(٢) هكذا ذكره هارون («الأغاني» ص ١٠٠ س ٦) والواقدي (الطبري ص ٢٠٠٩ س ٢). أما المدائني («الأغاني» ص ١٠ س ٢٥) فيذكره باسم عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، ولكنه هو نفسه يقول بعد ذلك (ص ١٠١ س ١٤) إنه من نسل الخليفة عثمان. فكأن أخطأ إذن، اللهم إلا أن يكون الخطأ من أحد النساخ. على أنه لعله قد أخطأ أيضا حينما جعل عبد الواحد والياً على مكة، وعبد العزيز والياً على المدينة.

لا يعدو أنْ يكون مجرد نزهة حربية، خصوصاً الأمويون ـ وكان لا يزال بالمدينة منهم عدد كبير ـ وكانوا متكبرين متعجرفين في حديثهم عن هذه الخشارة من الرعاع، فهكذا كانوا يتصورون الخوارج. زحف أبو حمزة ضد جيش أهل المدينة، والتقى الجمعان في قديد يوم الخميس التاسع من صفر سنة ١٣٠ هـ[١]. وحاول أولاً إقناعهم بالحسنى أن قضية الخوارج هي بعينها قضية أهل المدينة وهي مقاومة حكومة بني أمية، ولم يشأ أن يبدأ القتال إلاَّ بعد أن هاجمه جيش العدوِّ وجرحوا برمية سهم أحد رجاله، فتبيّن له حينئذ أن إراقة دمائهم حلال. فوثب على جيش المدينة وثبة نكراء اضطرت هذا الجيش إلى الفرار، ولكنه منع من مطاردته. أما القرشيُّون ـ وهم يمثلون الحكومة الكافرة (حكومة بني أمية) ـ فلم يراع معهم أي اعتبار. وامتلأ ميدان المعركة بجثث قتلاهم ومن بينهم قائدهم عبد العزيز، والأسرى الذين رفضوا التنصُّل من مذهبهم كان جزاؤهم القتل. ومن هنا كانت الضجة حول معركة

---

(١) يوم الخميس ١٩ اكتوبر سنة ٧٤٧. وتتراوح الروايات بين السابع والتاسع من صفر (الأغاني جـ ٢٠ ص ١٠١ س ١٦، الطبري جـ ٢ ص ٢٠٠٩ س ١)، وكونه يوم الخميس يجعل الرقم ٩ هو الأصح، وهو رقم عادة يخلط بينه وبين الرقم ٧.

قَدِيد، ولذلك سرّ الناس أن كانت المذبحة في السادة المتكبرين، الذين كانوا دائما يتركون لغيرهم التقاط القسطل لهم من النار. ومن ثمَّ أصبح الطريق إلى المدينة مفتوحاً أمام أبي حمزة؛ فدخلها في ١٣ صفر (٢٣ اكتوبر سنة ٧٤٧) دون أي قتال بعد أن خلاها الوالي عبد الواحد بن سليمان[١].

ظل أبو حمزة قرابة ثلاثة أشهر في المدينة. لقد كان محارباً ممتازاً، لكنه كان بطبعه كاتباً وخطيباً واعظاً. ولا بد أن تكون خطبه التي ألقاها على منبر الرسول في المدينة قد جمعت[٢]، ونقل عنها هارون في روايته طائفة كبيرة

---

(١) التاريخ في الطبري جـ ٢ ص ٢٠١٢ س ٤. والمدائني يذكر في المقدمة دائما يلج الأسدي، ويخيل إلى القارئ من كلامه (الأغاني ص ١٠٢ س ١٤) أن أبا حمزة قد عاد بعد معركة قديد إلى مكة، ولكنه يذكر بعد ذلك (ص ١٠٨ س ٦ وما يليه) أنه كان في المدينة. وإلى جانب بلج الأسدي يذكر من القواد في جيش أبي حمزة أشخاص آخرون منهم أبرهة بن الصباح الكندي وابن حصين من نسل الأمراء الحارثية. ومن هذا يظهر أن يمانيين بارزين اشتركوا في الثورة، وليس فقط جماعة من فقراء العامة، كما يقال عادة.

(٢) جمعها ابن فضالة النحوي (الأغاني جـ ٢٠ ص ١٠٥ س ٢٧). وقد عنى النحاة أيضا بجمع خطب زياد والحجاج. وقد أشرنا من قبل إلى مجموعة خطب صالح بن المسرح، ولم يقتصر الأمر على الخوارج، بل إن الشيعة أيضاً قد اهتموا بهذا اللون من الأدب. فكانوا يعيدون خطب زعمائهم حتى يحفظوها عن ظهر قلب، وكانوا مع الزمن يكتبونها (الطبري جـ ٢ ص ٥٠٠ س ١، ص ٥٠٨ س ١٣). ثم جاء أهل اللغة بعد ذلك فنقحوها.

بعضها طويل. وفيها يصوّر بالأمثلة الصارخة مدى البعد بين حكومة عصره وبين نموذج الحكم كما رسمه الرسول والخليفتان الأول والثاني (أبو بكر وعمر). وكان يهدف إلى إفهام أهل المدينة أن ماضيهم كلّه يقضي عليهم بأن يكونوا على وفاق مع الخوارج في محاربة بني أميّة، ولكن أهل المدينة لم يستخلصوا النتيجة العملية لذلك ولم يساعدوا على إسقاط الحكومة الجائرة. وراح يقارنهم بآبائه الذين تقبلوا الرسول وآووه ونصروه مع أن الناس كلهم كانوا أعداءه ولم يكن معه إلاّ قلّة من الشباب والمغمورين. وما يقولونه الآن ضد الخوارج كان أهل مكة يعيرون به الرسول. وهذه الكلمات كانت تستهوي نفوس السامعين. ولكنّ أبا حمزة لم يرفع عَلَم الإسلام وحده في ميدان المعركة ضد حكومة بني أمية، بل طالب أيضاً كل فرد بأن يرعى الأوامر والنواحي الدينية الأخلاقية: فمن زعم أن الله يكلفنا ما لا طاقة لنا به فهو عدوّ الله وعدونا. وتشدد خصوصاً في أمر الزّنا وشرب الخمر، وكان يعجب بعمر بن الخطاب لأنه وقّع حدّ الخمر في ثمانى عشرة حالة دون اعتبار لشخص الشارب. وهذا أمر لم يكن يستهوى أهل المدينة لأن المدينة كانت قد اشتهرت في ذلك العهد

بأنها أشدّ بلاد الإسلام إغراقاً في اللهو والمجون. وعلى الرغم من اعترافهم بأن أبا حمزة يحكم بالعدل ويريد الخير للناس، فقد كانت الأغلبية معرضة عنه. ولكنه كسب لنفسه بعض الأنصار، الذين لم يقتصروا على المساكين والفقراء من أمثال عبد العزيز بشكست النحوي القارئ، وهو إيراني المولد، بل كان فيهم أمثال أبي بكر بن محمد حفيد عبد الله بن عمر وابن حفيد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني (الطبري جـ ٢ ص ٢٠١٢ س ٩).

وكان لا بدّ ـ من أجل القضاء على هذه الفتنة ـ من الالتجاء إلى أهل الشام مرة أخرى. ففي مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ زحف من أهل الشام جيش يبلغ أربعة آلاف، معظمهم من القيسية، متوجهاً إلى المدينة، وهم بقيادة عبد الملك بن عطيّة من بني سعد هوازان[١]. وكما حدث في مناسبة مماثلة أيام يزيد الأول دُفع لهم تعويض مناسب بمثابة كفارة عمّا ينتظرهم من انتهاك حرمة الأماكن المقدسة، فيقال إنّ كلا منهم أعطى مائة دينار ذهبي وفرساً عربية وبغلاً لحمل الأمتعة. وانتظرهم الخوارج في وادي

---

(١) راجع فيما يتعلق بما يلي «الأغاني» جـ ١١ ص ٨٣ وما يليها أيضاً. وهنا يذكر اسم عبد الملك كاملاً، وكان عطية أبا جده.

القرى، فهزم الخوارج وقتل معظمهم وذلك في أواسط جمادى الأولى سنة ١٣٠ (٢١ يناير سنة ٧٤٨). ونجا أبو حمزة ومعه ثلاثون رجلاً وهرب إلى مكة[١]. فلما بلغ ابن عطية المدينة، وجدها نظيفة من الخوارج، فالبقية القليلة منهم الذين ظلوا فيها (بقيادة المفضّل) قد قضى عليها أهل المدينة وقتلوا منهم أيضاً بشكست البرئ الأعزل لما علموا بنتيجة المعركة، وذلك في يوم الاثنين التالي (الأغاني جـ ٢٠ ص ١٠٩ س ١٠). أما أبو حمزة فقام يدافع في مكة مرة أخرى. ولكنه لم يشأ أن يتخذ إجراءات شديدة لحماية نفسه من غدر أهل مكة، ولهذا كانت مقاومته عبثاً. فانتصر ابن عطية مرة أخرى وأمر بقتل الأسرى وصلب زعماء الخوارج (ومن بينهم أبو حمزة). وبعد أن أقام مدة طويلة في الطائف هجم على خليفة الخوارج طالب الحق نفسه فهزمه وقتله واستولى على عاصمته صنعاء بعد حصار لم يستمرّ طويلاً، واستولى كذلك على حضرموت[٢]،

---

(١) حاولت هنا أن أنسق بين روايتي هارون والمدائني وبينهما خلافات. والمدائني يبرز هنا اسم بلج، وقد قتل بلج في معركة وادى القرى.

(٢) أورد «الأغاني» (جـ ٢٠ ص ١١١ وما يليها) مرثية طويلة تنعى من قتل من رؤساء الإباضية مع ذكر أسمائهم. كما أورد أشعاراً قالتها مريم، زوج أبي حمزة الخارجي، وهي تواجه الموت في القتال (ص ١٠٩ =

وحوالي نهاية سنة ١٣٠ هـ أراد الرجوع إلى مكة بأسرع ما يستطيع، ومعه قليل من أصحابه، لأن الخليفة أسند إليه أمر الحجّ بالناس. وفي أثناء الطريق فاجأه رجلان من بني مراد، هما ابنا جمانة، حسباه لصّاً فقتلاه.

وهكذا تعرفنا في ختام هذا البحث إلى طائفة من الخوارج (الإباضية) ألين عريكةً، لم يكن هدفهم ـ مع طهارتهم وشدة تمسكهم بالدين ـ أن ينتصروا على جماعة المسلمين بالقوة، بل أن يكسبوهم لمذهبهم. وكان زوالهم يتبع زوال دولة بني أميّة حذو النعل بالنعل.

= ٢٧ وما يليه (وأشعارا هجائية عن مصرع بشكست السيء الحظ (ص ١١٠ س ٢٠ وما يليه). أما أشعار الانتصار التي قالها أبو صخر (ص ١٠٨ س ٢٠ وما يليه، ص ١١١ س ٥ وما يليه) فغير موجودة في ديوان الهذليين.

ـ ٢ ـ

الشيعة

ـ ١ ـ

بمقتل عثمان انقسم الإسلام إلى حزبيْن: حزب عليّ، وحزب معاوية. والحزب يطلق عليه في العربية أيضاً اسم «الشيعة»، فكانت شيعة عليٍّ في مقابل شيعة معاوية. لكن لما تولى معاوية الملك في دولة الإسلام كلها ولم يعد مجرد رئيس حزب، أصبح استعمال اللفظ «شيعة» مقصوراً على أتباع عليّ، ودخل في هذا الاستعمال أيضاً تعارضهم مع الخوارج. ولم يكن اتخاذهم علياً زعيماً بسبب أنه ابن عم الرسول وصهره وأبو أحفاده، إذ إنّ حق الأقربين في وراثة الرياسة ـ وكأنها ملك خاص ـ لم يكن معترفاً به عند العرب، وبالأولى لم يعترف به الإسلام. وإنما اختاروه لأنه بدا لهم أفضل صحابة الرسول الأقدمين، ومن هؤلاء كان الخليفة يختار حتى ذلك الحين، وكانوا له، كعهدهم مع النبي، بمثابة هيئة مستشاريه، كما كانوا إلى حد كبير مناط استمرار الحكومة الدينية عند تبدُّل الأشخاص الذين في المنصب الأعلى. فكان عليٌّ إذن ممثلاً في الأصل لهذه الطبقة الإسلامية التي نالت الرفعة بما لها من فضل ولحقِّها

التقليدي في الخلافة الذي كان يهدده السلطان الفعلي للعمال الأمويين الذين عينهم عثمان، والأمويون أسرة عريقة النسب ذات تقاليد جاهلية وثنية. ولم يكد عليٌّ يتولى الخلافة حتى انقلب عليه العضوان الباقيان من هذه الأرستقراطية الروحية، وكانا حتى ذلك الوقت يؤازرانه ويقدِّمانه، وحوَّلا الغضب من مقتل عثمان ضده وأخذا لأنفسهما الحق في العمل: ولكن الواقع هو أن الكفاح قد قام به جميع الطامعين في الخلافة ولم يكن «الحق» إلا تكأة لإثارة الجماهير وإعطائهم راية يقاتلون حولها. واستطاع عليّ أن يضم أهل العراق إلى صفّه، وقد كانوا أشد سند للَّذين ثاروا على عثمان. فانتقل إلى الكوفة ثم كسب البصرة لجانبه بعد ذلك، وتم له هذا بعد كفاح دموي ضد منافسيه الغادرين.

أما معاوية فكان معه أهل الشام وكان يحكم الشام منذ عهد طويل، فاستحال الكفاح بينه وبين علي إلى كفاح بين أهل الشام وأهل العراق. وانتهى الكفاح بمقتل عليٍّ إلى غير صالح أهل العراق، ولكن هؤلاء لم يندمجوا في وحدة الدولة الإسلامية التي التأمت من جديد بفضل معاوية إلا كارهين مرغمين، وبظواهرهم لا بقلوبهم. ومن ثم أصبح عليٌّ راية كفاحهم ضد نير أهل

الشام، وكانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التي كانت فيها الكوفة، لا دمشق، حاضرة الإسلام وفيها بيت مال المسلمين ـ على أنها المثل الأعلى. فتمكن الشيعة أولاً في العراق، ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كله. فكان جميع سكان العراق، خصوصاً أهل الكوفة، شيعة على تفاوت فيما بينهم، ولم يقتصر هذا على الأفراد بل شمل خصوصاً القبائل ورؤساء القبائل[1]، ولا يلاحظ بينهم إلا درجات في التشيُّع. لقد كان عليٌّ في نظرهم رمزاً لسيادة بلدهم المفقودة. ومن هنا نشأ تمجيد شخصه وآل بيته، تمجيداً لم يرتَحْ له أثناء حياته. على أنه ما لبث أن تكونت في أحضان مذهب سري عبادةٌ حقيقية لشخصه.

وأثبت حجة في تاريخ الشيعة طالما اتصل بالكوفة هو أبو مخنف، والطبري يكاد لا يعتمد على غيره في ذكر أخبارهم، وما أطولها!

بعد أن استتب الأمر لمعاوية في العراق بعث المغيرة بين شعبة الثقفي والياً على الكوفة، وأطلق يده في كل شيء، ولكنه أوصاه بشتم عليّ وذمّه والترحم على عثمان والاستغفار

---

(١) يظهر هذا من الرواية الخاصة بالمستورد ـ مثلاً ـ التي أوردناها من قبل ص ٤٤ وما يليها.

له والعيب على أصحاب عليّ وإقصائهم وترك الاستماع منهم وأن لا يدع ذم علي والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم من فوق المنبر في صلاة الجمعة وأن يرغم بعض أنصار عليّ المتحمسّين ـ وقد ذكر له أسماءهم ـ على شهود هذا اللعن. ومن بين أنصار عليّ حُجْر بن عديّ، وهو من أبرز رجال كندة (وإنْ لم يكن رئيسهم)، شهد المواقع مع عليّ في صِفّين وغيرها. فكان حُجْر إذا سمع ذلك قال: بل إياكم فَذَمَّمَ اللهُ ولعن. فكان المغيرة يحذره، ولكن لا يؤذيه. وفي أواخر أيامه حدث ذات يوم أن قام المغيرة على عادته يذم علياً، فنهض حجر بن عدي «فنعر نعرة بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجاً منه، وقال: إنك لا تدري بمن تولّع في هرمك أيها الإنسان! مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنّك قد حبستها عنّا، وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك. وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين... فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق والله حجر وبرّ. مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنّا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدى علينا شيئاً («الطبري جـ ٢ ص ١١٣). فنزل المغيرة من المنبر وذهب إلى بيته، فدخل عليه قومه من بني ثقيف

وحدثوه في الأمر، فقال لهم المغيرة: «إني قد قتلته! إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي، فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شرّ قتلة. إنه قد اقترب أجلي وضعف عملي ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعزّ في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة» (الطبري جـ ٢ ص ١١٤).

وكان مصير حجر عند خلف المغيرة أشد نكراً، فقد خلفه على الكوفة في سنة ٥١ زياد بن أبيه والي البصرة فجُمِع له المصران: الكوفة والبصرة. وليس فيما يورده أبو مخنف نبأ عن قدومه الأول إلى الكوفة. أما المدائني فيذكر أنه ورد في عدد قليل من الرجال وصعد المنبر وقال فيما قال: إنه وجد الهدوء والنظام يسودان الكوفة وليس بحاجة إلى أن يبدأ عمله بإقرارهما كما فعل في البصرة. فشكر له الحاضرون مدحه بأن رجموه بالحجارة! فاحتل مداخل المسجد ولم يسمح لأحد بالخروج إلا إذا أقسم بأنه لم يرْم حجراً. فأبى عدد قليل منهم أن يقسم فقطع أيديهم. وهذه القصة من الجمال بحيث تمنع من الاستمرار في سردها، إذ يبدو أنها غير حقيقية. أما عوانة ـ فيما نقله الطبري

جـ ٢ ص ١١٤ ـ فيروي غير هذا. فلا يذكر حدوث شيء حينما صعد زياد على منبر الكوفة لأول مرة، وحينما أخذ في ختام خطبته يلعن عليّاً ويقرظ عثمانا، لم يرتفع صوت بالرد عليه[١]. ويرجع زياد هادئاً إلى البصرة وولّى الكوفة عمرو بن الحريث نائباً عنه باستمرار. وإنما تجاسر الشيعة ـ وقد استفحل أمرهم بسبب رفق المغيرة بهم، وعلى رأسهم حجر بن عدي ـ تجاسروا على عمرو أن الحريث وحصبوه بالحجارة أثناء الصلاة. فأسرع زياد قادماً من البصرة إلى الكوفة وصعد المنبر «وعليه قباء سندس ومطرف خزٍّ أخضر قد فرَّق شعره» وأبرز للحاضرين خطورة الموقف وهدد حجراً، وكان حجر جالساً في المسجد حوله أصحابه، فانسحب من المسجد مع أصحابه[٢].

(١) [المترجم: كذا يقول المؤلف، بينما الذي ورد في الطبري في الموضع المشار إليه جـ ٢ ص ١١٤ ـ ص ١١٥ في رواية عوانة نفسه ما قصه: «ثم صعد المنبر (أي زياد)... ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم، وذكر قتلتة ولعنهم، فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة» ـ فلسنا ندري من أين للمؤلف أن يقول إنّ صوتاً لم يرتفع بالرد على زياد!].

(٢) وتبعاً لهذا تكون حركة حجر قد وقعت في السنة التي تولى فيها زياد إمارة الكوفة أيْ سنة ٥١ هـ. بينما الطبري في رواية المدائني (جـ ٢ ص ١٦٢) وايليا النصيبي يذكر أن تلك الحركة وقعت في السنة التي مات فيها زياد، أي سنة ٥٣ هـ.

وعند هذه النقطة يستأنف أبو مخنف ـ في نقل الطبري ـ روايته، فيقول إن زياداً قد اتخذ إجراآته من المسجد، فبدأ بأن وثب بأشراف أهل الكوفة وصاح فيهم: أنتم معي، بينما إخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، فإن لم تظهروا لي براءتكم بالأفعال، فسآتيكم بأهل الشام. وأثر كلامه هذا فيهم، فأسرع كل منهم يبحث عن قريبه، حتى أقاموا جلّ من كان مع حجر بن عديّ في السوق (عند المسجد)، وأقبل الشرطة بالعمد فاشتدّوا على أصحاب حجر، وزياد يشهد هذا وينظر إليهم وهو على المنبر. أما حجر نفسه فقد خلّصه أبو العمرّطة الكندي وكان وحده الذي معه سيف ضرب به أحد الذين طاردوا حجراً، ولكن لم يقتله. فاستطاع حجر أن يبلغ قومه فاجتمع حوله منهم عدد غير قليل. فلما رأى زياد أن الشرطة غير كافية، استدعى كل المحاربين في الكوفة. ولكنه احتفظ بمضر معه في الميدان المواجه للمسجد، وأرسل أهل اليمن[1] ـ وكان

---

(١) من الغريب أنه لم يرد ذكر لربيعة. ومن مضر يذكر: تميم، هوازن، باهلة (أعصر)، أسد، وغطفان. ومن أهل اليمن: (أ) مذحج وهمدان، (ب) والأزد، وبجيلة، وخثعم، والأنصار، وخزاعة وقضاعة، يضاف إليهم أيضاً كندة وحضرموت، ويجب أن لا يخلط بين الأنصار المذكورين من أهل اليمن، وبين الأنصار في المدينة (= أهل العالية، الطبري جـ ٢ ص ١٣٨٢) فهم من المدينة وينتسبون إلى مضر. وفي عهد =

حجر منهم ـ ضد حُجْر حتى لا يقع شغب واختلاف بين مضر وأهل اليمن في هذه المناسبة الحرجة وحتى يخضعهم وذلك بأن يكونوا شرطة ضدّ ابن قبيلتهم وصاحبهم في الرأي ـ لأنهم كانوا بقلوبهم شبعة. ولكنّ كندة وأقرباءهم من حضرموت لم يذعنوا لأمر زياد لأنه كان موجّهاً ضدهم أيضاً أو على الأقل ضد واحد من بني قومهم. كذلك فعل الأزد في الظاهر، وكانوا يعتذرون من بيت إلى بيت لما أن جاءوا حيّ كندة، وتركوا لمذحج وهمدان أن يتقدموا، فتقدموا دون عائق حتى بلغوا بيت حجر، وهنالك قوبلوا بمقاومة: إذ جاء بنو جَبَلة، لما هوجم بيته، وهم بنو

= عمر الأول قسم أهل الكوفة إلى سبعة أقسام، لم يذكر الطبري جـ ١ ص ٢٤٩٥ غير ستة: ١) «كنانة والأحابش، وجديلة، ٢) قضاعة (غسّان بن شبام)، بجيلة، خثعم، كندة، حضرموت، الأزد، ٣) مذحج، حمير، همدان، ٤) تميم والرباب، وهوازن، ٥) أسد، غطفان ومحارب، نمر، ضبيعة (بكر) وتغلب، ٦) إياد، عك، عبد القيس، أهل هجر والحمراء (من الفرس). أما زياد فقد قسم الكوفة إلى أربعة أرباع: ١ ـ أهل المدينة ٢ ـ تميم وهمدان ٣ ـ ربيعة وكندة ٤ ـ مذحج وأسد.

وفي كل ربع من هذه الأرباع اختلطت القبائل والعناصر، فكانت وحدات صناعية (حددتها الأوضاع المكانية؟) متساوية القوى تقريباً لم يكن على رأسها رؤساء قبائل، بل كان على رأسها حكام يعينهم الوالي. وكان أقوى القبائل فيهم قبيلتا مذحج وهمدان المتحالفتان.

قرابة، ودافعوا عنه، كذلك انتصر له حينئذ أولئك الذين لم يكونوا على وفاق معه. ويقال إنه رجاهم أن يغمدوا سلاحهم وأن يتفرقوا. على أن هذا كان سيحدث دون رجائه هذا. واستطاع حجر الفرار، فأمر زياد الشرطة بمطاردته، فتنقل من حيّ إلى حيّ وشارع إلى شارع ومنزل إلى منزل[١]، يقوده أدلاء نجباء خلال هذه المساكن، لأن العطف العام كان في جانبه فوجد ملجأ له حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلوذ بهم، فكان يترك ملجأه كلما اقترب الشرطة منه. وأخيراً وجد الأمن في منزل أحد الأزديين، فقد فَقَدَ الشرطة أثره فتوقفوا عن مطاردتهم غير المثمرة. هنالك ألقى زياد المسئولية كلها على قبيلة كندة وهدّد رئيسها، محمد بن الأشعث، بالعقاب الشديد إنْ لم يسلّم معكّر الأمر (أي حجر) في ظرف ثلاثة أيام. فنهض حجر بنفسه وتقدّم إلى زياد بعد أن أخذ منه وعداً بأنه لن يحكم في أمره، بل سيرسله إلى الخليفة ليتصرف في شأنه. وأقبل على زياد في غداةٍ باردة وعليه

---

(١) كانت القبائل تسكن في أحياء، والبطون في شوارع، والأسر في منازل، وكانت الأحياء تحمل أسماء القبائل (هرب حجر من كندة إلى نخع ومنها إلى الأزد)،والشوارع تحمل أسماء البطون. وهكذا يعطينا تخطيط الكوفة صورة عن أنساب العرب. ولم يكن الأمر في البصرة مختلفاً عن هذا.

برنس، فحبس، وعبثاً حاول أن يحتج على هذه المعاملة، وبقي في السجن خمسة عشر يوما[١]، في أثنائها لم يكن لزياد عمل إلا طلب رؤساء أصحاب حجر فأتى منهم باثني عشر رجلاً تقريباً، وكانوا من قبائل مختلفة، وقد أخبر عنهم أهلهم أو كشفوا بأنفسهم عن أنفسهم. ولكن أحداً منهم لم ينكر تشيّعه لعلي ليخلص من عقاب زياد.

وراح زياد يؤلف صيغة اتهام لحجر وأصحابه بأن حجراً جمع إليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين. وتزاحم رؤوس الأرباع في الكوفة ليوقّعوا بالشهادة على صحّة هذا الاتهام، حتى اضطر إلى رفض كثيرين، إذ كان يكفيه سبعون شاهداً. وقد اعتذر بعضهم فيما بعد عن توقيعه كما أنكر البعض الآخر أنه وقع[٢]، وتنصل القاضي شريح بن هانئ الحارثي من التوقيع [وكان يقول: ما شهدت، ولقد بلغني أن قد كتبت شهادتي]. ثم أعطيت صيغة الاتهام للشرطيين اللذين سيأخذان المسجونين إلى معاوية في الشام. وذات مساء[٣] سار هذا الموكب

---

(١) [المترجم: في الطبري جـ ٢ ص ١٢٧ س ٧: «فحبس عشر ليال»].

(٢) لم يكن التوقيع بأيدي الشهود أو على الأقل بأيدي جميع الشهود.

(٣) غالباً ما تذكر أوقات النهار، دون بيان تواريخ الأيام.

الحزين، ولما انتهوا إلى جبانة عَرْزَم نظر قُبَيْصة بن ضبيعة العبسي إلى داره فإذا بناته مشرفات، فقال للشرطين ايذنا لي فأوصى أهلي، فأذنا له فأوصاهنّ بالصبر. ولم يتقدم أحد لتخليص هؤلاء المساجين، رغم سهولة هذا الأمر، فكان خوف القبائل هذا من سلطان زياد ممثلاً في شرطيين أشد وقعاً عليهم من خطر الموت، فقالوا إن هذا هو نهاية شعبهم. وتوقف الجميع في موضع قبل دمشق يدعى مرج عذراء [وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلاً]، فبقى المسجونون هناك موثقين بالقيود. وتسلم معاوية كتاب اتهامهم فصدّق ما فيه ولم يصدق ما قاله حجر وكلف رسلاً تبليغه لمعاوية. على أنه سأل زياداً عن حقيقة الأمر فتأيّد لديه ما قاله زياد في كتاب الاتهام. وأمر معاوية بإخلاء سبيل ستة منهم، ولكنه رفض شفاعة مالك بن هبيرة السكونّي في حجر بن عديّ. على أنه شاء مع ذلك أن يعفو عنه وعن الباقين بشرط أن يبرأوا من عليّ. فقبل أن يفعل ذلك منه اثنان، فنَجَوا بحياتهما، وإنْ كانا بعد ذلك قد نقضا تبرؤهما من عليّ، أما الستة الباقون فقتلوا. وقد أرْعِدَتْ خصائل حجر حينما أبصر الكفن معداً والقبر قد حفر والسيف قد أشهر، ولكنه ثبت مع ذلك على موقفه. وجاء مالك بن هبيرة بعد

فوات الأجل. ذلك أنه قد غضب لأن معاوية لم يستجب لشفاعته في حجر، فجاء مع جماعة من كندة وسكون إلى مرج عذراء ليخلّص المسجونين بالقوة. ولكنهم كانوا قد قتلوا. ولكن غضبه على الخليفة [معاوية] زال لما أن أرسل إليه هذا بمائة ألف درهم وقال للرسول أن يذكر له أن قتل حجر وفّر على معاوية القيام بحملة ثانية ضد العراق ـ بعد الحملة الأولى في عهد علي وبعد وفاة علي ـ، وذلك أن حجرا كان سيثير الفتنة في العراق. وكفّن المقتولون وصلى عليهم ودفنوا كأشراف المسلمين[1].

وفي رواية قصيرة نقلها الطبري (جـ ٢ ص ١١٥ وما يليها) عن ابن الكلبي عن محمد بن سيرين يصوِّر لنا حجر بن عدي في صورة الحمل البريء الذي اقتيد إلى المجزرة: وقد أراد أهله وأصحابه حمايته، ولكنه أسلم نفسه ليبعثوا به إلى الشام، فلما دخل على معاوية حيّاه تحية صادقة فقال معاوية: «أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك! أخرجوه فاضربوا عنقه» (الطبري جـ ٢ ص ١١٦ س

---

(١) راجع أبيات عبد الله بن خليفة التي أوردها الطبري جـ ٢ ص ١٤٨ ـ ص ١٥٤، ومنها يبدو أنه يشير إلى أن عدد الذين قتلوا كانوا ثمانية، ولعل السبب في ذلك أن الاثنين اللذين تبرآ من علي قد أدخلا في الحساب، وكان معاوية قد أبقى عليهما، على أنهما قد قتلا أيضاً فيما بعد.

٩ ـ س ١٠)، ولم يشترك معه أحد في حركته. وأشد من هذا سذاجة ما نراه ورد عند اليعقوبي (جـ ٢ ص ٢٧٣ وما يليها) ممثّلاً رأي الشيعة. حقاً إن ميل أبي مخنف مع حجر: فحجر لم يشأ من أصحابه أن يردوا على القوة بالقوة، بيد أنه مهّد السبيل لذلك. ولكن واقع الحال الحقيقي يظهر لديه بوضوح. فأبو عَمَرَّطة الشيعي هو أول من استل سيفه وأسال أول دم، بينما كان الشرطة لا يستخدمون غير العصيّ، كذلك حارب عبد الله بن خليفة الطائي إلى جانب حجر بشجاعة (الطبري جـ ٢ ص ١٢١، ص ١٢٩). وليس من شك في أن حجراً كان ثائراً على السلطة وأنه كان يود أن يجتذب إلى حركته أهل الكوفة. ولهذا فإن زياداً حسب تقديرنا كان على صواب ومعاوية قد استعصم بالحلم. ولكن الأمر في ذلك العهد كان على خلاف تقديرنا الحالي. فإن قتل مسلم لا يحل إلاّ إذا قتل مسلماً آخر، أي أن النفس بالنفس، وكان الجاري أن يقتص صاحب الثأر بنفسه وكانت السلطة العامة إنما تساعده على ذلك وتهيئوه له. والجريمة ضد الدولة تنحصر في الخروج عن الإسلام، لا في حق الخيانة العظمى، ما دام لم يصحبها قتل. أما أن يقتل شخص بسبب خروجه على

الدولة ـ مهما يكن ما يبرر هذا القتل ـ فهذا أمر كان يثير ثائرة الناس، خصوصاً في مثل هذه الحالة الأولى التي شمل الأمر فيه رجالاً بارزين جداً. حتى إنّ أهل الكوفة عامة قد شعروا بالخزى، وإن والي خراسان، ربيع بن زياد، قد مزق قلبه الأسى وإن كان غير رقيق القلب. وأظهرت عائشة غضبها الشديد، وكذلك فعل الحسن البصري بعد ذلك بزمان ولم يكن يخضع في ذلك ـ كما خضعت عائشة أم المؤمنين ـ لدوافع شخصية خاصّة. ويقال إن معاوية لما حضرته الوفاة شعر بتأنيب ضمير عنيف لقتله حجر بن عدي، ولكنه تبرأ من ذلك قائلاً إنه لما انحسر عنه قريش استسلم لتأثير زياد. وطبعاً كان غضب القبائل، خصوصاً اليمانية القوية، على السلطة بالغاً، إذ شعرت بأنه من العار ألا تخلّص أبناءها من بطش السلطان. واتحدت معارضة القبائل مع المعارضة الدينية. واشتد غضب الشيعة خصوصاً لقتل حجر. وكان استشهاده مقدمة لاستشهاد سيد الشهداء الشيعة، ألا وهو الحسين بن علي.

ـ ٢ ـ

توفى أكبر أبناء علي من فاطمة، وهو الحسن، في سنة ٤٩ هـ. وكان قد خيّب آمال أنصار أبيه

بالطريقة التي تنازل بها عن الخلاف وفقد احترامهم له، فاتجهت أبصارهم إلى أخيه الأصغر: الحسين. ولما توفى معاوية وانتهت الخلافة في سنة ٦٠ هـ حييت آمال الشيعة من جديد. فرفض الحسين ـ وكان آنذاك في منتصف الخمسين من عمره ـ أن يبايع يزيداً، وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة، وهي المركز الدائم لأنصار علي، والتجأ إلى مكة (عند أواخر رجب سنة ٦٠ هـ). فدعاه أهل الكوفة إليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بني أميّة. وأرسلوا إليه في هذا المعنى بعدة رسائل، ووصل إلى مكة رسلهم الأُوَل في ١٠ رمضان سنة ٦٠ هـ (١٤ يونيو سنة ٦٨٠م). وكان أصحاب هذه الرسائل[١] رجالاً بارزين من القبائل، ومن اليمانية على وجه التخصيص، وقد كانت اليمانية في الكوفة أكبر القبائل عدداً وأهمية. ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحّة التي وجهها الكثيرون. ولكنه آثر أن يبعث أولاً بابن عمه مسلم بن عقيل ليتحسّس الأرض ويهيئ السبيل أمامه. ونزل مسلم في الكوفة أولاً عند المختار بن أبي عبيد[٢] الثقفي، ثم

---

(١) راجع ما يقوله الطبري جـ ٢ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٢) كذلك في الدينوري ص ٢٤٥ س ٤. وابن عوسجة الوارد في رواية الدهني (الطبري جـ ٢ ص ٢٢٨ س ١٠) لعله خلط.

انتقل بعد ذلك إلى رجل بارز من بني مراد هو هانئ بن عروة من مذحج. وكان مقامه سرّاً، على الرغم من أنه عقدت حوله اجتماعات وألقيت خطب نارية. وكان كسب الأنصار للحسين يتم بسرعة، ولكن مع احتياط شديد، فلم يكن يقبل كل من يظهر الرغبة في الانضمام. وفي مدة قليلة تقدم الآلاف بالبيعة للحسين عن يد مسلم بن عقيل أو من ينيبهم عنه. وتولى أبو ثمامة الصائدي جمع الأموال والسلاح. وجرى كلّ شيء على ما يرام حتى إن مسلما بن عقيل كتب إلى الحسين يخبره بالقدوم.

وكان والي الكوفة لما أن قدم مسلم بن عقيل هو النعمان بن بشير الأنصاري. فاشتبه في وجود شيء، ولكنه لم يشأ أن يتخذ إجراآت شديدة لمجرد الشبهة، فإن تقوى الله أسبق عنده من خدمة السلطان. فلما علم يزيد بن معاوية بمسلكه استبدل به ـ بناء على مشورة سرجيوس ـ شخصاً أقل تحفّظاً وورعاً وهو عبيد الله بن زياد والي البصرة[١]. فأسرع هذا من أقصر طريق خلال الصحارى متوجّهاً إلى

(١) رواية عوانة في الطبري جـ ٢ ص ٢٣٩ س ١٠ ـ ص ٢٤٠ س ٥.

الكوفة في نفر قليل من الرجال[١] . وكان يلبس عمامة سوداء وعلى فمه لثام فحسب الناس أولاً أنه الحسين، الذي ينتظرونه[٢] . فلما عرّفهم بنفسه أخليت له المدينة. فانتقل إلى المسجد مباشرة وخطب خطبة قصيرة. وأمر كل عريف[٣] أن يدل على الغرباء القاطنين في عرافته أو أن يضمن أنه لا يوجد فيها أحد مشتبه فيه. وإلا صلب على باب داره ورفع المال عن عرافته ونفي خارج الكوفة.

وكان قد علم بنيّة الحسين عن طريق رسالة استولى عليها، ولكن يلوح أنه لم يكن على علم[٤] بوجود مسلم بن عقيل في الكوفة، وعلى الأقل كان يجهل مكان إقامته. وذهب وهو لا يدري إلى مغارة الأسد، أعني إلى بيت هانئ بن عروة، لعيادة مريض، وكاد أنْ يُقتل هناك[٥] .

---

(١) وردت في صورة منقحة في رواية عمر بن شبة (الطبري جـ ٢ ص ٢٤٣).

(٢) ويقول أبو مخنف إنه غضب لذلك، ويقول عمر بن شبة إنه لم يأبه لذلك بل مضى ينفذ خطته وما كلف به.

(٣) هذا لقب رئيس الفصيلة الحربية ورئيس القسم في المدينة.

(٤) الأخبار الخاصة بهذا الأمر تدعو إلى الشك.

(٥) الطبري جـ ٢ ص ٢٤٦ وما يليها، ص ٢٤٤ (وقارن جـ ٢ ص ٤٤، ٥٣ وما يليها)، الدينوري ص ٢٤٨ وما يليها.

ولم يأت العرفاء بخبر أحد، وإنما أتاه بالأخبار جاسوس غير عرب، بل مولى، اسمه مَعْقِل، استطاع أن ينفذ إلى ابن عوسجة الشيعيّ، وعرض عليه ثلاثة آلاف درهم قال إنه جمعها للشيعة ويريد أن يقدمها للشخص المتولي لأمر الشيعة. فاقتاده ابن عوسجة إلى مسلم بن عقيل وأقسم يمين الإخلاص. ومن ذلك الوقت كان في صحبة مسلم، وكان يسمع ويرى كل شيء يجري في دار هانئ بن عروة، وينقل ذلك كلّه إلى عبيد الله.

وأرسل عبيد الله إلى هانئ رجلين شريفين صديقين لهانئ ليأتوا به إلى عبيد الله بحجة أن هذا لم يره عنده منذ وقت طويل. فلما مثل أمامه حادثه في الأمر[١]. ولم

---

(١) في رواية عمر بن شبة (الطبري جـ ٢ ص ٢٤٥) أن عبيد الله قال لهانئ: «يا هانئ! أما تعلم أن أبي قدم هذا البلد، فلم يترك أحداً من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حجر، وكان من حجر ما قد علمت ثم لم يزل يحسن صحبتك» فقال هانئ: «نعم!» قال عبيد الله: «فكان جزائي أن خبأت في بيتك رجلاً ليقتلني؟» قال: «ما فعلت» فأخرج عبيد الله الجاسوس، فلما رآه هانئ علم أن قد أخبره الخبر. فقال: «أيها الأمير! قد كان الذي بلغك، ولن أضيع يدك عني فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت. فكبا عبيد الله عندها، ومهران قائم على رأسه في يده معكزة، فقال: «واذلاه! هذا العبد الحائك يؤمنك في سلطانك!» فقال: «خذه!» فطرح المعكزة وأخذ بضفيرتي هانئ ثم أقنع بوجهه. ثم أخذ عبيد الله المعكزة فضرب به وجه هانئ...» وتصوير زياد بأنه =

يستطع الكذب بحضرة الجاسوس، ووعد بأن يصرف ضيفه (أي مسلم بن عقيل)، ولكن لم يشأ أن يسلّمه، فهدد عبيد الله بالقتل، فقال هانئ: «إذن تكثر البارقة حول دارك!» فكان رد عبيد الله أن استعرض وجهه بالقضيب فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده حتى كسر أنفه وسيّل الدماء على ثيابه. فوثب هانئ وأخذ سيف شرطي كان إلى جواره، فأمسكوا به وسجنوه. وفي تلك الأثناء أقبل بنو مذحج حتى أحاطوا بالقصر وهم يقولون: «لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة» ولكننا سمعنا أن أخانا يقتل. فقام القاضي الجبان شريح فهدأ ثائرتهم بأن أكد لهم أن هانئاً حي، فشكروا الله وانسحبوا وكأن كل شيء كان على ما يرام.

ولكن هذا لم يكف لإبعاد الخطر عن عبيد الله. إذ لم يكد مسلم بن عقيل يعلم بحبس هانئ حتى قرر ألا ينتظر طويلاً. فجمع أصحابه بسرعة[1] وسار بهم في اليوم نفسه

= قاتل جميع شيعة الكوفة تكفي للحكم على هذا الخبر. قارن الطبري ص ٢٨٤ س ٨ وما يليه.

(١) في رواية هارون بن مسلم (الطبري جـ ٢ ص ٢٧٢) ـ وهي رواية أقل ثقة ـ ورد أن بين هؤلاء كان ببة القرشي المشهور، والمختار الثقفي المشهور أيضاً.

إلى السوق. وأما عبيد الله فانطلق من المسجد حيث كان يقيم الصلاة وتحرز في القصر وغلّق الأبواب، ولم يكن معه إلا بعض الموالي وثلاثون رجلاً من الشرطة وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته، وكان هؤلاء الأشراف يخضعون لنفوذه وإن كان بعضهم شيعيّاً متحمساً ساهم في استقدام الحسين[١]. وكان على هؤلاء الأشراف أن يبينوا للثائرين النتائج الخطيرة التي ستترتب على خروجهم وأن يحثّوهم على العودة. وكان النسوة أيضاً يحثثن رجالهن وأهلهن على العودة قائلات: ليس لك في هذا الأمر شيء. وعند المساء كان الناس قد انصرفوا وخلَّوْا مسلما بن عقيل وحيداً، شريداً من الناس، ولم يكن يعرف طرقات الكوفة الضيّقة المعقدة، حتى بلغ دور بني جبلة من كندة فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة أرمل كانت تنتظر بالباب ابنها، فالتجأ لديها.

ولما وافى المساء كان الهدوء يشمل السوق، فطلب عبيد الله من أصحابه أن ينظروا هل خلا الجو وصفا. ثم صعدوا على سواري المسجد وأضاءوا القناديل من الفتحات

---

(١) وكان أحدهم، وهو أسماء بن خارجة القيسي (للفزاري)، والد زوجه وصديقا للحكومة. راجع عنه فهرس كتاب الأغاني.

العليا للمسجد، فأبصروا أن ليس ثمّ أحد. هنالك نزل هو من القصر إلى المسجد، وأمر أن تصلى صلاة العتمة بالمسجد، فلم يكن له إلاّ ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس، فنظّمهم على هيئة جيش وأبقى عليهم في أماكنهم. أما الشرطة فقد عبّئت كلها وأمرت باحتلال أفواه السكك، ليفتشوا في الصباح الأحياء حيّاً حيّاً. فلما انبلج الصبح كان ابن تلك المرأة الأرمل قد دلّ رئيس كندة، محمد بن الأشعث، على موضع مسلم، وقام محمد بن الأشعث فأخبر الوالي بالخبر. فأمره الوالي بإحضار مسلم، وأخذ معه بعض الشرطة وحوالي من ٦٠ إلى ٧٠ قيسياً: وذلك لأن اليمانية لم يكونوا ليجدوا مسلماً. وبعد دفاع عنيف ـ وكانوا يريدو أن يأتوا بمسلم حيّاً ـ سلم مسلم نفسه لابن الأشعث واقتيد على بغل بعد أن انتزع منه سيفه. ولما دخل القصر طلب أن يشرب، فلم يجرؤ أحد على تلبية طلبه، إلى أن أخذت الشفقة بقرشي فسقاه. وبعد تبادل كلمات عنيفة بينه وبين عبيد الله صدر الأمر بقتله. فطلب مسلم أن يسمح له بأن يوصي إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص، ابن واحد من أقدم أصحاب محمد (رسول الله)، وقبل هذا أن يأخذ منه الوصية بعد إذن من عبيد

الله. ثم صعدوا به فوق القصر فضربت عنقه وأتبع جسده رأسه، فضربها شرطي فارسي كان قد جرحه مسلم في القتال، وألقى بجثته في الموضع الذي أصبح فيما بعد موضع الجزّارين.

ثم جاء دور هانئ، ولم ينجّه وعد الأشراف. جيء به إلى السوق ويداه مشدودتان إلى ظهره. ودعا بني قومه، فلم يجبه أحد. هنالك فكّ قيده وبحث عن سلاح، ولكن عبثاً. ورفض أن يمدّ عنقه لتضرب قائلاً: «ما أنا بها مُجْدٍ سخيٌّ، وما أنا بمعينكم على نفسي». فضربه مولى تركيٌّ لعبيد الله بن زياد، مرتين فقتله. كذلك قتل واحد أو اثنان آخران، وكان ذلك في ربع قبيلتهم إمعاناً في الإذلال. وأرسل عبيد الله رأسي مسلم وهانئ إلى الخليفة يزيد ورسالة قصيرة كتبها بيده، لأنه لم يرض بأسلوب كاتبه عمرو بن نافع المسهب المنمّق، وعمرو بن نافع قد أراد إدخال الأسلوب الفارسي المسهب [وكان أوّل من أطال في الكتب]. ووافق يزيد بن معاوية على مسلك عبيد الله، ولكنه طلب منه ألا يقتل من قاتله.

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين قبل مقتله بشهر تقريباً يطلب إليه القدوم، ففي اليوم الذي خرج فيه

مسلم وقام بالثورة، وكان على الحسين الانتقال من مكة، وذلك في الثامن من ذي الحجة سنة ٦٠[1] هـ. وترقّب الناس الحادث المنتظر بصبر متوتر، وراح الابن الورع لعمرو بن العاص الذي كان وثنياً جاهلياً (ثم أسلم)، نقول راح هذا الابن يفيض في التنبؤات في هذا الصدد. وبينما اغتبط ابن الزبير برحيل ابن بنت رسول الله من مكة[2]، كان المخلصون ينصحونه بالعدول. ولكنه لم يستمع لنصحهم، بل مضى في طريقه قدماً، وصحبه أقرب أقربائه ومعهم الأهل والأبناء، وكذلك كان معهم أبناء عبد الله بن جعفر، ولكن لم يكن فيهم واحد من بني العبّاس.

---

(١) ٩ سبتمبر سنة ٧٨٠. هكذا ورد في رواية أبي مخنف في الطبري جـ ٢ ص ٢٧١ س ١٧ (والقراءة الواردة في ص ٢٧١ س ١٨ تصحح بما ورد في المسعودي جـ ٥ ص ١٤٢)، ص ٢٧٢ س ٢، ص ٢٧٥ س ٣٠، ص ٢٨٩ س ٤. ويذكر أن اليوم كان الثلاثاء. ولكن يوم ٨ ذي الحجة لم يكن يوم ثلاثاء، بل يوم ٣ ذي الحجة هو الذي كان يوم ثلاثاء، وهو الوارد عند الدينوري ص ٢٥٦ س ١. ومع ذلك فإن يوم التروية، وهو يوافق ٨ ذي الحجة، هو الصحيح على الأقل فيما يتصل بخروج الحسين. وكذلك لا تتفق أعداد الأيام ـ وهي صحيحة قطعاً ـ التي تتلو في شهر المحرم سنة ٦١ مع أسماء الأيام المذكورة قرينها. ـ وقد أقام مسلم بن عقيل في الكوفة حوالي من $1\frac{1}{2}$ شهر إلى شهرين.

(٢) هذا يرجع إلى الكراهية الشديدة القائمة بين آل الزبير وآل علي، وأصولها تعود إلى أمور أسبق.

«ثم إن الحسين أقبل حتى مرّ بالتنّعيم، فلقى بها عيراً قد أُقْبِل بها من اليمن بعث بها بحير بن ريسان الحميري إلى يزيد بن معاوية، وكان عامله على اليمن، وعلى العير الوَرْس والحلل ينطلق بها إلى يزيد. فأخذها الحسين فانطلق بها» (الطبري جـ ٢ ص ٢٧٧) ثم مضى في الطريق إلى الكوفة فمر بذات عرق وبالحاجز (من بطن الرّمة)، وزرود والثعلبية حتى انتهى إلى زُبالة. وانضم إليه نفر قليل من أهل الكوفة العائدين من الحجّ، انضموا مكرهين لما أن دعاهم إلى ذلك، ولكنهم بقوا معه بعد ذلك مخلصين. وفي مواضع المياه التي أقام بها في الطريق تبعه عدد كبير من البدو. وظن أنه سيستقبل في الكوفة استقبالاً حافلاً، ولم يكن يعلم شيئاً عن نهاية مسلم بن عقيل الأليمة. وإنما وصلته الأنباء الأولى وهو في الثعلبية، وكان يودّ أن يعود أدراجه لولا أن إخوة القتيل طالبوا بالمضيّ في الأمر لينتقموا لمقتل أخيهم. وفي زُبالة أتاه نبأ جديد مروّع. فقد أرسل رسوله بكتاب، «حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن تميم[١] فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فقال له

---

(١) يخلط كثيراً بينه وبين الحصين بن نمير الشامي، وهو خلط لا يقع فيه المؤرخون المحدثون وحدهم، بل وقع فيه النساخ القدماء أيضاً، =

عبيد الله: اصعد القصر فسبّ الكذاب ابن الكذاب، صعد ثم قال: «أيها الناس إن هذا الحسين بن علي ـ خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه. ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلي بن أبي طالب. فأمر به عبيد الله بن زياد أن يرمي من فوق القصر، فرُمي به، فتقطع فمات». فلما علم الحسين بهذا الخبر قال لمن معه: «من أحب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس عنه تفرقاً فأخذوا يميناً وشمالاً ـ حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة» (جـ ٢ ص ٢٩٤)، وسار مع هؤلاء الأخيرين حتى مر ببطن العقبة فنزل بها ثم ارتحل منها إلى شراف حتى بلغ ماء ذي حُسَم فعسكر هناك وتحصّن من الخلف بأرض مرتفعة.

وهناك اعترض طريقة فرسان من الكوفة أرسلت من القادسيّة بقيادة الحرّ بن يزيد التميمي. تلقوا الحسين باحترام وقاموا بالصلاة وهو يؤمّهم. وأبرز لهم الحسين الكتب التي جاءته من الكوفة تدعوه للقدوم، وكانت تملأ خرجين،

= راجع مثلاً الطبري جـ ٢ ص ٤٠٩ س ٣، والدينوري ص ٢٥٦ س ٤. وكانت القادسية تغلق المدخل إلى الكوفة من ناحية الجزيرة العربية.

فقال الحرّ: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك. فأراد الحسين الرجوع إلى المدينة. فحال الحرّ بينهم وبين الانصراف، ولكنه لم يكن لديه أيضاً أمر بمهاجمته. «ولما كثر الكلام بينهما قال له الحرّ: إني لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية ـ إن أردت أن تكتب إليه، أو عبيد الله بن زياد إنْ شئت ـ فلعل الله إلى ذاك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك. قال: فخذ هاهنا فتياسَرْ عن طريق التعذيب والقادسية، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً. ثم إن الحسين سار في أصحابه، والحرّ يسايره» (الطبري جـ ٢ ص ٢٩٩ ـ ص ٣٠٠)، ولكنه لم يمنع الشيعة المخلصين القادمين من الكوفة من الانضمام إليه. وهؤلاء أخبروا الحسين بالموقف في الكوفة فقالوا: «أما أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم: يستمال ودّهم ويستخلص به نصيحتهم فيهم أَلْبٌ واحد عليك. وأما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك» (الطبري جـ ٢ ص ٣٠٣).

واستمر الحسين في سيره ماراً بعذيب الهجانات وقصر بني مقاتل حتى انتهى وصحبه إلى نينوى على الفرات. وهناك جاء رسول من عبيد الله بن زياد إلى الحرّ بن يزيد ومعه كتاب من عبيد الله يقول فيه: «أما بعد! فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي: فلا تُنْزِلْه إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء»، ففعل الحرّ كما أمره عبيد الله. فلم يكن مسموحاً للحسين بالنزول في نينوى أو الغاضرّية أو شَفّية. فقال زهير بن القين للحسين: إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به. فقال له الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير بن القين: سرْ بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم» (الطبري جـ ٢ ص ٣٠٧ ـ ص ٣٠٨). وكان اسم هذه القرية العَقْر، فتشاءم الحسين من اسمها وقال: اللهم إني أعوذ بك من العقر: وبقي في موضع ليس فيه ماء غير بعيد من الفرات، في سهل كربلاء[1]. وكان ذلك ـ فيما يقول الطبري

---

(١) من الغريب أن أبا مخنف لا يذكر هذا الاسم. قارن ص ٥٤٦ س ٤، ص ١٧١٠ س ٨.

(جـ ٢ ص ٣٠٨ س ٧) في يوم الخميس، وهو اليوم الثاني من المحرّم سنة ٦١ هـ (= يوم الثلاثاء الثاني من أكتوبر سنة ٦٨٠ م).

فلما كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقّاص من الكوفة في أربعة آلاف رجل. وكان عبيد الله قد بعثه والياً على الريّ ليحارب الديلم في دَسْتَبَى، ولهذا الغرض جمع جيشه هذا. بيد أنه تلقى أمراً بالسير إلى الحسين حتى إذا فرغ منه سار إلى عمله الأصلي. فأراد أن يعفى من أمر الحسين، فاشترط عليه أن يُرَدّ عن ولايته. فاضطر كارهاً إلى السير إلى الحسين حتى لا يفقد ولايته. ولكنه لم يتعجل السير، بل بدأ بأن أرسل إليه من يسأله ما الذي جاء به وماذا يريد، وكان قد سأل الكثير أن يكون رسولاً إلى الحسين، ولكنهم أبوا لأن كثرين منهم كانوا قد كتبوا إلى الحسين يسألونه القدوم إلى الكوفة، فخجلوا أن يظهروا أمامه بهذه الرسالة. فلما أبلغ الحسين الرسالة قال الحسين للرسول: «كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهوني فأنا أنصرف عنهم[١]» (الطبري ج ٢ ص ٣١٠).

---

(١) في رواية عمار الدهني في الطبري (جـ ٢ ص ٢٨٢) أن الحسين حيره واحدة من ثلاث: إما أن يدعوه فينصرف من حيث جاء، أيْ إلى =

فأبلغ عمر بن سعد هذا الجواب إلى الوالي (عبيد الله بن زياد). فأجاب الوالي قائلاً: اعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية وأنْ يسلّم نفسه، وإلاَّ استعملت القوة ضده، فإن تردّد عمر في ذلك، فعليه أن يسلم القيادة لشمر بن ذي الجوشن القيسي الذي حمل هذه الرسالة من عبيد الله إلى عمر بن سعد[١].

وفي عشيّة يوم الخميس[٢] لتسع مضين من المحرَّم، استعدّ عمر للقتال. وفي أثناء الليل ترك الحسين في هدوء، ولم يحاول أحد ممن كان معه أن يهتبل الفرصة للفرار، على الرغم من أنه حرّضهم على الفرار، لأن القوم لا يريدون إلاّ الحسين. ثم أوصى بوصيّة، وجعل سيفه قائماً لإخافة النساء، ورتَّب الأمور لحماية ظهره من الهجوم[٣]. وأمضى بقية الليل في الصلاة. وكان أعداؤه على مقربة من معسكره،

= مكة، وإما أن يدعوه فيذهب إلى يزيد، وإما أن يدعوه فيلحق بالثغور. أما في رأي أبي مخنف (الطبري ص ٣١٤) فليس من الصحيح أن الحسين اقترح هذه الأمور الثلاثة.

(١) راجع نسبه في الطبري جـ ١ ص ٣٣٠٥، والدينوري ص ٢٦٧.

(٢) ورد أن ذلك في يوم الخميس أو الجمعة، والحقيقة أنه كان يوم ثلاثاء.

(٣) في رواية الدهني (الطبري ص ٢٨١ س ١٧ ـ س ١٨) أنه أسند ظهره إلى قصباء وخلا كي لا يقاتل إلا من وجه واحد.

وكان يدور هنا وهناك كلام كثير مختلف ألوانه.

وفي العاشر من المحرَّم، يوم الأربعاء[١] العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠ م، انتظم كل فريق بعد صلاة الفجر استعداداً للقتال. وكان مع الحسين اثنان وثلاثون فارساً[٢] وأربعون رجلاً، بما فهيم ١٨ من أبناء عمومته. وفي اللحظة الأخيرة وقع حادث مشجع له هو أن الحرَّ بن يزيد عدل إلى الحسين وقتل معه كفَّارة عن مسلكه السابق. وسبق القتال كلام، وخطب الحسين في أعدائه وهو راكب جملاً، إلى أن انطلق سهم لم يصبه، فتوقف عن الخطبة. وتلا رمي السهام القتال بالسيوف. وودَّع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء في الجنة قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحد بعد الآخر، ولم يكن في غاية لهم إلا أن يموتوا في القتال بمشهد منه. أما الحسين فقد ظل يرقب المعركة وهو جالس أمام الخيمة الكبرى التي ضمّت النساء والأطفال وكان النسوة يَنُحْن. ويلوح أيضاً أن أبناء عمه كانوا أيضاً يشهدون المعركة دون أن يخوضوها إلى أن أهريق دماء الآخرين فجاء دورهم هم،

---

(١) ورد أن ذلك كان في يوم الجمعة أو السبت.

(٢) في رواية الدهني (ص ٢٨١) والحصين (ص ٢٨٦) يذكر عدد أكبر من ذلك.

فقتلوا جميعاً. أما حفيد النبي (الحسين) فلم يجسر أحد على قتله، إلى أن قام شمر فقضى على هذا التردُّد. لقد كان قائد الهجوم، إنْ صحَّ الحديث عن قيادة هنا. فأفلح أولاً في أن يبعد الحسين من معسكر النسوة والأطفال، وهو معسكر لم يكن لأحد أنْ يمسّه بأذى. وهنالك انقضّ عليه الكثيرون طعناً وضرباً حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة، ولم يشأ أحد منهم بعد ذلك أن يكون القاتل. «وسلب الحسين ما كان عليه: فأخذ سراويله بحر بن كعب. وأخذ قيس بن الأشعص قطيفته ـ وكانت من خز، وكان يسمى بعدُ قيس قطيفة ـ وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل ابن درام... ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها... ومال الناس على نساء الحسين وبقله ومتاعه حتى أن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها» (الطبري ج ٢ ص ٣٦٦) ـ وكان الحسين يلبس ملابس فاخرة، لا درعاً. ولم يتوقف النهب إلاَّ لما جاء عمر بن سعد. وجاء الجنّ بالخبر إلى المدينة، فعُرِف قبل وصول الرسول.

ودفن شهداء كربلاء في الغاضرّية، أما رؤوسهم فقد

احتُزَّتْ وأخذت، وسرّح باثنين وسبعين رأساً مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وعَزْرة بن قيس فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد، فأرسلها هذا إلى الخليفة (يزيد) في دمشق، فسرّ بما حدث كل السرور، ولذّ له أن يمسك بقضيب وينكت به في ثغر رأس الحسين[1]. أما السبايا والأطفال فقد عاملهم يزيد بشهامة وعطف، وأظهر الصداقة لعلي بن الحسين ـ وكان فتى صغيراً ولكنه على قدر من العقل موفور ـ مما جعل عليّاً يعترف له بالجميل. وأَذِن لأسرة الحسين بالعودة إلى المدينة، في صحبة رجل أبدى من الرقة والاحترام نحو النسوة، ما جعلهن يقدّمن له أُسْوارين شكراً له على صنيعه معهن. ولما وصل ركبهن إلى المدينة ارتفع العويل والصراخ والبكاء.

وقد اعتمدتُ في هذا الموضع على رواية أبي مخنف، وهي رواية طويلة مفصّلة جداً نقلها الطبري بأكملها تقريبا،

---

(١) كذا في روايتيْ أبي مخنف (الطبري جـ ٢ ص ٣٧٠، ص ٣٨٣) والدهني (ص ٢٨٢ وما يليها). ولا يثبت ما أورده الحصين (ص ٢٨٦) بعكس هذا، وهو ينسب هذا بالفعل إلى عبيد الله. وكان من المعتاد أن يحمل أصحاب السلطان قضباناً في أيديهم، قضباناً لم تكن مجرد رموز (ص ٢٨٢ س ١٨، ص ٢٨٦ س ٢١، ص ٥٢٣ س ٢٠).

كما حرّرها ابن الكلبي. وما أضافه هذا الأخير (عن أبيه عن عوانة الخ) ليس بذي بال ولا يغير شيئاً من المجرى العام للرواية، بيد أنه في موضع واحد أضاف خبراً عن عوانة لا غنى عنه (الطبري جـ ٢ ص ٢٣٩ س ١٠). والروايات الموازية والمخالفة التي أوردها الطبري إلى جانب رواية أبي مخنف، لا تشغل حيزاً كبيراً. ورواية عمّار الدهني تتفق معه اتفاقاً شاملاً، ولكن الدهني يركز الأخبار المختلفة في سرد عام، مما يجعل مجرى الرواية لديه أوضح[١]. وفي مقابل هذا نجد رواية عمر بن شبّة تختلف عن رواية أبي مخنف اختلافاً كبيراً، ولكن الأنباء المخالفة التي يوردها ليست بكبيرة القيمة[٢]. كذلك ما يورده الحصين بن عبد الرحمن[٣] ليس بذي قيمة كبيرة. وإلى جانب الطبري يدخل في اعتبارنا ما يورده الدينوري (ص ٢٤٣ وما يليها)

(١) الطبري ص ٢٢٧ س ١٦ وما يليه. قارن الطبري جـ ١ ص ٢٣٣٤، و«الفهرست» ص ٢٢٠ س ٧.

(٢) الطبري ص ٢٤٢ س ١٠ وما يليه، ص ٢٧٣ س ٣ وما يليه. ـ وبمقارنة الإسناد إلى ما ورد في ص ٢٤٢ س ١٠ وما يليه يتبين أن ما ورد في ص ٢٧٢ س ٣ وما يليه، وهي قطعة معترضة تنقصها الخاتمة، إنما يرجع إلى عمر.

(٣) «الفهرست» ص ١٩٢. أما هارون بن مسلم المذكور في الطبري ص ٢٧٢ س ٣ وما يليه فيكاد لا يستحق الذكر.

واليعقوبي (جـ ٢ ص ٢٧٣ وما يليها) متعلقاً بأخبار جزئية أو أبيات يوردانها. وما كان للمرء أن يستفيد كثيراً من المعلومات المهمّة ـ من شيعيّ متحمّس مثل اليعقوبي عن حادث له عند أصحاب مذهبه أهمية قصوى. ولا توجد رواية شيعية مستقلة تتسلسل إلى الأوائل وإنما تبدأ الرواية الشيعية من نقطة وسط وتفترض رواية أقدم وأقلّ تحيّزاً بكثير تتباعد عنها شيئاً فشيئاً. كذلك كان عمار الدهني ـ حسبما يقوله «الفهرست» ـ شيعياً: ولكنه يتفق في جميع الأمور الجوهرية مع أبي مخنف. وأبو مخنف هو الحجّة الكبرى، وبوصفه كذلك اعتمد على اسمه المزيّفون فيما بعد فنسبوا إليه الأسطورة المتأخرة المتعلقة بمقتل الحسين[1].

ورواية أبي مخنف هنا تكشف عن خصائص طريقته كشفاً واضحاً. وما لخصناه منها هنا لا يعطي أدنى فكرة عن هذه الطريقة. فروايته كلها حوار ومناظر، وإنْ خلت من التصوير الدرامي. وليس ثمّ فيها شيء غير مقرون باسم فاعله، فكل رسول، وكل عبد، وكل عامل عملاً، وكل من يقول شيئاً أو يفعل فعلاً، بل كل من يشهر سيفاً أو ينظفه ـ كل هؤلاء تذكر أسماؤهم. ولا يستطيع المرء

(١) راجع بروكلمن، «تاريخ الأدب العربي» جـ ١ ص ٦٥.

بالنظرة الأولى أن يستوعب هذه الغابة الكثيفة الأشجار، فالتفاصيل فيها تضرب في كل ناحية وتتشعّب كل التشعّب. فيذكر ـ مثلاً ـ عن المظهر الخارجي للحسين أنه كان عليه «نصلان قد انقطع شسع أحدهما»[1] وكانت اليسرى. وقد حشدت في الرواية أخبار جزئية مستقلة بعضها عن بعض، وكثيراً ما تجري موازية بعضها لبعض مما يؤدي إلى إطالة السّرد. ولم يكن أبو مخنف أول من جمع هذه الأخبار كلها، بل هو يذكر أسلافاً له وزملاء فعلوا ذلك قبله فتكون عن ذلك نوع من الإجماع (الطبري ج ٢ ص ٣١٤ س ٧). على أنه لا يفصله غير جيل واحد عن أولئك الذين عاشوا هذه الأحداث. وتسلسل الروايات الجزئية عنده موجز جداً، كما هو شأن الأسانيد الصحيحة القديمة ـ أما السلاسل الطويلة المتأخرة فليست إلا مظهراً شكلياً وطريقة مصطنعة اتخذها الكتّاب المتأخرون. والراوي الذي ينقل عنه إنما تلقى الخبر من شاهد عيان حضر الحادثة المرويّة، أو على الأقل يعتمد على شاهد عيان. وشهود العيان على نوعين: فمنهم من كانوا في صفّ الحسين من

---

(١) «ما أنسى أنها اليسرى»، هكذا يقول الذي شهدهما (الطبري جـ ٢ ص ٣٥٨ س ٨).

عبيد أو هاربين[١] ـ وكانوا قلّة، ومنهم ـ وهم الغالبية ـ كانوا في صف أعداء الحسين. ولكنهم كرواة لم تكن ميولهم مع الموقف الذي وقفوه، بل كانوا نادمين على موقفهم القديم[٢]. ولذا كانوا يحاولون أن يهوّنوا من شأن اشتراكهم أو يقلّلوا من نصيبهم في الجريمة أو يستدرُّوا العطف عليهم بتصويرهم القتال ضد الحسين في صورة فيها تمجيد لشأن الحسين. ويجب أن نلاحظ أن الأحاديث عن حادث الحسين كانت كثيرة وشديدة في الكوفة، وكان القوم هناك يتهم بعضهم بعضاً ويحاول تبرئة نفسه (الطبري ج ٢ ص ٣٤١، ص ٣٤٤ ـ ص ٣٤٦).

ورواية أبي مخنف وسيلة لضبط الروايات الأخرى المتوازية بحيث نستبعد الأخبار العرضية، لأنها لا ترد إلاّ في رواية واحدة، ونبقي على الأخبار الجوهرية لأنها تتكرر في جميع هذه الروايات. ثم إنه يضع الروايات غير المتوازية في تسلسل متّسق على نحو ينشأ عنه ترتيب محكم متصل ـ لا يمكن التخلص منه إلا بنوع من الاختيار والتمييز.

---

(١) مثل عقبة بن سمعان مولى الرباب الراوي، وأحد الأسديين اللذين انضما إلى الحسين. أما الروايات المنقولة عن أسرة علي فنادرة وقليلة الأهمية.

(٢) مثل حميد بن مسلم الأزدي الراوي. ومن الجدير بالملاحظة أن غالبية الرواة لم يكونوا رجالاً بارزين، فلم يكن منهم أحد من الأشراف.

أجل إن في روايته بعض الاختلافات والمواضع غير المؤكدة، ولكن ليس فيه تناقض حقيقي في النقط الرئيسية. والصورة في مجموعها ثابتة المعالم تتسم بالوحدة، وذلك ليس فقط فيما يتعلق بالوقائع، بل وأيضاً فيما يتصل بطبائع الأشخاص.

وإنما كان كل همّ الأشراف مقصوراً على الاحتفاظ بمراكزهم وعلى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم. وعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد حكومة الأمويين، فقد وضعوا نفوذهم تحت إمرتها لتوطيد الهدوء في القبائل. وفي هذا السبيل قام عمرو بن الحجَّاج الزبيري ومحمد بن الأشعث الكندي خصوصاً بدور الشّرطة. وتوَّج شبث بن رِبعي التميمي قدرته على التقلُّب[١] التي اكتسبها منذ شبابه بأن حارب ضد الحسين بعد أن كان هو أحد الذين دعوه إلى الكوفة. ولم يكن جمهور أهل الكوفة حريصاً على مساعدة الحكومة، ولكنه مع ذلك لم ينضم إلى صف أعدائها.

---

(١) بدأ حياته العامة في خدمة المتنبئة سجاج، ثم اضطر رغماً عنه إلى اعتناق الإسلام، واشترك اشتراكاً بارزاً في الثورة ضد عثمان لصالح علي بن أبي طالب، وبعد صِفّين كان أحد مؤسسي الخوارج، ثم حارب ضد الخوارج في النهروان، ووضعه معاوية مع سائر زعماء الشيعة تحت المراقبة، وكان يخرج من كل موقف يقفه كالشعرة من العجين حينما يتراءى له شبح الخطر.

وحتى أولئك الذين بعثوا بالكتب إلى الحسين وأقسموا على الإخلاص له تخلّوا عنه في المحنة ولم يقدموا له يد المعونة، وقصارى ما فعلوه أنهم راقبوا المعركة من بعيد ومصرعه الأخير ثم بكوا. وقليلون جداً هم أولئك الذين تجاسروا على اللحاق به ومشاركته في مصيره، مثل أبي ثمامة الصائدي خازن بيت المال، وابن عوسجة. وعدا هذا فإن بعض الذين شاركوه في مصرعه إما أنهم كانوا من أولئك الذين التقطهم عرضاً في الطريق أو من أولئك الذين دفعتهم الحميّة الإنسانية في اللحظة الأخيرة إلى الانضمام إليه وإنْ لم يكن لهم من قبل شأن به أو لم يكونوا من شيعته. وقد أبرز المؤرخون هذا التعارض بين المكلَّفين، الذين لم يعملوا شيئاً، وبين غير المكلّفين الذين أخجلوا الأوّلين، أبرزوه وعرضوه أحياناً عرضاً درامياً[١]. ومما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار أيضاً، لا القرشيون وحدهم، قد تخلّوا عن الحسين. فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة إلاّ أفراد قلائل جداً. والثورة التي قامت

---

(١) بين زهير بن القين وعزرة بن قيس (الطبري جـ ٣ ص ٣١٨ وما يليها).

في المدينة سنة ٦٣ هـ لم تكن من أجل آل عليّ، كما أن علياً بن الحسين نفض يديه منها.

وفي مقابل الجبناء وغير المخلصين كان أعداء الشيعة الصّرحاء وهم أتباع حكومة بني أميّة وموظفّوها. ولم يكن الجدال يدور حول أمور دينية إيمانية[١]، بل حول مسألة عملية هي: هل تجب الطاعة لأولي الأمر، أو الثورة عليهم والانضمام إلى الحسين؟ وليس بمنكر أن «أهل الطاعة» كانوا يحسبون مسلكهم هو الصحيح، ولكن كان ثم من يستنكر موقفهم ولا يعترف بالحجج التي يتعلّلون بها. وكانت الأهواء الحزبية تعبر عن نفسها بالوسائل البيانية والمبالغات التصويرية السهلة التمييز أكثر منه عن طريق التضليل وتزييف الوقائع. ولهذا تتميز الروايات القديمة، كما نجدها عند أبي مخنف، من الروايات المتأخرة، والأولى أفضل بكثير جداً. وعلى الرغم مما فيها من ألوان الأساطير، فإنها لا تحجب عنّا المادّة التي بفضلها نستطيع أن نكوّن

---

(١) كان الكل يعترفون بفضل آل الرسول على سائر القبائل العربية (الطبري جـ ٢ ص ٣٣١ س ٨، ص ٣٤٢ س ١٦، ص ٣٥٠ س ١٤ وما يليه). والكلمة «جاهلي» altgläubig التي يلذ لأوجست ملّر A. Müller استعمالها، فيما يتصل بهذا العصر لم يكن لها معنى. قارن جـ ٢ ص ٥٥٦ س ٤ حيث يسمى الشيعة أعداءهم «أهل دعوتهم».

أحكاماً سليمة. فعمر بن سعد يراجعه ضميره في مسلكه بإزاء الحسين، ولهذا ينظر إليه بنوع من الرقة، بينما نحن نراه شخصاً يثير السخط لأنه تجاوز اعتبارات ضميره لا لشيء إلا ليحتفظ بما وعد به من ولاية. أما شمر فلا ضمير له، ينظر إلى الحسين على أنه مثير للفتنة والاضطراب، لهذا انقض عليه بغير تردّد، ومن هنا يسود شعور سابق ضده لا نرانا ملزمين بالمشاركة فيه. وعلى كل حال فتصوير أبي مخنف له لا يكشف عن أنه كان مجرد جلف أو جاهليّ صريح مليء بالكراهية لآل بيت الرسول[١]، وذلك لأنه مثلاً قد احترم قداسة المعسكر (الذي فيه الحسين والنساء) ولم يهاجم الحسين إلاّ بعد أن أبعده عن المعسكر. أما أبغض الناس إلى أبي مخنف فهو عبد الله بن زياد، ولكنه يصوّره لنا بصورة تدعو إلى الإعجاب به: وليس أكبر من هذا مدحاً له. فهذا الوالي قد أرغم الكارهين على أن يكونوا في خدمته، وبقليل من الوسائل ولكن بنظرة ثاقبة ويد قوية عرف كيف يحل الصعاب التي اعترضته في طريق وعر حافل بالمتاعب. فأدى واجبه ولم يتجاوز مطلقاً حدود

(١) ا. ملّر جـ ١ ص ٣٦٣. وفي صِفّين حارب شمر في صف عليّ ضد معاوية بشجاعة (الطبري جـ ١ ص ٣٣٠٥).

هذا الواجب. نعم قد يأخذ عليه المرء أنه في أثناء غضبه صفع هانئاً على وجهه. والخساسة التي ارتكبت بشأن رأس الحسين لم يرتكبها هو، بل يزيد بن معاوية. وربما كانت الروايات قد عاملت يزيد بن معاوية برفق أكبر جداً مما يستحق. فإنه إذا كان مقتل الحسين جريمة، فالمجرم الأكبر فيها يزيد، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتيجة مرضية جداً ليزيد واغتبط لها أيّما اغتباط، فإن كان قد غضب على خادمه (عبيد الله) من بعيد (الطبري جـ ٢ ص ٤٣٥ وما يليها)، فما كان ذلك إلاّ تطبيقاً لامتياز الحاكم الأعلى، أعني أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصطنعها لنفسه في جريمته. حقاً إن المودة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين ليست مما يعيبه، وإنْ كانت مودة تنطوي على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص.

والحاسم في الحكم على هؤلاء الأشخاص جميعاً هو موقف كل منهم تجاه الحسين. فالحسين مركز الدائرة، وكل الاهتمام يدور حواليه. فلم يهمل ذكر شيء يتصل به، والتقاطيع الدقيقة تضفي على صورته العطف الحزين. فهو موضوع الأحاديث العديدة، وهو يعظ غيره ويعظ نفسه، فليس

بعجب أن تكون خاتمته هكذا (الطبري جـ ٢ ص ٣٥٣ س ٤): «آمين! آمين!» معجزات ولعنات وأحلام وتنبؤات وعناصر روحانية أخرى - كل هذه تتشابك في مجرى الرواية عن مأساته، ثم تسبق الرواية المستقبل فتتحدث عن العذاب الأليم الذي سيلقاه قتلة العادل (الحسين) على يد الجبّار المنتقم. وفي هذا التصوير يختفى الإحساس بانعدام البطل، وما كان مثله إلاّ كمثل آنية من الفخّار اصطدمت بحديد هو عبيد الله. لقد مضى الحسين كما مضى المسيح في طريق مرسوم، ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام، ومدّ يده كالطفل ليأخذ القمر. ادّعى أعرض الدعاوى، ولكنه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أدناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء. وفي الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدّم القوم رءوسهم يائسين. ولم يكد يصطدم بأول مقاومة حتى انهار، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة. لقد كان مقتل عثمان مأساة (تراجيديا)، أما مقتل الحسين فكان قطعة مسرحية انفعالية (ميلودراما[1]).

---

(١) [الميلودراما Melodrama: المعنى الأصلي لها هو المسرحية الموسيقي، أي ما سمى فيما بعد «الأوبرا». ثم أطلق الاسم فيما بعد في =

ولكن عيوب الحسين الشخصية تختفي أمام هذه الواقعة وهي أن دم النبي يجري في عروقه وأنه من أهل البيت. فلم يكن عليه أن يجهد نفسه، لأن ولاية الأمر فيه بطبعه. وافتقاره إلى الصفات المعنوية تعوّض عنه ـ وتزيد ـ القداسة الكائنة في لحمه ودمه. وهذا ما أعطى لشخصه أهميته[١]، ولتاريخه طابع التاريخ الإسلامي الانفعالي. فلقد افتتح استشهاده عصراً جديداً لدى الشيعة، بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه، لأن أباه لم يكن ابن بنت النبي. وإن ثمّت من الأحداث ما يسبّب آثاراً هائلة لا بذاته وبنتائجه الضرورية، بل بذكراه في قلوب الناس.

= ألمانيا على نوع من الإلقاء المصحوب بنغمات موسيقية إمّا في داخل رواية مسرحية مثلما في مسرحية «أجمنت» لجيته، أو كعمل فني مستقل مثل القصائد التي تُلقى بمصاحبة البيانو. وأول من جعلها قطعة قائمة برأسها جان جاك روسو في «بجماليون» وجورج بندا في «أرديان». ـ أما في انجلترا وفرنسا فتدل الميلودراما عادة على قطعة مسرحية شعبية ذات انفعالات عنيفة تتخللها الموسيقي].

(١) التعبير: «الهادى المهديّ» يرجع إلى الحسين (الطبري جـ ٢ ص ٣٥٠ س ١٤)، أما التعبير: «النفس الزكية» فيرد في استعمال عام ص ٣١٩ ص س ٤، ولكن راجع الأغاني جـ ٧ ص ٧ س ٢٦.

- ٣ -

والكوفيون الذين جرّوا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنبهم على ما اقترفت أيديهم. فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الربّ وبالكفّارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسمّوا أنفسهم «التّوابين» وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم. فتكونت بعد مقتل الحسين بقليل منظمةٌ انضم إليها حوالي مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من عمره، كانوا إذن مدفوعين بدافع الضمير الديني، لا العواطف. وولّوا أمرهم سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي(١)، وكان على رأس الشيعة المتحمسين الذين كتبوا إلى الحسين بالقدوم وكان معه رؤساء أربعة آخرون من قبائل: فزارة، والأزد، وبكر، وبجيلة(٢). وكانوا يجتمعون في كل يوم جمعة في منزل سليمان ويسمعون منه في كل مرة نفس الخطبة: «كونوا كالألى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم. فما فعل القوم؟

---

(١) ولكن اسمه: «سليمان» ينهض دليلاً على عكس هذا.

(٢) لم يكن أحد من الرؤساء من اليمانية الحقيقيين (من همذان أو مذحج أو كندة).

جثوا على الركب والله ومدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء، حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ـ فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه؟ اشحذوا السيوف، وركّبوا الأسنَّة، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى تدعوا حين تدعوا وتستنفروا» (الطبري جـ ٢ ص ٥٠٠ ـ ص ٥٠١).

وبقيت هذه الحركة سرّية حتى وفاة يزيد بن معاوية، فلما توفى انطلقت. هنالك ثار أهل الكوفة على عبيد الله ـ وكان يقيم في البصرة ـ فطردوا نائبه في الكوفة عمرو بن حريث المخزومي. وكان زعماء هذا الانتقاض من الأشراف، لا من الشيعة، وعلى رأسهم يزيد بن رُوَيْم الشيباني الذي اكتسب بذلك مكانة بارزة. وفي هذه الفترة الخالية من الحاكم الرسمى ولّى أولا عمر بن سعد أميراً على الكوفة، وخلفه قرشيّ آخر. وكان ابن الزبير قد استطاع أن يوطّد لنفسه في العراق، حتى بايعه أشراف الكوفة خليفة، وإن لم يكونوا بقلوبهم معه (الطبري ج ٢ ص ٥٣١) فأرسل إليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري والياً على الكوفة، وذلك في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان سنة ٦٤ هـ (الجمعة ١٣ مايو سنة ٦٨٤ ـ الطبري ٢/ ٥٠٩).

ولقد كان لهذا التغيير أثره المفيد عند الشيعة، رغم أنهم كانوا يكرهون ابن الزبير الذي استولى على ميراث[١] الحسين. ومن ثمّ صاروا أكثر جرأة وانتشروا في أوساط أوسع، وكانت عواطف الجماهير معهم، وإن كان الأشراف لا يريدون الاعتراف لهم بشيء (الطبري ٢/ ٥٣١)، وكان همّهم كلُّه إبعاد المغامرين عن الكوفة وتجنيب أنفسهم - وهم في مركز المسئولين - كلَّ خطر. وبرز في مقدمة «دعاة»[٢] الشيعة عبيد الله بن عبد الله المُرِّي الذي لم يملّ من تكرار ما يقوله حتى يوقع اليقين في نفوس السامعين. «... ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربّ العالمين: قلّت حماته، وكثرت عداته حوله، فقتله عدوّه، وخذله وليُّه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة - إلاّ أن يناصح الله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة. إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين. فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا

---

(١) [المترجم: ميراث الخلافة].

(٢) ومن ثمّ سيصبح «الدعاة» ظاهرة مميزة للشيعة.

رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا»[١] (الطبري ٢/ ٥٠٨). فزاد الأنصار عدداً حتى بلغوا ١٦٠٠٠ رجل أقسموا على الولاء وإنْ لم يكونوا أعضاء ظاهرين في هذا الحزب. كذلك تمت اتصالات بالمكاتبات مع المدائن والبصرة. ولم يهمل القوم أن يجمعوا إلى جانب ذلك ـ المال والسلاح.

وكانت شارتهم هي: الثأر للحسين! لم يكن أمامهم هدف ثابت معيَّن، بل ترددوا في أي الوسائل أنسب للتضحية بحياتهم. وأقرب هدف أمامهم كان أن يستولوا على الكوفة ويطردوا الأشراف، فهؤلاء تقع على عواتقهم المسئولية الكبرى في مقتل الحسين بسبب تواطؤهم مع السلطة وطاعتهم لها، ولذا كانوا في خوف شديد. وكانت غالبية الشيعة من هذا الرأي، أي وجوب طرد الأشراف؛ ولكن سليمان كان على غير هذا الرأي، إذ وجد من الحكمة ألاّ يجعل ضده هؤلاء الأشراف ذوي النفوذ الكبير. فوجّه القوم ضدّ الأعداء الحقيقيين المباشرين والمستبدين، ضد حكومة بني أمية وخصوصاً ضدّ عبيد الله

---

(١) [المترجم: أوردنا الفقرة بنصّها، وإن كان المؤلف اختصرها وقدمها مع ذلك بين علامتيْ نصّ].

ابن زياد، الذي ارتحل إلى الشام واستعد هناك (سنة ٦٥ هـ) بجيش عظيم من أهل الشام ليكسب العراق لحكم مروان. وعملت على الوصول إلى هذا القرار حكمة والي الكوفة عبيد الله بن يزيد. كان الأشراف قد ألحّوا عليه في أن يهاجم جميع الشيعة. ولكنه قال: «الله بيننا وبينهم! إن هم قاتلونا قاتلناهم، وإن تركونا لم نطلبهم... فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير. هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم قد توجه إليكم، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً ويسفك بعضكم دماء بعض فيلقاكم ذلك العدوّ غداً وقد رققتم، وتلك والله أمنية عدوكم» (الطبري ج ٢ ص ٥١٠ ـ ص ٥١١). فأصبح في وسع الشيعة آنذاك أنْ يظهروا ثورتهم علناً على ابن زياد. فقرروا أن يتجمعوا إلى أول ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ (١٥ نوفمبر سنة ٦٨٤) في معسكر النخيلة (قرب الكوفة) ودعوا كذلك أنصارهم في المدائن والبصرة. وهكذا لم يصل الاتفاق بينهم وبين الوالي إلى حدِّ قبوله ما اقترحه من أن يتفقوا معه ومع رؤساء القبائل في الكوفة على أن يكونوا جبهة واحدة ضد أهل الشام.

ولم يجتمع من بين الـ ١٦٠٠٠ رجل الذين وعدوا بالذهاب، إلاّ ٤٠٠٠ في الموعد المحدود في النخيلة، ولكن هذا العدد كان كافياً للقتال. وكان فيهم عرب من كل القبائل وكثير من القرّاء، ولكن لم يكن فيهم أحد من الموالي. ومع أنه كان فيهم معدمون فقد كانوا جميعاً راكبين ومسلّحين جيداً. وفي يوم الجمعة الخامس من ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ (السبت[١] ١٩ نوفمبر سنة ٦٨٤ م) مضوا إلى كربلاء وهناك بقوا يوماً وليلة عند قبر الحسين واعترفوا بخطيئتهم وأخذوا العهود على أنفسهم وهم يبكون، وكان الزحام على القبر أشد منه عند الحجر الأسود في مكّة[٢]. ثم ساروا عبر الفرات فأخذوا على الحصّاصة ثم على الأنبار ثم على الصدود (أو صندوده) ثم على القيّارة وهيت، وخرجوا من هيت حتى انتهوا إلى قرقيسيا، وبها زفر بن الحارث الكلابي على رأس بني قيس يعارض حكم الأمويين، فوضع لهم سوقاً فتسوقوا منها. ثم أخبرهم بتحركات عبيد الله وكان آنذاك في الرقة، ونصحهم قائلاً: «إني للقوم (أصحاب عبيد الله والأمويين عامة) عدوّ وأحبّ أن يجعل

---

(١) يبدأ من مساء اليوم السابق.

(٢) تقديس الشهداء إذن يرجع إلى أصل عربي لا فارسيّ.

الله عليهم الدائرة، وأنا لكم وادّ أحبّ أن يحوطكم الله بالعافية. إن القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادّة في أيديكم، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم له آمنون[١]» (الطبري ٢/ ٥٥٤). ففعلوا كما أشار زفر، فانتهوا إلى عين الوردة فنزلوا في غربيّها وعسكروا واستراحوا، تحمي ظهورهم المدينة. وأقاموا هناك خمسة أيام قبل أن تهاجمهم فرقتان من فرق جيش الشام الخمس. وبدأت المعركة في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (يوم الأربعاء ٤ يناير سنة ٦٨٥) واستمرت حتى يوم الجمعة[٢]. وقاتل الشيعة قتال الأسود، ولكن رمي النبال قضى عليهم، فلم ينج منهم

---

(١) إن الطرق البرّي من الشام إلى العراق يمر بمنبج أو الرقة ويجتاز نهر الفرات ثم يمر برأس عين (= عين الوردة) حتى يصل إلى الدجلة (الطبري جـ ٢ ص ٥٥٤ س ٥، ص ٧٨٣ س ١٦) أما الطريق المائي فيمتد من الأنبار ويمر بنهر ملكه إلى المدائن.

(٢) في الطبري جـ ٢ ص ٥٧٦ س ٢ أن المعركة وقعت في ربيع الثاني، ويؤيد هذا كلام المختار (ص ٥٧٩ س ٧) وبهذا تطول المعركة إلى أكثر من عشرة أيّام ولكن أقلّ من شهرٍ، إلى أنْ قضي نهائياً على سليمان. ولكن التواريخ الدقيقة التي يقدمها أبو مخنف تستحق الترجيح، لأن الشيعة احتفظوا جيدا بتواريخ أيام شهدائهم.

إلاّ قليل أنبّهم ضميرهم لأنهم لم يبلغوا هدفهم. ولم يطاردهم في انسحابهم أحد، والتقوا في الطريق بإخوانهم من أهل البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى الميدان في الوقت المناسب فقرروا العودة إذ كان الأوان قد فات. فبكى الجميع ومضوا بعد ذلك في طريقهم.

وكان الشعور بالخطيئة أكثر من واجب الانتقام هو الذي دفع هؤلاء الشيعة إلى القتال والموت. ولو كانوا قد بذلوا للحسين وهو حيّ نصف ما بذلوا وهو ميّت فلعل مجرى الأمر أن يكون قد تغيّر. وراوي أخبار «التوابين» هو أبو مخنف، وينقل خصوصاً عن حُمَيْد بن مسلم الأزدي الذي كان قد اشترك في قتل الحسين ثم عاد فأصبح من أشدّ أنصاره حماسة، والشاهد الشاعر لدى أبي مخنف هو أعشى همدان (الطبري جـ ٢ ص ٥٧٢ وما يليها). وتشغل الخطب مساحة واسعة، وليست مصنوعة بل منقولة تناقلها الرواة. وفي موضع من المواضع يذكر أن استهلال إحدى خطب سليمان قد نسبه الراوي، وفي مرتين يذكر أن الراوي سمع خطبة الداعي الشيعي عدة مرات حتى حفظها عن ظهر قلب. ونص إحدى الروايات منقول عن ذاكرة رجلٍ، قرأ الأصل في أيام خلافة سليمان وسرعان ما استظهره.

ـ ٤ ـ

كان اندحار سليمان بن صُرَد وجماعته في عين الوردة نقطة تحوّل حاسم في التاريخ الداخلي للشيعة. والفضل في هذا التحوّل إنما يرجع إلى المختار بن أبي عبيد، وهو ثقفي كالمغيرة وزياد وعبيد الله والحجّاج، ولا يقل عن هؤلاء شأناً، وإن كان من طبيعة أخرى مخالفة لطبائعهم تمام المخالفة[١]. كان من أسرة كريمة، وقاد أبوه المعركة ضد الفرس عند البُوَيْب (النُّخَيْلة) وقتل في هذه المعركة البائسة، وتزوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب ذو المكانة البارزة المرموقة، كما تزوج بنت النعمان بن بشير الأنصاري ذي المكانة الرفيعة كذلك. وكان له في الكوفة بيت، وكان له بالقرب منها ضيعة. أما ماضيه فيحيط به الغموض[٢]، ولم يظهر على المسرح العام إلاّ بعد أن بلغ الستين من عمره

---

(١) كتب عنه فان خلدر Van Gelder رسالة مفصلة قيمة جداً، طبعت في ليدن سنة ١٨٨٨ عند برل Brill.

(٢) ورد في الطبري جـ ٢ ص ٢ س ١٤ (ص ٥٢٠ س ١١) أن المختار وهو غلام شاب أشار على عمه وكان عاملاً على المدائن بأن يوثق الحسن بن أبي طالب ويستأمن به إلى معاوية. ولكننا نراه (الطبري جـ ٢ ص ١٣٤ س ٤) يروغ من زياد بن أبيه حينما طلب منه أن يوقع عريضة الشكوى ضد حجر بن عدي. ـ والرواية الواردة في الطبري جـ ٢ س ٧٤٦ ـ ص ٧٤٨ لا تستحق أي رد.

فكان شيعياً غيوراً. قدم من ضيعته في خطرنيه مع مواليه إلى الكوفة لما أن اضطرب الأمر بوفاة معاوية، وآوى مسلم بن عقل واشترك في حركته التي كانت قبل أوانها[١]. وخلص من يد عبيد الله بعين مشتورة بعد أن تشفع لديه فيه بعض الأصدقاء الأخيار، ولكنه نفى خارج الكوفة[٢].

فذهب إلى الحجاز، وفي الطريق لقي ابن العرق[٣] فذكر له كيف أن عبيد الله ضربه على عينيه وقال: «قتلني الله إنْ لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إرْباً إرباً... يا بن العرق! إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها، فإذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل إن المختار في عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بألطف سيد المسلمين وابن سيدها، الحسين بن عليّ. فوربّك لأقتلنّ بقتله عدّة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا. قال (أي ابن

(١) الطبري جـ ٢ ص ٢٧٢، ص ٥٢٠ وما يليها.

(٢) الطبري جـ ٢ ص ٥٢٢، قارن ص ٥٣٦ وما يليها، ص ٦٠٠.

(٣) يظهر أن هذا الرجل كان مشهوراً، ولكنني لم أستطع تحصيل معلومات عنه.

العرق): فقلت له (أي للمختار): سبحان الله! وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى. فقال (المختار): هو ما أقول لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقه. ثم حرك راحلته فمضى» (الطبري جـ ٢ ص ٥٢٤). ثم سأله عن ابن الزبير فعلم أن هذا الأخير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك قطعاً حينما يشعر بأن لديه قوة كافية. فمضى إلى ابن الزبير وطلب منه أن يطلب مبايعته علناً وعرض عليه المساعدة. ولكنه قال ذلك علناً حتى أن ابن الزبير تركه يذهب إذ غضب أن يكلّمه في المسجد بصوت عال فيذيع السر، «فهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة» (الطبري جـ ٢ ص ٥٢٧ س ١١ ـ ١٢). فخرج المختار من المسجد وظل لا يرى حَوْلاً في مكّة[١]؛ إلى أن ظهر من جديد فجأة في مكة ودخل المسجد وتبدى في مظهر الرجل الخطير. هنالك أحسن ابن الزبير معاملته. وفي مستهل سنة ٦٤ قاتل في صفوف خوارج اليمامة ضد أهل الشام قتال الشجعان.

---

(١) تمثل بصورة الغريب في مدينة الطائف، وهي بلده الأصلي (الطبري جـ ٢ ص ٥٢٦ س ٨). ويفترض فان خلدر (ص ٢٩) أنه كان آنذاك على اتصال بابن الحنفيّة في المدينة.

ولكنه لم يجد في مكة ما قَدَّر له. وبعد طرد عبيد الله من العراق اتجهت أنظار المختار إلى الكوفة. وكان لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس وهيئتهم؛ فأخبر أن الناس في الكوفة في «صلاح واتّساق على طاعة ابن الزبير، إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما. فقال المختار: أنا أبو اسحق، أنا والله لهم، أنا أجمعهم على مرّ الحق وأنفى بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد» (الطبري جـ ٢ ص ٥٣١). ولم ينقد لتحذير من حذره من قيام حرب أهلية بين الناس ومن عذاب يوم القيامة، بل كان موقناً بالنصر تمام اليقين.

فبعد وفاة يزيد بن معاوية بخمسة أشهر وبضعة أيام خرج في الطريق إلى الكوفة «حتى انتهى إلى بحر الحيرة فنزل فاغتسل فيه وادّهن دهناً يسيراً ولبس ثيابه واعتمّ وتقلّد سيفه. ثم ركب راحلة فمرّ بمسجد السّكون وجبانة كندة، لا يمرّ بمجلس إلا سلّم على أهله وقال: أبشروا بالنصر والفَلْج، أتاكم ما تحبّون» (الطبري جـ ٢ ص ٥٣٢) وظل يسير في شوارع الكوفة وفي المسجد وهو يقول نفس الكلام: أبشروا بالنصر واليسر والفلج، وكان

يصحبه اثنان من بني كندة، وكان الوقت وقت صلاة الجمعة في يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٤ هـ (٦ مايو سنة ٦٨٤)، فصلّى مع الناس ثم ركن إلى سارية مدة طويلة وصلّى ما بين الجمعة والعصر، فلما صلى العصر مع الناس انصرف.

كان ينوي أن يتزعم الشيعة، ولكنه لم يستطع أن ينال هذه الزعامة من سليمان بن صرد، رغم ما صادفه من بعض النجاح. ولكنه تخلص من سليمان بما وقع لهذا الأخير في حملته المشؤمة ضد أهل الشام. هنالك استطاع أن يرث زعامته وهو مرتاح الضمير، لأنه طالما حذر من القيام بتلك المغامرة وتنبأ بالمصير، السيء الذي آلت إليه وراح في خطبه يعلن مقدماً هذا الإخفاق. فأخذ يمسك بزمام الأمر بيد قوية وأراد أولاً أن يبدأ بامتلاك ناصية الكوفة فوجّه الشيعة في هذا الاتجاه. هنالك شعر الأشراف بأن ثمت خطراً يتهددهم فلفتوا نظر الوالي، عبد الله بن يزيد، إلى حركات هذا الرجل الخطير. فأودع السجن، وكان ذلك قبل معركة عين الوردة. ومن سجنه كتب إلى أولئك الذين نجوا من الهزيمة يقول: لم يكن سليمان الزعيم الحق، بل أنا، أنا، أنا! وأرادوا إنقاذه

من السجن، فقال لهم لا داعي لذلك لأنه سيخرج منه قريباً. والواقع أنه أطلق سراحه بشفاعة صهره عبد الله بن عمر، ولكن بعد أن أخذ على نفسه ميثاقاً غليظاً وذلك بأن حلّفه عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة «ألا يبغيها غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكه كلهم: ذكرهم وأُنْثاهم ـ أحرار. فحلف لهما بذلك ثم خرج فجاء داره فنزلها» (الطبري جـ ٢ ص ٦٠٠). ولكنه راح يسخر من هذا الحلف قائلاً إنه يفضل أن يدفع هذه الكفّارة وأن يضحى بكل ما يملك على أن يتخلى عن طلب السلطان. على أنه لم يحتج حتى إلى الحنث في يمينه، إذ قدم الكوفة في يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ٦٥ هـ (١٤ مايو سنة ٦٨٥ م) والٍ جديد لم يكن قد حلف له، هو عبد الله بن مطيع القرشى وكان أشد أنصار ابن الزبير حماسة («الأغاني» جـ ١٣ ص ١٦٨ وما يليها).

وكان على هذا الأخير أن يشد العنان في الكوفة أكثر مما فعل سلفه الليّن. فانتهز أول فرصة ليعرض من فوق المنبر برنامجه السياسي، فقال: «أما بعد! فإنّ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مصركم وثغوركم،

وأمرني بجباية فيئكم وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم، ـ ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفّان التي سار بها في المسلمين. فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا على أيدي سفهائكم. وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني، فوالله لأوقعنّ بالسقيم العاصي، ولأقيمن درأ الأصعر المرتاب» (الطبري جـ ٢ ص ٦٠٣). ولكنه بهذا إنّما مس قَرْحا فيهم لأن أهل الكوفة جميعاً لم يرضوا أن يؤخذ فضلى الفيء، بل طالبوا بالابقاء عليه في الكوفة وتوزيعه، عملاً بما فعله علي وكانت الكوفة في عهده عاصمة الخلافة ومركز بيت المال المركزي، لا كما فعل عمر بن الخطاب أو كما فعل عثمان على الأقل. هنالك اعترض عليه أحد الشيعة في المسجد، واستغل هذا الشيعي الفرصة ليذكر الناس بعظمة الكوفة في عهد علي. فأسقط في يد الوالي وقال: «نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها. ثم نزل» (الطبري جـ ٢ ص ٦٠٤). وجاء إياس بن مضارب ـ وكان على رأس الشرطة وعليماً بأحوال الناس ـ إلى ابن مطيع ونبهّه إلى خطورة هذا الحادث وقال له إن هذا الذي اعترض عليك «من رءوس أصحاب المختار، ولست آمن المختار،

فابعث إليه فليأتك، فإذا جاءك فاحبسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس فإن عيوني قد أتتنى فخبرتنى أن أمره قد استجمع له وكأنه قد وثب بالمصر» (الموضع نفسه). ولكن أحد الرسولَيْن اللذين بعث بهما ابن مطيع ـ وكان من أهل يلده ـ أومأ إليه بما سيلقاه في مقابلته للوالي؛ ففهم واعتذر عن الذهاب بوعكة أصابته، وراح يستعد للخروج في مستهل العام الجديد، عام ٦٦ هـ. ولكن الأمور لم تمض بهذه السرعة التي قدرها.

وكان يعيش في المدينة أحد أبناء علي بن أبي طالب، واسمه محمد، وأمُّه ليست فاطمة بنت الرسول، بل من بني حنيفة[١]، ولهذا سمي محمد بن الحنفيّة. ـ قام المختار يدعو باسم محمد بن الحنفية، ويسميه «المهديّ».

وادعى المختار أنه «أمينه» و«وزيره». فشك نفر من الشيعة في صحة هذه الدعوى، فراحوا إلى المدينة ليتبينوا جليَّة الأمر من محمد بن الحنفية. فقال لهم هذا: «وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله

(١) وكان اسمها خولة («الأغاني» جـ ٧ ص ٤). وقد تزوج الحسن بن علي امرأة من فزارة اسمها خولة أيضاً («الأغاني» جـ ١١ ص ٥٦ [لا ٣٦ كما في نص المؤلف خطأ ـ المترجم]).

لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه»[١] (الطبري ٢/ ٦٠٧). بيد أن هذه الإجابة العامة المجملة كفت أولئك السريعى التصديق والإيمان، فعادوا بعد شهر وأخبروا المختار بجواب ابن الحنفية. فشعر المختار بأنه استراح من هَمٍّ ثقيل، ودعا في الحال إلى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من المرتابين.

ولكن كان عليه أن يكسب رجلا آخر في الكوفة نفسها، لا يستطيع من دونه أن يلقى رؤساء الشيعة نجاحاً ضد الأشراف والوالي. هذا الرجل هو إبراهيم بن الأشتر زعيم قبيلة النخع من مَذْحِج، وكان بارعاً ماكراً مستقل الرأي، وكان كأبيه مخلصاً لعلي، وكان على اتصال بابن الحنفية، ولكنه لم يكن يؤمن بالتشيع على الصورة التي استحال إليها في ذلك العهد. لم يشأ الانضمام إلى سليمان بن صرد كما لم يرغب في أن يعرف شيئاً عن المختار. ولم تفلح المحاولات في اكتسابه. وأخيراً وصله كتاب يطلب فيه ابن الحنفية نفسه منه أن يعترف بالمختار بن أبي عبيد. ولكنه تضايق من كون ابن الحنفية يلقب

---

(١) وتبعاً لهذا فإن افتراض فان خلدر المشار إليه آنفاً ص ١٩٩ تعليق ١ هو افتراض قليل الاحتمال.

نفسه في هذا الكتاب بلقب «المهديّ» وهو أمر لم يعهد منه، فحاك في صدره الشك في صحته. ولكن الذين قدموا بالكتاب، والمختار نفسه أكدوا صحة الكتاب، إلا اثنين لفتا نظره بتحفظهم، وهما: عامر بن شراحيل الشعبي الراوي الفقيه المحدث الكبير، وأبوه شراحيل. فانتحى بعامر ناحية وسأله هل يشك في أمانة هؤلاء الشهود على صحة الكتاب. فقال عامر الشعبي: معاذ الله فإنهم «سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً!» (الطبري ٢/ ٦١٢). فسأله ابن الأشتر أن يكتب له أسماءهم وكتب محضراً صورياً بما وقع. فلما اطمأن قلبه بهذا امتثل لما ورد في الكتاب ووضع نفسه في خدمة المختار بن أبي عبيد[١].

ومنذ هذه اللحظة صار يحضر الاجتماعات التي كانت تعقد للتشاور في المساء في بيت المختار بانتظام. ثم تم الاتفاق على بدء العمل في يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ. وعرف الوالي بالأمر وإن لم يعرف الموعد المضروب بالدقة، ومنذ يوم الاثنين احتلت الشرطة الميادين

(١) كذا يروى عامر الشعبي (نسبة إلى قبيلة شعبان، بطن من همدان) فيما ينقله أبو مخنف نفسه.

العامة والسوق القريبة من المسجد الجامع وكان على رأس الشرطة إياس بن مضارب، واحتل بنو تميم السبخة أمام البوابة تحت إمرة شَبَث بن رِبْعي، وأرسل إلى كل جبانة رجلاً من قبيلة هذه الجبانة «وأَوصى كل رجل أن يكفيه قومه وأنْ لا يؤتى من قبله وأنْ يحكم الوجه الذي وجهه فيه» (٢/ ٦١٤)[1]. وذهب إبراهيم بن الأشتر النخعي، في صحبة مائة رجل مسلح، في مساء الثلاثاء متجهاً إلى بيت المختار. وحرص على ألا يتجنب الشرطة فمشى في طريقه مباشرة إلى السوق، فاعترضه إياس بن مضارب، فقتله إبراهيم. وبهذا بدرت إشارة الخروج قبل الأوان المضروب وما كان على إبراهيم إلا أن يظهر رأس رئيس الشرطة للمختار حتى يعلم أنه من المستحيل تأجيل الخروج. ولكن

---

(١) «السبخة» سهل صحراوي فسيح أمام الكوفة من ناحية الفرات. وكانت السوق القريبة من المسجد الجامع تمتد إلى الكناسة. وإلى جانب ذلك كانت توجد ميادين صغيرة في الأحياء المختلفة، وكان اسمها بالفارسية «جهار سوج» (= مربع، الطبري ص ٧٣٣ س ١١)، وبالعربية «جبانة» (؟) وسميت بأسماء القبائل، وهي مساجد نسبتها إلى المسجد الجامع نسبة البيع الصغيرة إلى الكاتدرائيات، وهذه الميادين تناظر ميادين الكنائس. وكانت تستعمل في الأصل لدفن الموتى، ثم استعملت بعد ذلك لكل الأغراض الممكنة التي لا تصلح لها الأزقة للصغيرة الملتوية.

كان من العسير تنبيه أنصارهم أثناء الليل وحشدهم في الميادين المحتلة، ومع ذلك تم هذا كله دون قتال حقيقي، وفعل إبراهيم كل ما في وسعه. وفي صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ربيع الأول (١٨ أكتوبر سنة ٦٨٥) كان المختار قد نظم أتباعه، ونزل في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة، وهناك أقام صلاة الصبح معهم، وما كان ثم إمام يحسن الوعظ مثله. وكان في جيشه كثير من الموالي وكانوا له مخلصين كل الإخلاص.

وحشد الوالي أيضاً رجاله خلال الليل، وكان القائد في منطقة السبخة شبث بن ربعي ومعه يزيد بن رويم، هزم فصيلة صغيرة أرسلت لمهاجمته، ثم تقدم ناحية المختار. ولكن جيشه تراجع في البدء أمام العدو، فصاح فيهم شبث بن ربعي: «يا حماة السوء! بئس فرسان الحقائق أنتم! أمن عبيدكم تهربون!» (الطبري ج ٢ ص ٦٢٣). وكان لهذا الكلام أثره فقد هز فيهم وتر الشرف وأثار فيهم الحفيظة على الموالي، الذين كانوا يحاربون في صفوف المختار. فكان إذا هوجم أحد الموالي سقط صريعاً مقتولاً[١]، بينما كان

---

(١) خوطب أحد الموالي بهذه العبارات: «يا ابن المتكاء! تركت بيع الصحناة بالكناسة، وكان جزاء من أعتقك أن تعدو عليه بسيفك تضرب رقابه!» (الطبري ٢/ ٦٢٣).

الأسرى العرب يتركون يفرون. وأضحى جيش المختار في مركز حرج ـ وكان قائد فرسانه هو يزيد بن أنس الأسدي ـ بإزاء تفوق العدو وأوشك على الهزيمة رغم استماتته في الدفاع لولا أن أنجده في النهاية إبراهيم النخعي. وكان هذا في خلال تلك المعركة مشغولاً بقتال فرقتين من فرق العدو في المدينة فَصَل لقتالهما واستطاع هزيمتهما ثم أسرع لنجدة المختار. ولم يكد يظهر في الميدان حتى فرت جنود شَبَث بن ربعي من الميدان وولت الأدبار. وعاد هؤلاء إلى الاحتشاد في المدينة مرة أخرى وانضم إليهم الباقون خصوصاً في الكناسة، ولكن إبراهيم النخعي ـ الذي كان قادراً على كل شيء ـ فرق شملهم. هنالك فر الأشراف والوالي ـ ابن مطيع ـ إلى القصر فحوصروا فيه، وبعد هذا النصر زاد عدد الشيعة زيادة كبيرة. وبعد ثلاثة أيام تسلل ابن مطيع من القصر هارباً واستتر، أما الأشراف فأذعنوا وبايعوا المختار. وفي صباح اليوم التالى جاء المختار من القصر بعد أن بات فيه، فتلقى البيعة من الأشراف وغيرهم، وهو يقول: «تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المُحِلّين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا، لا نقيلكم ولا نستقيلكم» (الطبري ج ٢

ص ٦٣٣) ووجد في بيت المال تسعة ملايين جازى بها جنوده، فأعطى أصحابه الذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر ـ وهم الذين تحملوا حرارة اليوم ومتاعبه ـ وكانوا ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل كل رجل خمسمائة درهم، وأعطى ستة آلاف من أصحابه أتوه بعد ما أحاط بالقصر، فأقاموا معه تلك الليلة والثلاثة أيام حتى دخل القصر: مائتيْن مائتيْن.

استولى المختار إذن على الكوفة دون إراقة كثير دماء. فسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس والصلح بين الأحزاب. وفي أول الأمر تولى بنفسه القضاء بحماسة ومهارة، حتى أرهقه المنصب فعين قضاة[١]. وترك ابن مطيع يرحل بسلام، ومنحه مالاً وفيراً يستعين به في سفره. ولإنْ كنت دعوته للقتال تقوم على الثأر لمقتل الحسين، فقد منع أنصاره من القتل وارتكاب المظالم[٢].

---

(١) من المصلحة العامة أن يكون القاضى نائباً عن الحاكم يدافع عن جانبه.

(٢) الدليل على خطورة اختصار المادة التاريخية (عند ڤيل Weil) ما ذهب إليه ا. ملر جـ ١ ص ٣٨٠ حين قال: «لم يكن لدى المختار من أمر أدعى إلى التعجيل بعمله من أمر القبض على قتلة الحسين وقتلهم». فهذا يخالف الحقيقة كل المخالفة.

وعفا عن خصم له أساء إليه، وكان جزاؤه عن هذا الصفح أن مدحه خصمه بقصيدة يشكره فيها. ووفى بعهده للأشراف بالأمان، بل رغب إليهم أن يجالسوه وينصحوه كما كانوا يفعلون من قبل مع من سلفه من الولاة، وسر الحريصين على مصالح الكوفة الأصليين أن المختار فكّر في أن يجعل الكوفة مركزاً للخلافة الإسلامية مرة أخرى. واختار الموظفين والقواد من بين الطبقة العالية من النبالة الحربية العربية. ومع ذلك كانت العناية «بالمستضعفين» نقطة رئيسية في برنامجه. وكان يفهم من هذا الاسم البسيط الكثير الورود في اللغة الروحية أنه يقصد به المسلمون غير العرب، أعني الموالي، وكانوا يؤلّفون أكثر من نصف سكان الكوفة وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن التجارية، وترك لهم العرب المشغولون بالحرب والقتال مرافق الحياة المدنية[١]. وكانت غالبيتهم ـ من حيث الأصل واللغة ـ

---

(١) وكانوا كذلك يعملون في الضياع المجاورة للكوفة، مثل ضيعة المختار وقد أتى بهم منها. ولعلهم اختلطوا بالفلاحين الآراميين هناك. وعبد الله بن الزبير يسميهم في البيت الوارد في «الأغاني» (جـ ١٣ ص ٣٧ س ٢٧): «مجوس القرى ويهود القرى». ولكن هذا التعبير التحقيري يجب ألا يوقف عنده كثيراً. أما العرب المختصون بالقتال فكانوا متجمعين في المدن (الكوفة والبصرة)، وغير العرب لم يكونوا ينتسبون إليهم. والذي كان يهتم به المختار هو الوضع الاجتماعي للموالي، لا قوميتهم، =

من الفرس، جاءوا أسرى إلى الكوفة، واعتنقوا الإسلام هناك ثم أعتقهم سادتهم وانتسبوا إلى القبائل العربية موالي فيها بحيث كانوا في وضع هجين: فلم يعودوا عبيداً، ولكنهم، بقوا مع ذلك على ولاء لسادتهم وفي حاجة إلى حمايتهم، وعليهم واجب القيام بخدمتهم، وكانوا حاشيتهم في السّلم والحرب. وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق أكثر مما سمح لهم به سادتهم العرب. والآن انتعش أمل هؤلاء الموالي في التخلص من الولاء، وفي المشاركة التامة المباشرة في الدولة الإسلامية. أيقظ المختار هذا الأمل فيهم واجتذبهم إليه وزاد بهم مواليه الخصوصيين. وكان يوليهم معظم ثقته ويقربهم إليه كل القرب[١]، واختار منهم حرسه الخاص وتولى قيادة هذا الحرس واحد منهم. على أنه في بادئ الأمر لم يعيّن في المراكز الرئيسية إلا العرب، وكانوا في الأصل يؤلفون الأغلبية الكبرى في جيش الشيعة ويتكوّن منهم الفرسان. أما الموالي فكانت جمهرتهم العظمى من غير الفرسان وجرت العادة ألا يحملوا سيوفاً، بل كان سلاحهم

= ولم يخطر بباله قط أن يدافع عن الفرس بوصفهم فرساً. على أنه كان من الأهمية بمكان عظيم أن معظم الموالي كانوا من الفرس.

(١) لم يكن هذا أمراً شاذاً، بل قاعدة عامة عند أكابر العرب.

هراوات خشبيّة[١]. ولم يزد عددهم عند الثورة الأولى عن خمسمائة، ثم زاد عددهم بعد ذلك بسرعة زيادة عظيمة. ولكن العرب في الفريق المعادي الذين كانوا من الأشراف كانت لهم مصلحة في أن يصوّروا الأمر وكأنهم إنما كانوا يحاربون عبيدهم الذين لم يقنعوا بتحررهم بل أرادوا أيضاً أن يبسطوا أيديهم إلى الخراج وما ينفق منه من أعطية جارية[٢]. وهالهم أن يكافح الموالي في سبيل مصالحهم لا في سبيل سادتهم! وفتحت الكراهية بصائرهم، وأصبح هذا علامة مميزة منذ ذلك الحين على الحركة الشيعية الجديدة، ولم يكن ذلك أبدا بوضوح في أوّل الأمر. وعملوا على رسم الشيطان على الجدران بقصد استحضاره وإهاجة العداوة بين العرب والموالي. ولم يفلح المختار في اجتياز هذا المضيق.

---

(١) يقول أعشى همدان لأهل البصرة الذين تباهوا بانتصارهم على المختار إنه لا مجال للافتخار لأنهم إنما انتصروا على قوم عزل من السلاح (الطبري جـ ٢ ص ٦٨٤ س ١١). وقد لقبت الموالي بلقب «الخشبية» أو «الخشبيين» نسبة إلى هذه الهراوات الخشبية (الطبري جـ ٢ ص ٦٨٤ س ١٦، ص ٦٩٣ س ٤، ص ١٧٩٨ س ٤ وما يليه، ص ١٨٠٤ س ١٢، ـ «الأغاني» جـ ٥ ص ١٥٥، جـ ٨ ص ٣٣، جـ ١١ ص ٤٧، جـ ١٣ ص ١٦٦ وما يليها). وسميت أسلحتهم هذه باسم «الكافر كوبات» (الطبري جـ ٢ ص ٦٩٤ س ١٥). وهو اسم يطلق عادة على أنصار أبى مسلم.

(٢) الطبري ٢/ ٦٣١.

فلم يستطع كسب حزب العصبية العربية إلى جانبه، وكان في خطر أن يزعج الموالي. لقد منعهم من الانتقام من قتلة الحسين، أي من الأشراف، وتضايقوا من ترضيِّه للأشراف ومن محاولة إرضاء الطرفين. وأتاه قائد حرسه، أبو عمرة كيسان (مولى عرينة)، بهذه الأنباء. فكان على المختار أن يهدئ خواطرهم وأفلح في هذا بما تفوه به لهم من عبارات غامضة يستطيعون أن يفسروها كما يحلو لهم. ولكن هذا لا يدل أبدا على أنه لم يكن جاداً في سياسة التوفيق والمصالحة التي سلكها، ابتغاءَ المزج بين العرب والموالي في بوتقة الإسلام. ولم يَحِد عن هذه السياسة طوعاً، بل اضطرته الظروف القاهرة، فأرغم على تأليف حزب حكومي يستند إلى أولئك الذين يستطيع أن يضع فيهم معظم ثقته والذين انضموا إليه بعد النصر أفواجاً أفواجاً.

قوّت الأحداث الخارجية مركزه أولاً. فالعمال الذين أرسلهم إلى المقاطعات التابعة للكوفة قوبلوا بغير مقاومة، ولم يشذّ إلاّ المتمرد الورع عبيد الله بن الحر الجُعْفي الذي تحصّن في المدائن وأرض جُوخىٰ ورفض الطاعة له. ومن جهة أخرى أخفقت الحركة التي قام بها شيعة البصرة

لنصرته[١]. وظن المختار أنه يستطيع أن يتجنب العداوة السافرة بينه وبين ابن الزبير، على الرغم مما قام به من معارك ضد حكومة ابن الزبير في العراق، وحتى بعد أن منع المختار دخول الوالي الجديد إلى الكوفة بقوة السلاح، وهو الوالي الذي أرسله ابن الزبير محل ابن مطيع المطرود. فعرض المختار على ابن الزبير أن يتعاونا ضد العدو المشترك، وهو أهل الشام، الذين زحفوا على الجزيرة العربية سنة ٦٦ هـ حتى وصلوا إلى وادي القرى، وظفر بموافقة ابن الزبير على إرسال جيش قوامه ثلاثة آلاف من الموالي إلى المدينة تحت إمرة شُرَحْبيل بن وَرْس الهَمْداني، عليهم أن يعملوا مع جيش ابن الزبير المؤلف من ألفيْ جندي والذي زحف من مكة ضد أهل الشام، بقيادة عياش بن سهل الأنصاري[٢]. ولكن عياشاً تخلص من حلفائه المزعجين هؤلاء ـ فقد كانوا جميعاً من الموالي ـ عن طريق قتلهم غدراً واغتيالاً جباناً، ولا شك أنه فعل ذلك بأمر صريح من سيده (ابن الزبير) الذي كان ينشد نظيره في القسوة والغدر. وهي علاقة تكاد تكون من طرف واحد ـ نقول

(١) كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس في الطبري ٢/ ٦٨٥.

(٢) بعكس ما يقوله الطبري جـ ٢ ص ٦٨٩ س ١٢ قارن جـ ٢ ص ٥٧٩ س ١.

إنه جدد علاقته بابن الحنفية وعرض عليه أن يرسل إليه جنوداً إلى المدينة لمحاربة ابن الزبير إذا أعلن صراحةً تأييده للمختار. ولكن المختار لم يتلق من ابن الحنفية غير جواب سلبي احتفظ به لنفسه كما هو مفهوم. ثم أصبح ابن الحنفية بعد ذلك في موقف حمله على إعلان تأييده للمختار بل ودعوته إليه لمساعدته. ذلك أنه حدث في أثناء الحج سنة ٦٦ أن جاء ابن الحنفية إلى مكة[١] وهناك حاصره ابن الزبير في داخل الحرم هو ومن معه من أصحابه وهدده ابن الزبير بالموت إذا لم يبايع ابن الزبير في خلال مدة محددة. فلجأ ابن الحنفية إلى المختار واستطاع أن يبعث إليه برسالة يشرح له فيها ما وقع له وطلب منه النجدة. فقرأ المختار الرسالة علناً والسرور يغمره وأرسل في الحال جنوداً متطوعين إلى المدينة[٢]. وكان المائة وخمسون جنديا الأُوَل

(١) هذه هي المناسبة الوحيدة الممكنة التي لم تذكر عنها الروايات شيئاً.

(٢) كانوا من الموالي، ولكن القادة كانوا عرباً، وهم (الطبري جـ ٢ ص ٦٩٤، «الأغاني» جـ ٨ ص ٣٢ وما يليها) أبو عبد الله الجدلي (من جديل الأزد، راجع الطبري جـ ٢ ص ٦٥٦ س ١١) و(«الأغاني» جـ ١٣ ص ١٦٧ وما يليها) أبو طفيل [المترجم: في نص الطبري: الطفيل] بن عامر بن واثلة الليثي (الطبري جـ ٢ ص ١٠٦٥ س ١١، ص ١٠٦٧ س ١٥). وربما كانت الحملة على مكة قد وقعت في مستهل سنة ٦٧ هـ بعد معركة خازر، قارن ما يقوله الواقدي فيما أورده عنه الطبري جـ ٢ ص ٧٤٨.

كافين لإنقاذ ابن الحنفية، ولم يشأ هذا أن يجيبهم إلى طلبهم لما استأذنوه أن ينتقموا له من ابن الزبير. أما ابن الزبير فكان في أول الأمر متعالياً ضخم الصوت، ولكنه اضطر بعد ذلك أن يخفض صوته حينما توافدت أفواج من جنود المختار إلى مكة فوجاً إثر فوج. وكان مجموع الذين جاءوا ٤٠٠٠ رجل، فوزع ابن الحنفية عليهم المال الذي أتوا به إليه وعادوا أدراجهم.

وكان المختار قد سعى إلى فرصة تهيئ له القتال ضد أهل الشام، سعى إليها في بلاد العرب، ولكنه وجدها ـ دون أن يتوقعها ـ في العراق. فعند نهاية سنة ٦٦ هـ مضى أهل الشام ناحية الدجلة بعد انتظار طويل، بقيادة عبيد الله بن زياد. فبعث المختار لمواجهتهم ثلاثة آلاف من الفرسان[١] بقيادة يزيد بن أنس الأسدي، والتقى الجمعان في التاسع من شهر ذي الحجة سنة ٦٦ هـ (٧ يوليو سنة ٦٨٦) عند الفجر بالقرب من الموصل وكان جيش أهل الشام ضعف جيش المختار، ومع ذلك انتصر عليهم بعد قتال دام يومين. وكان يزيد بن أنس قد خرج للقتال وهو

(١) إنّ كونهم فرساناً قد يستنتج منه أنهم عرب، ولكن الواقع هو أنه كان من بينهم بعض الموالي (الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧ س ٦).

مريض، وقاد المعركة وهو مشرف على الموت، وكان على حمار يمشي معه الرجال يمسكونه عن يمينه وعن شماله بفخذيه وعضديه وجنبيه، ومات في المساء بعد أن انتصر جيشه. فلما مات أسقط في أيدي أصحابه، إذ كسر موته قلوبهم. هنالك قرر سائر القادة العودة، إذ لم يجرؤوا على مواجهة قوات أهل الشام الرئيسية وهي تقترب من ميدان المعركة في ثمانية آلاف رجل.

ولكن انتشرت في الكوفة إشاعة تقول إن الشيعة هزمهم أهل الشام، فأمر المختار، إبراهيم بن الأشتر بالمسير بجيش مؤلف من سبعة آلاف رجل إلى ميدان المعركة بأسرع ما يستطاع. وفي هذه الظروف ازدادت جرأة الأشراف على المختار، وهم قادة حزب العصبية العربية. وأخذوا يعتبون على المختار أنه تأمر عليهم بغير رضى منهم ولا بإذن من ابن الحنفية، وأنه أظهر هو وسبايته (ببدع ابتدعها في الإسلام) البراءة من أسلافهم الصالحين، وأنه أدنى مواليهم فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم من فيئهم، فسلبهم بذلك حقوقهم لأنهم أعتقوا عبيدهم على أمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم يرض المختار لهم بذلك حتى جعلهم شركاءهم في الفيء، وأخذ

هؤلاء العبيد فحرب بهم يتاماهم وأراملهم[١]. وكان شَبَث بن ربعي التميمي ـ الشيخ العجوز ـ هو الذي يتحدث باسمهم، فذهب إلى المختار يكلّمه في هذه الأمور. فوعده المختار بالنظر فيها وإرضائهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ثم سأل شيئاً: «إن أنا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم فيكم ـ أتقاتلون معي بني أميّة وابن الزبير، وتعطون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقه وما أطمئن له من الأيمان؟» (الطبري ٢/ ٦٥٠) ـ فلم يوافقه الأشراف على ذلك، بل قرروا أن يهتبلوا هذه الفرصة السانحة للقضاء على مغتصب السلطة (المختار)، وإن كانوا بذلك يخونون العراق لصالح أهل الشام. ولم يخرج على هذا القرار إلا عبد الرحمن بن مخنف ـ وكان فطناً حذراً، ومن أقرباء أبي مخنف الراوي ـ فإنه لم يوافق على خطتهم وقال إن المختار معه ليس فقط العبيد والموالي، بل وأيضاً شجعان العرب وفرسانها، وكلهم كلمتهم واحدة: «فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وإن انتظرتموه قليلا كفيتموه بقدوم أهل الشام أو بمجيء أهل البصرة، فتكونوا قد

(١) كان هؤلاء اليتامى والأرامل أحوج الناس إلى العبيد وأعجزهم عن الاحتفاظ بهم بالقوة.

كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم» (الطبري جـ ٢ ص ٦٥١) ولكنه لم يستطع إقناع الآخرين برأيه فاضطر أن ينزل عند رأي الجماعة. فلما مضى إبراهيم بن الأشتر للقاء أهل الشام، احتل هؤلاء الأشراف المراكز الرئيسية في الكوفة وحصروا المختار في القصر والمسجد وقطعوا الاتصال بينه وبين الخارج. وحتى يفسد عليهم تدبيرهم اقترح عليهم أن يبعثوا من قِبَلهم وفداً إلى ابن الحنفية ويرسل هو من قبله وفداً إليه لسؤاله في تأييد ابن الحنفية له، ولكن لم ينجح في هذا التدبير.

بيد أنه وجد الوسيلة والسبيل إلى إنباء إبراهيم بن الأشتر بما يجري وأمره بالعودة حالاً. ولم يحتج الرسول إلا إلى يوم واحد للوصول إلى ساباط على الدجلة وإبلاغ إبراهيم بالأمر، وفي مساء اليوم التالي وصل إبراهيم وجنوده إلى الكوفة وعسكر بهم خلال الليل بالقرب من المسجد.

وفي صباح اليوم التالي، يوم الأربعاء ٢٤ من ذي الحجة سنة ٦٦[١] استؤنف القتال الذي وقع من قبل في شهر ربيع. وتداخلت الأضداد بين الأحزاب كلما اتصل

(١) الطبري جـ ٢ ص ٦٦٧ س ٧. واسم اليوم الوارد هنا (٢٢ يوليو سنة ٦٨٦) كان يوم أحد لا أربعاء.

الأمر بالعرب. فكثير من الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت في صف المختار، انفصلوا عنه وانحازوا إلى صفوف الأشراف. نخص بالذكر القارئ الشهير رفاعة بن شداد الفتياني، وهو صديق قديم لسليمان بن صُرَد، بيد أنه انزعج انزعاجاً شديداً حينما سمع صيحة الأشراف: «يا لثارات عثمان!» ترن إلى جانب، وفي مقابل، صيحة الشيعة: «يا لثارات الحسين!»، فاندفع يائساً إلى هوة الموت. كذلك آذى عبد الله بن قراد الخثعمي أن يسفك دم بني أهله، ولكنه ظل مخلصاً للمختار. كما نجد من ناحية أخرى أن ابن شَبَث بن ربعي قاتل ضد أبيه بشجاعة وعناد. وقد اتخذ الأشراف وقبائلهم مراكزهم في ثلاثة مواضع من الكوفة. فمضر كانت في الكناسة، وأهل اليمن في جبّانة السبيع (المتصلة بالسبخة)، وربيعة كانوا في الخارج عند السبخة. وحمى وطيس القتال خصوصاً في جبانة السبيع حيث وقف المختار بنفسه يقاتل أهل اليمن، وكان هؤلاء خصوصاً من قبيلة همدان، لأن مذحج (وإليهم ينتسب إبراهيم) اعتزلت القتال. وكانت الضربة الحاسمة حينما قام بنو شبام فأتوا القوم من ورائهم وكانوا من بني جلدتهم، أعني من قبيلة همدان، واستطاع إبراهيم (الذي

لم يشأ أن يقاتل أهل اليمن) أن يمزق شمل مضر بغير صعوبة، وتشتت شمل ربيعة قبل أن يشهروا سيفاً. وكان أهل اليمن في الفريقيْن: فريق العصبية العربية وفريق الشيعة ـ أشد القوم قتالاً، على أنهم أقوى القبائل في الكوفة عدداً وبأسا.

ونادى منادي المختار، بعد أن تمّ له الانتصار، أنه من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلاً شرك في دم آل محمد، فاستثنى من الأمان من اشتركوا في قتل الحسين، وأطلق العنان للشيعة لينتقموا من قتلة الحسين بعد أن كان قد منع من هذا الانتقام. فتوالى القتل في الأسرى أولاً ثم في المسئولين الرئيسين عن مأساة كربلاء فاستخرجوا من مكامنهم وقتلوا، بدعوى أن ذلك بأمر من ابن الحنفية، هذا الشيخ المقيم في المدينة. وكان العبيد والموالي كالكلاب البوليسية وراء سادتهم القدماء، وكانت النسوة يخبرن عن أزواجهنّ. فقتل شَمِر بن ذي الجوشن، كما قتل عمر بن سعد ونفر كثير من أهل قريش. ومن استطاع من الأشراف أن يهرب هرب إلى البصرة عند مصعب بن الزبير[١].

---

(٢) هرب أسماء بن خارجة الفزاري، أبو زوجة عبيد الله بن زياد، إلى الشام، راجع «الأغاني» جـ ١٣ ص ٣٦ وما يليها (في ص ٣٧ [لا ٣٦ كما ورد خطأ في نص المؤلف] من ٢١ اقرأ: عَبِيدُها).

وهدمت بيوتهم في الكوفة، ولكن المختار ضمن حماية من خلفوا من النساء والأبناء والحرم (الطبري جـ ٢ ص ٧١٩). أما المختار نفسه فلم يكن أشد القوم تنكيلاً بهم، بل قد قتل كثيرون دون علم منه وعلى عكس ما أمر به. وخلى عن سُرَاقة بن مرداس البارقي لا لشيء إلاّ لأنه قال شعراً ذكر فيه أن أعداء المختار شاهدوا الملائكة تحارب في صف المختار وأنهم هربوا من هؤلاء الملائكة. ثم ألزمه المختار أن يعلن هذه الأكذوبة الشعرية من فوق المنبر وأن يحلف بصحة ما رأى، ثم طرده خارج الكوفة.

وبعد أن قضى المختار على هذه الفتنة عاد بعد يومين فأرسل إبراهيم بن الأشتر ضد أهل الشام وأمره بأن يهاجمهم متى لقيهم. وصحب بنفسه الجيش إلى الفرات ووعدهم بالنصر. والتقى الفريقان عند نهر خازر الذي يصب في الدجلة من خلال الزاب الكبير، ولم تذكر الروايات ـ وهذا أمر غريب! ـ تاريخ هذه المعركة، ولكن لا شك في أنها وقعت في الشهر الأول في سنة ٦٧ هـ (أغسطس سنة ٦٨٦)[١]. فانتصر الشيعة على عدوهم

---

(١) قضى على الفتنة في الكوفة ـ حسب رواية الطبري جـ ٢ ص ٦٦٧ ـ في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٦ هـ، وبحسب الطبري جـ ٢ ص ٧٠١ س ١ سار إبراهيم بجيشه بعد ذلك بيوميْن، أي في ٢٦ ذي الحجة، فلا يمكن أن يكون =

الذي كان يبلغ عشرة أضعافهم، بفضل مهارة قائدهم وبفضل شجاعتهم هم. ولم تطلق حمامات بيض[1]؛ وخيانة القيسيين في جيش أهل الشام ـ إنْ صح الكلام عن خيانة وقعت ـ إنما حدثت بعد أن تقرر مصير المعركة (الطبري جـ ٢ ص ٧١٢ وما يليها). وقتل عبيد الله بن زياد، وقتل الحصين بن نمير السكوني، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع ـ انتقاماً للمدن المقدسة وللحسين ولمالك الأشتر. وغرق معظم الهاربين من أهل الشام في الماء، ونهب عسكرهم. وبينما كانت الحملة الأولى التي أرسلها المختار، تحت قيادة يزيد بن أنس، من الفرسان، لم يكن في الحملة الثانية إلا قليل جداً من الفرسان (الطبري جـ ٢ ص ٧٠٩ س ٥، ص ٧٢١ س ١١ وما يليه)، أيْ أنها كانت تتألف من الموالي. وكانوا يضربون بالعمد على الخوذ والدروع التي يحملها جنود أهل الشام حتى كانت ترن رنين

= قد بلغ منطقة الموصل قبل العام الجديد. ولكن بحسب الطبري جـ ٢ ص ٧٠ س ٣ أنّ إبراهيم خرج يوم ٢٢ من ذي الحجة سنة ٦٦. فالحوادث التي وقعت بالكوفة، والتي بدأت بعد المعركة التي جرت عند الموصل في ٩ ذي الحجة بيومين، قد تدافعت على نحو أسرع مما جرى عليه الأمر في الواقع.

(١) هذه الخرافة وردت في الكامل ص ٥٩٨ وما يليها. ولعل هذه الحمامات إنما نشأت عن الملائكة الذين أشرنا إليهم سابقا وقلناً إن سراقة زعم للمختار أنهم شوهدوا يحاربون في صف المختار.

مياجن قصّارى دار الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ـ كما يقول راو قديم. وخجلت الروايات العربية من ذكر أسماء هؤلاء الأبطال. وبقي إبراهيم يرقب حركات أهل الشام في الموصل، بينما غزا أخوه لأمه نصيبين[١] ودارا وسنجار.

كان المختار في الذروة، وكان أيضاً أمام الهاوية. فالشيعة العرب من الجيل القديم كانوا لا يثقون به، حتى اعتزلوه جانباً. فلم يكن أمامه إلا المتعصبين والموالي، فانحاز إلى جانبهم ضد حرب العصبية العربية. لقد كان المتعصبون والموالي شديدي الإعجاب بقوة شعره بذاته والصورة الرائعة التي ظهر عليها هذا الشعور[٢]. وإنا لنسمع عن

---

(١) صمد الخشبية في نصيبين (بزعامة أبي قارب) مدة أطول ـ راجع «الأغاني» جـ ٥ ص ١٥٥.

(٢) بعد ارتحال إبراهيم ذهب المختار للقائه في الطريق، فلما جاز ساباط تنبأ لأصحابه فقال: إن شرطة الله (أي جيش إبراهيم بن الأشتر) قد حسوهم بالسيوف يوماً إلى الليل بنصيبين أو قريباً من نصيبين ودوين منازلهم إلا أن جلهم محصور بنصيبين (الطبري ص ٧١٥). ولما بلغ المدائن وصله أول رسل تنبئه بالنصر وكان على المنبر فقال: يا شرطة الله ألم أبشركم بهذا قبل أنْ يكون؟ قالوا: بلى، والله لقد قلت ذلك! (ص ٧١٥ ـ ص ٧١٦) فسُئِل شعبي: أَوَلا تزال لا تؤمن بأنّ المختار يعلم الغيب؟ فأجاب الشَّعْبى: لا أومن بذلك أبداً... إنما زعم لنا أنهم هزموا بنصيبين من أرض الجزيرة، وإنما هو نجازر من أرض الموصل». (الطبري جـ ٢ ص ٧١٦) ولكن السائل لم يكن يحفل بهذا التدقيق.

منظر مثير، حدث لما أن صحب إبراهيم إلى الفرات. فقد تدافع غلاة الشيعة عند الجسر الذي أراد المرور عليه، حتى اضطر إلى اتخاذ طريق آخر. وكانوا قد أعدّوا له كرسياً مقدساً يحمل على بغل ويقوم على سدانته سادن. وحول هذا الكرسي كانوا يتراقصون ويتواثبون بحماسة وجنون؛ وهم يسألون الله النصر، وكانوا في هياج مفهوم سببه الارتحال والخطر الشديد اللذان كانا على وشك مواجهته. وبدا هذا للعقلاء حمقاً وجنوناً. ويبدو أن المختار نفسه لم يكن مسئولاً عن ذلك، ولكنه لم يشأ أنْ يفسد على هؤلاء لذاتهم، إذ لم يكن في وسعه الاستغناء عن مساعدتهم، فهم الذين كانوا يخوضون النار من أجله.

انهزم أهل الشام، وشلّت سواعدهم سنوات. ولكن الخطر جاء الآن من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قِبَل أخيه الأكبر، الخليفة في مكة (عبد الله بن الزبير) ـ منذ نهاية سنة ٦٦ هـ أو مستهل سنة ٦٧[١] هـ. لقد حرّض الأشراف الهاربون من الكوفة، وخصوصاً منهم شبث بن ربعي التميمي ومحمد بن الأشعث الكندي،

---

(١) راجع الطبري جـ ٢ ص ٦٨٨ س ١٧ (وكذلك ص ٦٦٥ س ٧، ص ٧١٦ س ١٥) وقارنه بما ورد في جـ ٢ ص ٧١٧ س ١.

حرّضوه ضد المختار. وكانت جيوش البصرة تحارب آنذاك في الميدان ضد الخوارج، وقائدها المهلَّب لم يكن على استعداد تام للتحوّل عن الخوارج إلى موالي الكوفة يقاتلهم. وأخيراً رضى المهلّب وتولى قيادة جيش كبير خرج من البصرة قبل منتصف سنة ٦٧ هـ، واشترك في الحملة أيضاً أحد أبناء عليّ، وهو عبد الله. فبعث المختار بجيشه إلى المذار[١] على الدجلة، وهناك ينتظرون العدوّ، وعلى أساس نبوءة قديمة سيظفرون هناك بالنصر. ولكنهم منوا بهزيمة منكرة. ولم يظهر الظافرون أية رحمة، وكان أشدّهم قسوة الكوفيون الهاربون إلى البصرة فقد كانوا أشدّ الناس على أبناء بلدهم. وأعملوا السيوف خصوصاً بين الموالي. وقاتل الموالي بكل شجاعة، ولكن زملاءهم العرب من بجيلة وخثعم تخلّوا عنهم بصور مزرية، ولم يستطع الموالي الفرار لأنهم لم يكونوا راكبين. وقليل من الفرسان هم الذين استطاعوا النجاة.

---

(١) إنّ طريق الجيوش من البصرة إلى الكوفة لم يكن يمتد خلال الصحراء على الشاطئ العربي للفرات، بل على القنوات إلى الدجلة عند المدائن، ومن هناك يمر على القنوات من جديد إلى الفرات عند الأنبار. وكان المشاة ينقلون على السفن، بينما الفرسان راكبون بالقرب منها. ـ راجع ما يقوله الواقدي فيما نقله الطبري ص ٧٤٨ عن نبوءة الفتح بالمذار.

كان لهذه الهزيمة تأثير في الكوفة بالغ المدى. فتزعزعت مكانة المختار، لقد كذب هذه المرة، هكذا قال الموالي. وقال المختار (لما جاءه خبر الهزيمة): «قُتِلَتْ والله العبيد قتلة ما سمعت بمثلها قط» (الطبري ٢/ ٧٢٤)، أما المختار فلم يهن بل امتلأ عزماً وتصميماً. وذهب حتى نزل السيلحين[١] «ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة، ونهر السيلحين، ونهر القادسيّة، ونهر بُرْسُف ـ فسكّر الفرات على مجتمع الأنهار، فذهب ماء الفرات كلّه في هذه الأنهار، وبقيت سفن أهل البصرة في الطين. فلما رأوا ذلك خرجوا من السفن يمشون وأقبلت خيلهم تركض حتى أتوا ذلك السكر فكسروه وصمدوا صمد الكوفة» (الطبري ٢/ ٧٢٥). وزحف المهلّب من الأنبار قاصداً الكوفة فالتقى بالمختار وأصحابه في حروراء. وحمى وطيس القتال، فسقط محمد بن الأشعث، قائد الكوفيين في جيش أهل البصرة، سقط قتيلاً هو ومن معه، كذلك قتل عبيد الله بن علي بسيوف من ألّهوا أسرته. وأبقى المهلب على رجاله من الأزد وتميم احتياطاً، ولم يرجع إلى مصعب حينما طلبه ليكلّمه في هذا الأمر. فلما بدا له الوقت مناسباً، نزل بهم إلى

---

(١) راجع عن هذا الموضوع الطبري جـ ٢ ص ٩٢١ س ٨.

المعركة وكان هجومهم فاصلاً فيها. فامتلأ ميدان المعركة بجثث أكبر نبلاء شيعة الكوفة. وقاتل المختار طوال الليل وهو مترجل، حتى كاد أن يكون وحده في الميدان. وهنالك أذعن لرأي القلة التي بقيت معه والتي كانت تحثه على العودة، فعاد إلى قصره[١].

وكان إبراهيم بن الأشتر قد بقي في الموصل، وإن لم يكن في حاجة كبيرة إليه هناك ضد أهل الشام. ولعله كانت لدى المختار أسباب تدعوه إلى عدم دعوة إبراهيم، ذلك أنه لم يكن نصيراً مخلصاً كل الإخلاص. ولكن لو كان إبراهيم هناك، لاتخذت الأمور مجرى آخر بسهولة. فالجنود الشيعة كانوا أكفاء لقتال البصريين، ولكن كان ينقصهم القائد. وإبراهيم كان قادراً على المهلب. ولكنه بدلاً من

---

(١) لم يذكر تاريخ المعركة، إذ لا محل لاستنتاج شيء مما ورد في «الأغاني» جـ ١٣ ص ٣٨ س ١ قارن ص ١٦٧ س ١٦ ـ «السبعين»، س ٢٦. ولكن يمكن استخلاصه من كون المختار قد قتل (في رمضان سنة ٦٧) بعد ذلك بأربعة أشهر، وعلى هذا يكون تاريخها في منتصف جمادى الأولى سنة ٦٧ (أوائل ديسمبر سنة ٦٨٦). ويؤيد هذا أن القمر قد بزغ. ففي رواية الواقدي التي نقلها الطبري (جـ ٢ ص ٧٤٨ وما يليها) أن القتال بدأ حينما طلع القمر، ودفع البصريون متقهقرين حتى معسكرهم، وهناك دافعوا بشجاعة، وكان أصحاب المختار ينضمون إلى البصريين واحداً بعد واحد، حتى وجد نفسه في الصباح وحيداً.

ذلك صالح مصعب بن الزبير، وظل له مخلصاً حتى الممات.

وفي غداة المعركة زحف جيش البصرة حتى دخل (من المدخل الرئيس للسِّبخة) إلى مشارف الكوفة، ثم ضيقوا الخناق على المختار شيئاً فشيئاً وقطعوا عنه المؤونة[١]. وكان المختار يسيطر على القصر والمدينة الداخلية وكان معه عدة آلاف من الموالي ومئات قليلة من العرب، أما غالبية العرب فقد تسللوا إلى أسرهم. وكانت النسوة يحملن إليه الماء. ولكن بدأت هيبته في الزوال، وكان يلقى عليه الماء النجس حينما يمرّ خلال الطرقات. وأخيراً رأى نفسه محصوراً في القصر دون ماء ولا زاد. وبعد استمرار الحصار أربعة أشهر[٢] ـ والحصار هنا يقصد به القتال في الشوارع ـ طلب من أصحابه أن يشقوا طريقهم بالقوة. ولكن عبثاً. لقد رفضوا، وفضلوا أن يسلموا أنفسهم لرحمة العدوّ أو بطشه. هنالك خرج المختار في تسعة عشر رجلاً، فاضرب بسيفه حتى قتل، وذلك في ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ (٣ أبريل سنة ٦٨٧ م)، وكان عمره إذ ذاك سبعاً وستين سنة.

---

(١) كانت المدينة مفتوحة، ولم يكن محصناً غير القلعة. ولكن الدروب الضيقة سهلت عملية الدفاع.

(٢) الواقدي فيما ينقله الطبري جـ ٢ ص ٧٤٩.

وقتل مصعب جميع الذين سلّموا، ويتراوح عددهم فيما يذكرون بين الستة والثمانية آلاف. لقد أطلق مصعب العنان لانتقام أشراف الكوفة الذين أرادوا الثأر لدماء آبائهم وأقربائهم من الموالي، فاستحق من أجل ذلك أن يلقّب بلقب «الجزّار». ويروي أن مصعب لقي عبد الله بن عمر فسلم عليه وقال له أنا ابن أخيك، مصعب. فقال له ابن عمر: نعم! أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة! عِشْ ما استطعت! فقال مصعب: إنهم كانوا كَفَرة سَحَرة. فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سَرَفاً! «الطبري جـ ٢ ص ٧٤٥). ولكن أفظع أمر أثار السخط على مصعب هو قتله لزوجة المختار، عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري وقد أبت حتى اللحظة الأخيرة أن تنكر زوجها، بل قالت إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين[1].

---

(١) [المترجم: كذا في نص الطبري جـ ٢ ص ٧٤٤ س ١، ولكن النص الحرفي لكلام المؤلف هو: «أبت أن تنكر أن زوجها كان نبياً» ـ فالأدق ما أوردناه، ولكن يظهر أن المؤلف تأثر مما كتبه مصعب إلى عبد الله بن الزبير وقال عنها إنها تزعم أنه (أي المختار) نسي].

ثم إن مصعباً أمر بكف المختار فقطعت ثم سمرت بمسمار حديد إلى جنب المسجد[١].

والطبري ها هنا إنما يورد رواية أبي مخنف وحدها تقريباً[٢]. وأبو مخنف يروي غالباً عن راو آخر، وأحياناً كثيرة يروي عن شاهد عيان. ويهمنا منهم من ذكره من قبل مراراً وهو حُمَيْد بن مُسْلِم الأزدي (الطبري ص ٥٣٦ وما يليها، ص ٦٥٩)، ثم الشَّعْبي (ص ٦٠٩ وما يليها، ص ٦٨٤، ص ٧١٥ وما يليها) وعبد الرحمن بن عبيد أبو الكنود (ص ٦٦٣ س ١٠)، والثلاثة جميعاً كانوا في صف المختار ثم انفصلوا بعد ذلك عنه. وبالجملة فإن الرواة الأوائل كلهم تقريبا من المنشقين والمتحولين من حزب إلى حزب. وليس منهم واحد من الموالي، باستثناء شخص واحد (ص ٦٢١ س ١٠). فرواياتهم إذن صيغت من وجهة نظر العرب. والموالي يبدون جمهوراً

---

(١) كان ورثته يعيشون في الكوفة بعد ذلك بزمان طويل، راجع الطبري جـ ٣ ص ٤٦٨ س ٥: البلاذري ص ٣٠٨، ص ٣٦٦.

(٢) ومعها رواية المدائني في ص ٦٨٠ س ١٢، ص ٧١٧ س ٣، س ١٧، ص ٧٤٩ س ١٧، ورواية الواقدي ص ٧٤٨ س ٣، وروايات أخرى في ص ٦٥١ س ٢٠، ص ٦٦٥ س ١٣، ص ٦٨٤ س ٤، ص ٧٠٢ س ١٧، ص ٧١٤ س ٢، ص ٧٣١ س ٤ ص ٧٤٦ س ١٧.

غامضاً خالياً من الأسماء، بينما الأسماء العربية تزحم هذه الروايات. أما الشيعة بوصفهم شيعة فثمت ميل إليهم لا تحامل عليهم، والآلام التي عانوها قد بالغ في وصفها ـ بصورة مروعة ـ أحد زعمائهم في خطبة رائعة (الطبري جـ ٢ ص ٦٢٤ س ١٣ وما يليه). وعدا هذا فإنه يلوح أن وصف أبي مخنف «للوقائع» على وجه العموم لم يداخله بعدُ تحيز. وتبدو الدقة التامة في بعض البيانات التاريخية وفي كل البيانات الجغرافية، ولا غنى عن خريطة[1] للكوفة القديمة من أجل فهمها فهماً تاماً. أما أقوال الموالي فترد أحياناً بنصها، أعني بالفارسية، وهذا شبيه ببعض أقوال يسوع المسيح التي وردت في إنجيل مرقص بأصلها الآرامي. ويذكر من الشعراء: عبد الله بن همّام (الطبري ص ٦٣٦ وما يليها، ص ٦٤٠ وما يليها)، سُراقة بن مرداس (ص ٦٦٤ وما يليها، ص ٧١٦)، مسكين بن عامر بنُ أَنْيف بن شُرَيْح بن عمرو بن عدس (ص ٦٨٥ وما يليها)، المتوكّل الليثي (ص ٦٨٦، ص ٧٠٥)، عمر بن أبي ربيعة (ص ٧٤٤)، سعيد بن عبد الرحمن

---

(١) [المترجم: عمل لوي ماسينيون خريطة دقيقة للكوفة القديمة فراجعها].

ابن حسان بن ثابت (ص ٧٤٥ وما يليها)، عقبة الأسدي (ص ٧٥٠) وعلى وجه التخصيص أعشى هَمْدان (ص ٦٧٠، ٦٧٤، ٧٠٤ وما يليها، ٧٢٣، ٧٢٩ وما يليها).

ـ ٥ ـ

كان المختار يُنْعت بأنه سحّار (الطبري جـ ٢ ص ٧٣٠ س ١٣)، وأنه «الدّجّال» (الطبري ص ٦٨٦ س ٧)، ويوصف عادة بـ «الكذّاب». وهذا الوصف لا لأنه زعم أنه مكلّف من قِبَل ابن الحنفية، بل لأنه تبدى على أنه نبي. حقاً إنه لم يسم نفسه بهذا الاسم، ولكنه أتى أفعالاً من شأنها أن تعطي عنه هذه الفكرة، فكرة أنه نبيّ. وكان يتكلم وكأنه جالس في الحضرة الإلهية، يعلم الغيب، ويسجع سجع الكهّان بطلاقة ومهارة. ويريد أن يفرض شخصيته على الناس، وأفلح في هذا أيضاً وإن كان نجاحه لدى الخاصّة والعقلاء أقلّ منه لدى العامّة والدّهماء. وطالما حالفه النصر اتسعت دوائر المؤمنين به. فلما مني بالهزيمة أدبرت عنه الدنيا. وراحت الروايات تطلق سهامها على ذكراه بعد مقتله. في البدء كانت تذمّه دون أن تشوه صورته. ولكنها راحت بعد ذلك في مرحلة

متأخرة تنعته بنعوت أملاها الحقد. وهذه النعوت نفسها هي التي تسود الصورة التي كونتها عنه الأجيال التالية. ودوزي لا يستخدم غيرها لرسم الصورة التي عملها للمختار في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام»[١]: فيقول عنه إنه هو الذي أمر بإطلاق الحمام البيض، وأنه كان خارجياً ثم زبيرياً ثم شيعيّاً، وأنه ابتدع القول بالبداء[٢] في الله كيما يبرر تقلّبه هو من مذهب إلى مذهب[٣]. ولكن لا يحق للمرء أن يجعله معرضاً للسخرية من أجل أن يفهمه على حقيقته. ولحسن الحظ كان لنشر «تاريخ» الطبري الفضل في وضع حد لهذا النحو من تصوير الرجل.

فإنْ كان لا بد من الإجابة عن السؤال: هل كان المختار نبيَّاً صادقاً أو متنبئاً كاذباً؟ ـ فلا مناص من تعديله

(١) Dozy: *Essai sur l’Histoire de l’Islamisme*, p. 223 sqq.

(٢) [البدء في الله: أي أنّ الله يعدل عن رأي إلى رأي آخر].

(٣) في الطبري ج ٢ ص ٧٣٢ أن الذي كان يقول بهذا القول (سورة ١٣ آية ٣٩: يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب) هو ابن نوف، وليس هو المختار. أما أنه ـ مثل الخوارج ـ حارب مع ابن الزبير ضد أهل الشام، فهذا أمر لا يجعل منه خارجياً ولا زبيرياً. أما عن الحمامات فراجع ما قلناه من قبل ص ٢٢٤ تعليق، ودوزي يفسرها بأنها حمام زاجل أريد به أن يبلغ المختار أنباءاً سريعة عن نتيجة المعركة، وبهذا يريد دوزي أن يضفى طابعاً عقلياً على معجزة اصطنعت اصطناعاً.

إلى هذه الصيغة: أكان المختار مخلصاً أم غير مخلص؟ قد يأخذ عليه المرء أنه استعان بالتنبؤ للوصول إلى الحكم، ولكن هذا المأخذ عينه قد يؤخذ على محمد، وعلى المرء أن يلاحظ أن الإسلام دين سياسي وأن أي نبي مسلم لا بد أن يسعى إلى الحكم. ولكن ما هو أشد من ذلك المأخذ خطراً وأكبر وزناً هو أن تستر وراء شبح وناطور خيالى (هو محمد بن الحنفية) لم يعرف عن أمره شيئاً ولم يشأ أيضاً أن يعلم عن أمره شيئاً. فلم يكن ضميره نقياً من هذه الناحية، ولكن الظروف في ذلك الحين لم تسمح له ـ بوصفه مسلماً وشيعياً ـ أن يظهر باسمه هو الخاص، بل كان عليه أن يخلق لنفسه مركز «أمين» للمهدي المستتر، وبهذا أعطى نموذجاً لما سنراه في المستقبل. وأمثال هذه الطبائع الجِنّية تكون دائماً حافلة بالغموض والأسرار والمشاكل، والوضوح التام لا يكاد أن يكون صفة ممدوحة فيها. فالمسألة عن إخلاصه لا تتعدى السؤال عما إذا كان هو نفسه مؤمناً بنفسه. ويلوح أن الأمر كان كذلك في البداية. ثم استيقظت في الشيخ فجأةً مشاعر الضمير الأعلى. فتحالفت فيه الأثرة مع الثقة الدينية الثابتة كالطود الراسخ. وهو حينما لم يكن بعد شيئاً وكان يعرّض نفسه

لأعظم الأخطار، كان يبهر العالم بما اتصف به من ثقة ظافرة بالنفس ووضوح بارز في تحديد أهدافه. أما أن ذلك كان آنذاك مجرد تمثيل مسرحي، فهذا أمر لا نكاد نملك افتراضه، بل الأحرى أن يقال إنه كان شديد الإيمان بنفسه، وعن هذا الطريق أوجد الإيمان به في نفوس الآخرين وحرّك الجماهير. حقاً أنه اضطر بعد ذلك إلى النفخ في الرماد لضمان اشتعال النار، ولكنه كان قد كوّن فكرته وراح من بعد يخاطر بنفسه، وقد دفعه أنصاره العُمْى إلى ما تجاوز نطاق إرادته، وقد كان في حاجة إلى تعصّبهم ولم يكن في استطاعته كبح جماحهم حتى لو حاول ذلك. والحاسم دائماً هو البداية، والحماسة لا تبقى أبداً صافية على حالها، وما أسهل أن يستحيل «النبي» إلى «متنبئ»! ومن الإفك الصّراح أن يقال إنه في محنته الأخيرة قد اعترف ـ مستهزئاً ـ بنفاقه وإنه سخر من أنصاره المخلصين. إذ يكفي لتفنيد ذلك أن زوجته، وهي عربية نبيلة من المدينة، استشهدت في سبيله بعد مقتله، لأنها لم تشأ إنكار إيمانها به. وكان ثمت آخرون ظلوا على الإخلاص لذكراه بعد مصرعه. وعند دير الجاثليق لما أثخن مصعب بن الزبير بالرمى نظر إليه زائدة بن قدامة ثم شد عليه فطعنه وقال:

«يا لثارات المختار!» (الطبري جـ ٢ ص ٨٠٩) وصرع مصعباً، سفّاك الدماء.

على أن التاريخ، في نهاية الأمر، ليس من شأنه أن يستبعد القلوب، بل شأنه أن يقدّر أعمال الناس. وأيّاً ما كان الأمر في شأن طبيعة المختار، فإنه قد أحدث آثاراً لا يبالغ في تقديرها بسهولة.

كان التشيّع في الكوفة آنذاك قد لبس ثوباً جديداً، وقد عرفنا من قبلُ المعنى الذي كان يدل عليه في الأصل، لقد كان تعبيراً عن الاتجاه السياسي العام لمعارضة العراق لسلطان الشام. وفي بادئ الأمر كان الأشراف صفّاً واحداً مع سائر الناس ويتولون قيادتهم. ولكن حينما أحدق الخطر تراجعوا واستلانوا لإغراء الحكومة (حكومة الأمويين في الشام) ثم استُخدموا للقضاء على الثورات الشيعية. وبهذا انفصلوا عن الشيعة، فتحدد نطاق التشيّع واتخذ شيئاً فشيئاً صورة فرقة دينية في تعارض مع الأرستقراطية ونظام العشائر، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالي خيالي. وكان أنصار سليمان بن صُرَد يرمون إلى الثورة على أرستقراطية العشائر في الكوفة. ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عملياً.

وإلى هذه

الحركة اجتذب الموالي أيضاً. وهؤلاء كان اجتذابهم سهلاً لأنهم كانوا ذوي نزعة واضحة إلى الحكم الديني، لا القومي الشعوبي، وإن كان العرب هم الذين كانوا يتولونه حتى ذلك الحين، كما كانوا ـ أعني الموالي ـ يكرهون المتعصبين لسيادة العرب.

فلما ارتبطت الشيعة بالعناصر المضطهدة تخلّت عن تربة القومية العربية. وكانت حلقة الارتباط هي الإسلام. ولكنه لم يكن ذلك الإسلام القديم، بل نوعاً جديداً من الدين (الطبري جـ ٢ ص ٦٤٧ س ٦، ص ٦٥١ س ٢)، اتخذ نقطة ابتدائه من بدعة غريبة غامضة اختلط بها المختار وهي «السّبئيّة». والسبئية كانت قد اتخذت اتجاهاً أنشأ يسيطر على طبقات واسعة بحيث اضطرت الشيعة بوجه عام إلى اتخاذ موقف أشدّ حدّة بإزاء الإسلام السّني وازداد إبراز الخلافات بين الشيعة والسنّة. والسبئية يسمون أيضاً «الكيسانية» وكان كيسان زعيماً للموالي[1]، فإن كان في نفس الوقت زعيماً للسبأية، فيستنتج من هذا أن السبئية

(١) راجع فان خلدر Van Gelder في كتابه المذكور آنفاً، ص ٨٢. ولكن مؤرخي العقائد المتأخرين ترددوا فيما إذا كان كيسان مولى لعلي أو لابن الحنفية، إنهم لا يعرفون التاريخ الصحيح.

والموالي كانوا شيئاً واحداً تقريباً (ص ٦٢٣ س ١٤، ص ٦٥١ س ٢). واعتماداً على هذا الاستنتاج مضى البعض فزعم أن التشيّع كمذهب ديني إيرانيٌّ الأصل، لأن غالبية موالي الكوفة كانوا إيرانيين. قال دوزي (في كتابه المذكور آنفاً، ص ٢٢٠ وما يليها): «كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربي، الذي يحب الحرية، وبين الجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيد. لقد كان مبدأ انتخاب خليفة للنبيّ أمراً غير معهود ولا مفهوم، لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يترك ولداً يرثه، فإن عليّاً هو الذي كان يجب أن يخلفه وأن الخلاف يجب أن تكون وراثية في آل عليّ. ومن هنا فإن جميع الخلفاء ـ ما عدا علياً ـ كانوا في نظرهم مغتصبين للحكم لا تجب لهم طاعة. وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا في الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثروات سادتهم، وهم قد اعتادوا أيضاً أن يروا في ملوكهم أحفاداً منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوفير الوثنيّ إلى علي وذريته. فالطاعة المطلقة «للإمام» الذي من نسل عليّ ـ

كانت في نظرهم الواجب الأعلى، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب، استطاع بعد ذلك بغير لائمة ضمير أن يفسّر سائر الواجبات والتكاليف تفسيراً رمزياً وأن يتجاوزها ويتعداها. لقد كان «الإمام» عندهم هو كل شيء، إنه الله قد صار بشراً. فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات ـ ذلك هو الأساس في مذهبهم. وعلى نحو مشابه يتحدث أ. ملّر في كتابه المذكور سابقاً جـ ١ ص ٣٢٧، ويضيف إلى هذا أن الفرس كانوا ـ تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل ـ يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسّد لروح الله التي تنتقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء.

أما أن آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين ـ فهذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه، أما كون هذه الآراء قد انبعثت من الإيرانيين، فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه. بل الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك، إذ تقول إن التشيّع الواضح الصريح كان قائماً أولاً في الدوائر العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالي، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر. وأولئك الذين كانوا يتواثبون حول الكرسي المقدس يذكرون أنهم «السبئية» (ص ٧٠٣ س ١٧،

ص ٧٠٤ س ١١)، ولم يكونوا من الموالي، بل من العرب، إذ كانوا من عشائر: نهد وخارف وثور وشاكر وشبام[١]. وهؤلاء السبئية كانوا على علاقات سيئة بعشائرهم نتيجة لمذهبهم الغريب، خصوصاً شبام بالنسبة إلى قبيلة همدان، بينما كانوا على علاقات وثيقة جداً بالمختار، ومن أجله خاضوا النار ووشوا بقبائلهم. ونجد حديثاً عن بطانة[٢] من الشيعة العرب كانت تجتمع في منزليْ امرأتيْن بارزتيْن. وتذكر أسماء بعض أفراد هذه البطانة ومنهم ابن نوف الهمداني الذي كان ينافس مولاه وأستاذه (المختار) في التنبؤ. لقد كان يصنع وحياً لدى الكرسي المقدّس، وكان أحد عمومة الأعشى ممّن تأثر لهذا الوحي. وكان أول سادن للكرسي هو موسى بن أبي موسى الأشعري، ثم تلاه حوشب البرسمي. والبيئة هنا كلها يمنية. ويقال إن المختار قد أظهر الكرسي على أنه كرسي علي بن أبي طالب[٣]،

(١) يشهد على ذلك شهادة قاطعة لا يمكن الطعن فيها أبيات لشاعر عاصر هذه الأحداث هو أعشى همدان (الطبري ص ٧٠٤ وما يليها).

(٢) قارن كذلك «الدبابة» ـ الطبري جـ ٢ ص ٦٦٩ س ٢.

(٣) يقال إن المختار طلب هذا الكرسي من آل جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانت أم جعدة أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب لأبيه وأمه (الطبري جـ ٢ ص ٧٠٥ س ١٥ قارن ص ٦٧٢ س ٦: ص ٧٠٣ س ٢، س ٨؛ ص ٧٢٦ س ٧).

ولكن ثمت روايات أخرى تقول بعكس ذلك[١]، وهذه الروايات الثانية أقرب إلى التصديق. وعلى كل حال فقد كان الكرسي في حوزة اليمنيين، وأصله إنما يبحث عنه لديهم. ولم يكن اختراعاً أبدعه الهوى، بل مثله مثل الحجر الأسود كان قطعة وثنية وفي الأصل كرسيّ الله ثم كرسيّ علي، لأنهم ألّهوا عليّاً[٢]، وكراسي الله الخالية هذه نجدها كثيراً، وإن لم تكن عادة من الخشب:

ومنشأ السبئية يرجع إلى زمان علي والحسن[٣] وتنسب إلى عبد الله بن سبأ. وكما يتضح من اسمه الغريب، فإنه كان أيضاً يمنياً، والواقع أنه من العاصمة صنعاء. ويقال أيضاً إنه كان يهودياً. وهذا يقود إلى القول بأصل يهودي لفرقة السبئية. والمسلمون يطلقون «اليهودي» على

---

(١) تقول هذه الروايات إنه ليس هو الذي ابتدع هذه البدعة، بل أقصى ما يقال هو إنه وافق عليها. أما ابن نوف فقد تبرأ المختار منه (الطبري ٢/ ٧٠٦).

(٢) كان يشبه بتابوت بني إسرائيل [الذي فيه كانت تحتفظ إسرائيل بألواح التوراة ـ المترجم]. وكان في العادة مغطى ولا يرفع الغطاء إلا في المناسبات الرسمية.

(٣) راجع «مجلة الجمعية الشرقية الألمانية» ZDMG سنة ١٨٨٤ ص ٣٩١ وابن الأثير جـ ٣ ص ٣٣٠.

ما ليس في الواقع كذلك[١] . بيد أنه يلوح أن مذهب الشيعة، الذي ينسب إلى عبد الله بن سبأ أنه مؤسسه، إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين. والدليل على هذا ما سأحاول هنا إيراده[٢] بطريقة عارضة دون أن أعير المسألة من الأهمية أكبر مما تستحق.

كان القدماء من أنصار عليّ يعدونه في مرتبة مساوية لسائر الخلفاء الراشدين. فكان يُسلك مع أبي بكر وعمر وكذلك مع عثمان ـ طالما كان عادلاً في خلافته ـ في سلك واحد، وكان يوضع في مقابل الأمويين المغتصبين للخلافة بوصفه استمراراً للخلافة الشرعية. وحقه في الخلافة ناشئ عن أنه كان من أفاضل الصحابة وأنهم وضعوه في القمة

---

(١) قال أحد خصوم المختار نفسه عنه إنه يهودي («الأغاني» جـ ١٣ ص ٣٧ س ٣٠). وقارن أيضاً الفرزدق، نشرة بوشيه Boucher ص ٢١٠ في الآخر وص ٢١١ س ٣، س ١٠، و«الأغاني» جـ ٨ ص ٣٣ س ١٤، جـ ١٣ ص ٣٧ س ٢٧، والطبري ص ٦٨٦ س ٩.

(٢) سنعتمد هنا على ما ورد في الطبري جـ ١ ص ٢٩٤٢ عن مذهب ابن سبأ، وعلى أشعار شعراء الشيعة الأقدمين: كثير والسيد الحميري في كتاب «الأغاني». وأما ما ورد في كتب تاريخ العقائد (الملل والنحل) المتأخرة فلا تختلف جوهرياً عن هذا، وكل ما فيها هو التمييز بين السبئية والكيسانية والمختارية الخ..، وهي تمييزات لا مبرر لها، ولا خلاف إلا في الأسماء.

وتلقى البيعة من أهل المدينة، ولم ينشأ هذا الحق ـ أو على الأقل لم ينشأ مباشرة ـ عن كونه من آل بيت الرسول[١]. ومع ذلك فيبدو أن آل البيت أنفسهم قد ادعوا حق ميراث الخلافة عن رسول الله منذ البداية، وبعد وفاة عليّ كانت المعارضة ضد الأمويين تنظر إلى أبناء عليّ على أنهم المطالبون الشرعيون للخلافة. ولكن المسألة هنا كانت مقصورة على دعوى الخلافة. ولا بد أن نميز بين هذا وبين دعوة النبوة. وزعم أن النبوة لم تنته بمحمد، بل استمرت في علي وبنيه ـ كان هذا الزعم هو الخطوة الأخيرة.

إن الفكرة القائلة بأن النبي ملك يُمَثِّل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى الإسلام[٢]. ولكنّ الإسلام السّني يقول إن محمداً خاتم النبيين، وبعد وفاته حلّت محله الشريعة وهي أثر مجرد غير مشخص، ومعوِّض عنه أقل قيمة بكثير جداً. فكان ذلك نقصاً ملموساً، فمن هنا تبدأ نظريات الشيعة. وكان المبدأ الأساسي الذي بدأ

---

(١) أهل «الكساء» ـ الأغاني جـ ٧ ص ٧ س ٧.

(٢) راجع: «مقدمة لتاريخ إسرائيل» (سنة ١٨٩٩) ص ٢٢٦، ص ٢٥٦ وما يليها، وص ٢٧٣ وما يليها *Prolegomena Zur Geschichte Israels*

منه مذهبهم هو: أن النبوة، وهي المعرض الشخصي الحيّ للسلطة الإلهية، تنتسب بالضرورة إلى الخلافة وتستمر تحيا فيها (الطبري ٢/ ١٩٦١). وقبل محمد وجدت سلسلة طويلة متصلة من الأنبياء الذين يتلو بعضهم بعضاً، على نحو ما يقول اليهود ـ «سلسلة دقيقة من الأنبياء» ἀκριβής διαδοχή τῶν προφητῶν وكما ورد في أصحاح ١٨ من سفر «تثنية الاشتراع» من أنه لم يخل الزمان أبداً من نبي يخلف موسى ومن نوعه. وهذه السلسلة لا تقف عند محمد. ولكل نبي خليفته إلى جانبه يعيش أثناء حياته (هذا الـ ξεγῦος [الزميل الثاني] هو أيضاً فكرة يهودية)، فكما كان لموسى خليفة هو يوشع، كذلك لمحمد خليفة هو عليّ، به يستمر الأمر. على أن كلمة «نبي» لم تطلق على عليّ وبنيه ـ بل أطلق عليهم أسماء «الوصي» أو «المهديّ» أو «الإمام» عامة[1] ـ. ولكن إنْ لم يطلق الاسم فإنَّ الحقيقة الفعلية كانت مقصودة بوصفهم عارفين بالغيوب

---

(١) راجع عن «المهدي» بحث سنوك هرخرونيه في «المجلة الاستعمارية الدولية» جـ ١ :Snouk *Revue Coloniale Internationale* . والمهدي هو النظير العربي للمسيح اليهودي حاكم مملكة السنة الألف. أما يسوع (عيسى) فعلى عكس ذلك يظهر في يوم الحساب بعد مملكة السنة الألف.

وتجسيدات للخلافة عن الله. ثم إن السلسلة بعد محمد لم تصور على أنها طويلة، لأن الناس كانوا يترقبون نهاية الدنيا وختام التاريخ على الأرض في زمان قصير. يقول السيد الحميري («الأغاني» جـ ٧ ص ٩ وما يليها).

ألا إنَّ الأئمةِ من قُرَيشٍ　　ولاةَ الحقّ أربعةٌ سواء:

عليٌّ والثلاثة من بنيه　　همُ أسباطه والأوصياء

وكذلك بمثله يقول كثّير («الأغاني» جـ ٨ ص ٣٢). والأخير، وهو محمد بن الحنفيّة، سيظل حيّاً حتى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً، فهو ميت في الظاهر، ولكنه في الحقيقة مستور في كهف جبل رضوى (قرب المدينة) حيث الغزلان والأسود تحيا معاً في سلام مع بعضها بعضاً، ويتغذى هناك بعسل وماء[١]، ويلتمس منه الظهور عزاءا لأصحابه، بعد أن تركهم ينتظرون عودته بعد ستين عاماً («الأغاني» جـ ٧ ص ١٠، جـ ٨ ص ٣٢). وبعد موت الحسن والحسين آل ميراث الخلافة إلى محمد بن الحنفية، وبويع مدة، وممن بايعه إبراهيم بن الأشتر. وطاب للمختار أن يتخذ منه صورة مظهرية يعمل من ورائها. وأكثر من هذا أنه استغل كشيخ للجبل، فكان

---

(١) في هذا أصداء لما ورد في سفر «أشعيا» أصحاح ١١، ٧.

شبحاً باسمه يعمل كل ما يراد عمله دون أن يكون مسئولاً عنه. وكان تمجيده ـ وظل كذلك ـ علامة على غلاة الشيعة («الأغاني» جـ ٧ ص ٤، ص ٥)، وهم المعروفون ـ بـ «الغلاة» أو «المفرطين». ثم أن العباسيين بنوا شرعية حقهم في الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد بن الحنفية ووريثه، وهو أبو هاشم، قد تنازل عن حقه للعباسيين. كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة، في الكوفة وخراسان، أداة لهم، وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة إلى أبي هاشم المذكور، وقد دخلت الهاشمية بعد ذلك في الراوندية، وهؤلاء الأخيرون كانوا يمجدون ابن الحنفية على أنه الأمام الحق (المسعودي جـ ٦ ص ٥٨).

وأقيم تأليه آل بيت الرسول على أساس فلسفي بواسطة مذهب «الرجعة» أو «تناسخ الأرواح». فالأرواح تنتقل بالموت من جسم إلى جسم، وثمت بعث مستمر في المجرى الطبيعي للحياة الدنيا، وهذا في تناقض حاد في القول ببعث واحد عند زوال الدنيا. ويستفيد هذا المذهب أهمية عملية خصوصاً عن طريق رفعه إلى روح الله التي تحلّ في نفوس الأنبياء، فهذه الروح تنتقل من نبي إلى نبي آخر بعد وفاة السابق. ولا يوجد في الوقت الواحد

غير نبي واحد، ويتتابعون حتى يبلغوا ألف نبي. وتبعاً لهذا فإن الأنبياء جميعاً واحد بما يُبْعَث في كل منهم من روح الله، والحق أن النبي الصادق الحق واحد يعود أبداً من جديد. وبهذا المعنى قالوا إن محمداً يبعث في عليّ وآل عليّ، ويبنون ذلك على الآية ٨٥ من السورة ٢٨ والآية ٨ من السورة ٨٢. وهذا يذكّر كثيراً بالفكرة (المحتمل جداً أنها) يهودية، وإن كانت من البدع اليهودية، التي وردت في المواعظ المنحولة على كليمانس[١] Pseudoclementinen فروح الله تتحد في آدم مع شخص إنسان يظهر بصفة النبي الصادق في صُوَر متعدّدة وقد قدّر له السيادة على الملكوت الدائم. راجع Gieselers KG. (4. Aufl) 1,1,p. 283

ولكن المتأخرين قد فهموا ـ فيما يبدو ـ «الرجعة» على نحو آخر. فقد تصوّروها على نحو ديالكتيكى. فقالوا بفترة «غيبة» دورية للامام الصادق، ثم سمّوا ـ في مقابل ذلك ـ ظهوره من جديد «رجعة». والمعنى

---

(١) في المواعظ المنحولة على كليمانس أن الاتحاد يقع بين النبي الصادق والنبي الكاذب، لا بين النبي وخليفته (موسى ويوشع). وهذه الفكرة الأخيرة لعلها أقدم، ولكنها تصطدم شيئاً ما مع فكرة الميلاد من جديد. فاليسع يرث عند موت إيليا نصيب الميلاد الأول من روحه.

الأصيل للرجعة يظهر جليّا من مرادفتها لتناسخ الأرواح، والسيد الحميري يؤمن أيضاً برجعته هو نفسه، ومن أجل ذلك كانوا يسخرون منه ويشنّعون عليه («الأغاني» جـ ٧ ص ٨). كما يتضح أيضاً من كون كثيِّر كان يعد جميع أبناء الحسن والحسين أنبياء صغاراً، لأنه كان يؤمن بالرجعة (الأغاني ٨/ ٣٤)، وكذلك من كون محمد كان ينظر إليه على أنه يرجع، خصوصا في ورثة دمه (آله) وبنوته[١]. والمؤرخون المحدثون لم ينتبهوا إلى هذا ولم يعرفوه. ولعل العقيدة القديمة كانت تذهب إلى حدّ القول بأن الأمام الصادق حيّ دائما على الأرض، وإن لم يكن دائما في عزته وسلطانه.

ومما هو جدير بالذكر والتنويه ما قاله أبو حمزة[٢]

---

(١) [في نص المؤلف: «أبو حزم» ـ وصوابه ما أثبتنا إذ هو أبو حمزة الخارجي ـ راجع «الأغاني» ص ٩٨ وما يليها. واسمه المختار بن عوف الأزدي ثم السّلمي، من أهل البصرة، وراجع الطبري كذلك ـ المترجم].

(٢) الطبري جـ ١ ص ٢٩٤٢. ـ إن الموازنة بين رجعة محمد ورجعة عيسى خطأ وسوء فهم، لأن محمداً لا يرجع ليوم الحساب، فإن هذا الاعتقاد خاص بعيسى وحده، ويقوم على أساس مختلف تماماً، ولا يتعلق بالدهر (الأيون) الحالي، بل بالدهر المقبل. راجع كذلك ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٦ س ٢ وما يليه، «الأغاني» جـ ٣ ص ٢٤ س ٩، ص ١٨٨ س ٩ وما يليه، جـ ٤ ص ٤٢ س ٢٨، جـ ١١ ص ٤٦ س ٦.

الخارجي (سنة ١٣٠ هـ) في خطبة له على المنبر بالمدينة عن الشيعة («الأغاني» جـ ٢٠ ص ١٠٧)، قال: «شيعة ظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب. قد قلّدوا أمرهم أهواءهم، وجعلوا دينهم عصبيّة لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم: غيّاً كان أو رشداً، أو ضلالة أو هدى. ينتظرون الدُّول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوق لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه أو يحويه جسمه. ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون إذا ظهروا بها، ولا يعرفون المخرج منها. جفاة في الدين، قليلة عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجّيهم من عقاب الأعمال السيئة[١]». وبقول مشابه لهذا يقول الخليفة هشام في كتاب إلى يوسف بن عمر (الطبري جـ ٢ ص ١٦٨٢ س ٥ وما يليه). إن عبادة الشيعة لله كانت

(١) كان السيد الحميري يشرب الخمر ولا يقلع عن ذلك، ولكنه كان يعتقد أن من يتشيع لعلي سيغتفر له شرب الخمر.

عبادة لبني الإنسان، والنتيجة لذلك قيصرية بابوية معاً. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، ولكن إمامتهم الشرعية القائمة على دم الرسول (ذرية آل للبيت) لم تكن أفضل منها، إذ كانت تفضي إلى إهدار القانون وكسر الشريعة. فالإمام عندهم كان فوق النصوص الحرفية وكان يعلم الغيب، فمن اتبعه وأطاعه سقطت عنه التكاليف وخلا من المسئولية. تلك أمور أخذها عليهم الخوارج خصوصاً وأبرزوها، إذ كان الخوارج يضعون الشريعة المقررة فوق كل إنسان ويتشددون في هذا أكثر جداً من سائر الفرق، ولذا كانوا يحكمون على صلاح الإمام أو فساده بحسب تمسكه بأحكام الشريعة.

وكان تحوّل الموالي إلى شيعة غلاة حادثاً ذا أهميّة كبرى في التاريخ العالمي[١]. ولعل المختار كان قد وجد الموالي من قبل وقد أصبحوا شيعة، ولكن الفضل يرجع إليه في كونه هو الذي دفع بهم إلى الميدان والعمل. ولم يكن يرمي في بداية الأمر إلى إثارتهم ضد العرب، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق، وكانت الشيعة كلها من ورائه حتى استطاع أن

---

(١) إنّ الفرق أكثر انطباعاً بالدين وأقل تمسكاً بالعصبية القومية من الدين الرسمي المرتبط بالسلطان والقومية السائدة الحاكمة.

يجتذب إليه الأرستقراطية العربية المعادية. وشاء القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى والمسلمين من الطبقة الثاني، فمن يأخذ عليه ذلك، لا يكن له الحق في أن يأخذ على الحجّج أنه عمل العكس فأكَّد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه. والحق أن المختار خليق بالمديح لكونه كان أسبق من غيره في إدراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي، إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربي هو الذي يُعْطَى الحقوق المدنية الكاملة في الحكومة الدينية. ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي، لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية. ولكن العرب لم يشاءوا الحدّ من امتيازاتهم عن طيب خاطر. ومن هنا اضطر المختار إلى خوض الكفاح ضدّهم وإلى الارتماء بكليته في أحضان الموالي والسبئية. ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه، فقضى على الموالي بوصفهم قوة سياسية. ورغم ذلك فإن ذكرى سلطانهم (الذي كان كالحلم) في سنة ٦٦ ـ ٦٧ لم تنطفئ، وظلت بقية من حزبهم تعمل في الخفاء. وهذه البقية عقدت بعد ذلك بزمان طويل صلات مع خراسان، حيث مركز العصبية الإيرانية التي أثارت العاصفة التي أطاحت فيما بعد بالسيادة العربية. وهكذا كان

المختار سلفاً لأبي مُسْلم الخراساني. والأرواح التي حضَّرها نمت وازدادت عددها أكثر مما كان يتصوّر. ولهذا فإن أثره ـ على الرغم من إخفاقه ـ كان كبيراً جداً، ولكنه لم يكن يقصد إليه قصداً. والقول بأنه خان بني قومه لحساب الفرس فأطاحوا برأسه جزاءاً وفاقاً لخيانته هذه، هذا القول حكم مع الهوى وخطأ من عدّة نواح. وبالجملة، فإن المختار ظاهرة حافلة بالمأساة لا يحق لنا أن نشعر نحوها بنفس النفور الذي شعر به نحوها معاصروها.

ـ ٦ ـ

ألزمت السلطة الحاكمة الموالي حدودهم، وأثار المختار الروع والتشكّك في نفوس العرب. وكان أهل الكوفة جميعاً من الشيعة بالقدر الذي كانوا به يعارضون حكم الأمويين، ولم يكن تشيّعهم عن تفانٍ في آل عليّ وحرص على أن يكون الأمر لهم (الطبري جـ ٢ ص ١٢٥٨ وما يليها). والثورة التي قام بها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد قصد بها إلى استقلال العراق بحكم نفسه ضد سيادة الشام. والأمر نفسه يقال عن ثورة يزيد بن المهلّب. أما الشيعة الحقيقيون فقد اعتصموا بالهدوء وقتاً طويلاً.

وأحفاد النبي، وهم أبناء عليّ من فاطمة وأحفادهم،

قد عاشوا في المدينة، بلد الأرستقراطية التي تعيش على بيت المال في الإسلام. وكانوا أبرز الناس في المجتمع المدني المنحلِّ وأكثرهم شعبية. وكان بنو أميَّة يدلِّلونهم طالما ظلوا ملتزمين الدعة والهدوء، أما بنو الزبير وأحلافهم من بني مخزوم فكانوا يبغضونهم. وكان يودُّ كل امرئ أن يزوِّجهم بناته، واستغلّوا الفرصة لإكثار الدم المقدس [يقصد دم النبي ـ أعنى نسله]. فعاشوا بمعزل عن كل همّ واضطراب في المدينة التقية ذات الخمر والغناء والقيان (الطبري ص ١٩١٠ س ١٢). حقاً إنهم لم يطلِّقوا دعواهم في الأحقية للخلافة، ولكنهم لم يلاحقوا الدعوى بانتظام واستمرار ولم يعدوا العدة لتحقيقها عن وعي كامل بأهدافهم. ولم يشاءوا استغلال ذوي النزعات الثائرة والأحلام الهادفة إلى القضاء على سلطان العرب والمتآمرين، بل تركت هؤلاء للعباسيين الذين عرفوا كيف يستغلونهم. ولم يكن بين أحفاد عليٍّ هؤلاء رجالٌ بالمعنى الحقيقي، أما النسوة فكان من بينهن اللواتي يحملن طابع الذرية والأصالة، وخصوصاً سُكَينة بنت الحسين. وكان نسل الحسين ـ وهو الأحدث ـ هو النسل الرئيسي لا نسل الحسن، لأن الحسن باع حقه في ميراث الخلافة بيعة وكس

وخزي، بينما الحسين أراق دمه فداءاً لحقِّه. وكان خليفة الحسين هو علي بن الحسين الذي أنقذ في كربلاء فكان يخاف النار. ثم ظهر من أبنائه زيد ومحمد، ثم ابن هذا الأخير وهو جعفر.

وقرب نهاية خلافة هشام وقع الحسنيون في خصومة مع الحسينيين بشأن بعض الأوقاف التي حبسها علي أو النبي محمد نفسه على ذريته. فاحتكم زعيم الحسينيين ـ وهو زيد بن علي ـ إلى الخليفة، وذهب بنفسه ومعه بعض بني قرابته إلى هشام في الرصافة. وكان يوسف بن عمر، والي الكوفة، قد أرغم يزيد بن خالد القسري ـ ابن سلفه ـ على الكشف عن مصادر ثروته، وانتزع منه بالتعذيب اعترافا بأنه يدين زيد بن علي بمبلغ كبير من المال. فسأل هشام زيدا وصحبه عن هذه المسألة، فأنكروا هذه الواقعة، فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد وكان يزيد محبوسا. فكان عليهم الذهاب إلى الكوفة، وهكذا سقطت الشرارة في برميل البارود. فقد سحب يزيد الاعتراف الذي انتزع منه بالتعذيب حينما ووجه بهم، وعادوا من الكوفة إلى المدينة. ولكن زيدا لم يعد معهم، فألحّ عليه الوالي في الرحيل فارتحل، ثم عاد إلى الكوفة بعد أن وصل إلى أول

مرحلة في الطريق إلى المدينة على الرغم من نصح أحد أقاربه الفطنين له بعدم العودة وتوسُّله إليه في ذلك. فتعلق الشيعة بزيد بن الحسين وقالوا له إن الوقت موات، وإن سيطرة الأمويين على الكوفة لا تستند إلا إلى عدد قليل من جنود الشام لا يستطيعون التغلّب على المائة ألف جندي من جنود الكوفة، بل ولا على بني مذحج أو همدان أو بكر أو تميم وحدهم. فاستجاب لرأيهم، ولكنه تذرع ببعد النظر والحيطة فكان يغيّر مركز إقامته باستمرار. وتزوج من أسرتين أقام بينهما. واستمر مقامه حوالي شهرين في المجموع، كان خلاله يقوم بالاستعدادات للثورة وباكتساب الأنصار في البصرة والموصل أيضاً، وبلغ عدد جنوده في الكوفة ١٥٠٠٠ رجل. وكانت البيعة له تتضمن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ومقاومة الحكام الجائرين ونصر المستضعفين ورد الفيء إلى من حرموا منه، وتوزيع الخراج بالعدل على مستحقيه، ورد الحقوق إلى أهلها، وإعادة من أرسلوا إلى القتال في أماكن نائية إلى ديارهم، والدفاع عن آل البيت ضد أعدائهم الذين اغتصبوا حقوقهم. ولكن الكثيرين رأوا أن زيداً لم يكن متمسكاً بحقوقه كما يجب. إذ أنه كان يتولى الشيخينْ، أبا بكر وعمر فيرى

أنهما خليفتان شرعيّان ـ وهذا القول علامة مميزة جيداً له ولغالبية أنصاره من الكوفة ـ، أو على الأقل امتنع من القول بأنهما مغتصبان للخلافة. قال الذين أخذوا عليه هذا الموقف إنه بذلك يمكنه ألا ينكر بني أميّة، ولهذا انفصل عنه غلاة الشيعة، ولذلك سمي هؤلاء باسم «الرافضة»[١].

وهؤلاء الرافضة بايعوا أخا زيد وهو محمد بن علي، وبايعوا بعده ابنه جعفر على أنهما الإمامان الحقيقيان، والواقع أن هذين لم يشاءا من هذه البيعة شيئاً[٢].

---

(١) هم أنفسهم يقولون إن هذا الاسم لم يكن زيد أول من أطلقه عليهم، بل أطلقه من قبل المغيرة بن شعبة (الطبري جـ ٢ ص ١٧٠٠). قارن الطبري ٣/ ٥٦١ س ٣، «الكامل» ص ٥٤٨ س ١٠، «الأغاني» جـ ٣ ص ٢٤ س ١٩، جـ ١٢ ص ٢٣ س ٢٠، جـ ١٨ ص ٥٩ س ٤ وما يليه. والسبئية هو الاسم الأقدم، والرافضة الاسم الأحدث، لشيء واحد بعينه.

(٢) ورد في «الأغاني» جـ ١٥ ص ١٢١، جـ ١٩ ص ٥٨ أن بعض مجانين الشيعة الذين ثاروا قبل ذلك بسنة أو سنتيْن في ولاية خالد القسري كانوا يصيحون: «لبيك جعفرا» وهذه الصيحة تتضمن عبادة تأليه لجعفر الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. أما في الطبري ص ١٦٢٠ فلم يرد شيء من هذا، ولا يسمون هناك باسم «الجعفرية» بل «الوصفاء» (العبيد، الموالي). وكانوا ثمانية رجال فقط ولم يكونوا عرباً، وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد الرجل العجوز، وكان يقال إنه كان ساحراً. وقد كان لخبر ثورتهم وقع شديد على خالد القسري، وكان على المنبر ساعتئذ، حتى طلب أن يأتوه بماء ـ مما أثار السخرية الشديدة منه. فلما أتى بهم موثقين إليه، أمر بإحراقهم بطريقة هي الغاية في القسوة والبشاعة.

وكان الوالي ـ يوسف بن عمر ـ لا يقيم في الكوفة، بل في الحيرة، وفي الحيرة كان القسم الأكبر من جنود الشام. واستطاع أخيراً الحصول على معلومات دقيقة عن حركات زيد بن علي بواسطة اثنين من أنصاره حبسهما يوسف بن عمر. ثم عرف أن زيداً سيضطر إلى الإسراع بالثورة ـ بعد حبس هذين ـ وأنه حدد يوم الأربعاء غرة صفر سنة ١٢٢ (٦ يناير سنة ٦٤٠) للقيام بحركته[١]. فأمر يوسف بدعوة الناس يوم الثلاثاء (السابق على يوم بدء الثورة) إلى المسجد، وهناك حبسهم وقام بعض جنود الشام بحراستهم. ويبدو أن هؤلاء المحبوسين في المسجد قد كانوا راضين بهذه الحماية من عدم حذرهم. فلما أراد زيد إطلاق سراحهم ـ وكان معه ٢١٨ رجل معهم في ليلة الأربعاء وكان البرد قارساً، لم يحركوا ساكناً، واضطر زيد إلى الانسحاب من المسجد، لأن ألفين من جنود الشام قد تحركوا من الحيرة متجهين إليه. فهزمهم يوم الأربعاء وكان مسيطراً على ميدان المعركة يوم الخميس، إلى أن جاءتهم النجدة

---

(١) الواقدي في الطبري جـ ٢ ص ١٦٦٧ عن سنة ١٢١ هـ. ولكن سنة ١٢٢ التي يذكرها أبو مخنف يؤيدها يوم الأسبوع: لأنه في سنة ١٢٢ وحدها كان أول صفر هو يوم الأربعاء.

في المساء بثلثمائة من القواسين القيقانية[١] والبخارية، فأوقع هؤلاء بحشود جنود الكوفة خسائر بالغة، فلما كان الليل انسحب أهل الكوفة إلى المدينة وتفرقوا في دورهم. وأصاب زيداً نفسه سهم ومات لما نزع منه السهم، في دار بشارع البريد. ودفن في قاع قناة حبس عنها الماء ثم أطلق ثانية. ولكن المكان اكتشف فيما بعد وانتزعت الجثة، ثم أخذت إلى الكوفة وصلبت[٢]، وبقيت مصلوبة هناك إلى موت هشام، أما الرأس فقد أرسلت إلى دمشق ومن ثم إلى المدينة (أبو مخنف في الطبري جـ ٢ ص ١٦٧٦ ـ ص ١٦٧٨، ص ١٦٩٨ ـ ص ١٧١١).

أما يحيى، الابن الصغير جداً لزيد بن علي، فقد اختفى في نينوى (على الفرات عند كربلاء) عند مولى لبشر بن بشر بن مروان. ومن هناك فرّ إلى خراسان. وظل مختفياً في دار عربي نبيل في بلخ إلى أن مات هشام، ثم دُلّ عليه وسُلِّم. وأمر الوليد الثاني بإطلاق سراحه، ولكن بأمر الوالي نصر دفع من مكان إلى مكان حتى مدينة الحدود الغربية

(١) مركفرت: «ايرانشهر» ص ٥٠ Marquart: *Eranschahr*

(٢) صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نرد مهديا على الجذع يصلب

(«الكامل» ص ٧١٠).

بيهق. ولو أنه استمر في المسير لأصبح في منطقة ولاية يوسف بن عمر. فلم يشأ أن يقع في قبضة يد هذا، فمضى ناحية المشرق عائداً، واستطاع أن يصل، هو والسبعين رجلا الذين معه، إلى هراة، وإن كان عمّال نصر قد أمروا بألا يدعوه يمر. ومن هراة ارتحل إلى جوزجان. ولكن فاجأه مطاردوه الذين بعث بهم في إثره نصر، فسقط في القتال مع صحبه عند الأنبار (ياقوت ١/ ٣٧٠). وبأمر الخليفة أحرق فتى العراق (يحيى بن زيد بن علي) وألقى برماده في الماء[١]. وبعد ذلك ظهر أبو مسلم الخراساني مطالباً بالثأر ليحيى وقتل قتلته (أبو مخنف في الطبري جـ ٢ ص ١٧٧٠ ـ ١٧٧٤).

وهكذا كان مصير زيد كمصر جده الحسين. كذلك أحدث مصرعه تغيراً عند أولئك ـ أو عند بعضهم ـ الذين وعدوه بالإخلاص ولم يفوا بوعدهم، فقد أصبحوا له أنصاراً صادقين وسمّوا أنفسهم باسمه: «الزيدية». ويتميزون من الرافضة بأنهم يتولّون سلالة الحسين.

---

(١) راجع سفر الخروج من التوراة أصحاح ٣٢ [في نص المؤلف: «أحرق عجل العراق...» والإشارة إلى عجل بني إسرائيل المذكورة في سفر الخروج في الأصحاح المذكور ـ المترجم].

وآخر ثورة قامت بها الشيعة في عهد الأمويين هي تلك التي قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن حفيد أخي علي بن أبي طالب: جعفر، وهو لهذا لا يعدّ حقّاً من آل البيت. جاء سنة ١٢٦ هـ مع إخوته إلى الكوفة ليطلب العطاء من الوالي من قِبَل يزيد الثالث، وهو ابن عمر، فأقام هناك مدة وتزوج بابنة حفيد شَبَث بن ربعي التميمي. وبموت يزيد الثالث واضطراب شئون الخلافة في الشام تزعزعت سلطة ابن عمر وسائر الولاة عامّة. فانتهز الشيعة في الكوفة هذه الظروف وبايعوا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر واقتادوه إلى القصر. كذلك بايعه سائر أهل الكوفة. ثم خرجوا بعد ذلك معه لقتال أهل الشام الذين كانوا مع ابن عمر في الحيرة، وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٧ هـ (أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٧٤٤)، ولكنهم فرّوا حينما نشب القتال. ولم يثبت للقتال غير ربيعة والزيدية فقاتلوا بشجاعة، وتابعوا القتال عدة أيام في شوارع الكوفة إلى أن أعطوا الأمان وأعطى عبد الله بن معاوية الإذن بالانسحاب (الطبري جـ ٢ ص ١٨٧٩).

فارتحل ابن معاوية ماراً بالمدائن إلى إقليم ميديا، وازداد عدد أتباعه، وانضم إليه كثير من الموالي والعبيد من الكوفة

وغيرها من المواضع. فاستقر به المقام أولاً في أصفهان، ثم ارتحل منها في سنة ١٢٨ إلى اصطخر في إقليم فارس، ومن هناك سيطر على منطقة شاسعة جداً: فالمنطقة الشرقية كانت في ذلك الحين بلا سلطان، ومن هجم استتب له الملك. فتجمع حوله جماعة مختلفة كل الاختلاف، وكان من بينهم أيضا عباسيون (عبد الله بن علي) وأمويون، كانوا يؤملون أن يظفروا منه بوظيفة أو عطيّة. وأعجب ما في الأمر أن الخوارج الذين طردهم مروان الثاني من الموصل، برئاسة شيبان بن عبد العزيز وسليمان بن هشام، قد فرّوا إلى عبد الله بن معاوية (نهاية سنة ١٢٩ أو بداية سنة ١٣٠). ولكنه هُزِم وجميع هؤلاء عند مرور الشّاذان، هزمتهم جيوش مروان الثاني، وبهذا انهارت دولته، أعني دولة عبد الله بن معاوية (في نهاية سنة ١٣٠، راجع الطبري جـ ٢ ص ١٩٧٨، س ٤). ففرّ إلى كرمان ثم سجستان حتى بلغ هراة، على أن يجد ترحيباً لدى أبي مسلم الخراساني، ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه وخنقوه بالأغطية. وكان له بعد ذلك بزمان قبر معروف في هراة يزار (المدائني في الطبري جـ ٢ ص ١٩٧٦ وما يليها، ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٨٤ وما يليها).

وفي تلك السنوات الأخيرة لدولة الأمويين اختلطت الحدود وامتزجت بين القوى المتباينة المتعارضة فيما بينها

ولكنها تعاونت وتساندت في نضالها ضد الدولة المتداعية، دولة الأمويين، حتى كان الشيعة والخوارج يقاتلون تحت لواء واحد. على أن تشيع عبد الله بن معاوية قد بدا بطبعه منذ البداية متهماً مشكوكاً فيه. لقد كان ـ فيما يقوله صاحب «الأغاني» (جـ ١١ ص ٧٥ وما يليها) ـ سخياً ذكياً وشاعراً موهوباً، ولكنه كان في الوقت نفسه عديم الضمير ماجناً. وكان يحيط نفسه بالملحدين، ومن هؤلاء من صُلِب فيما بعد لأنه أنكر البعث والحساب وكان يقول إن الناس كالأعشاب. ولقد كان بين الشيعة والمُجّان صلات قديمة. أما فوائد الثورات الفاشلة التي قام بها الشيعة فقد جناها العباسيون. فبعد أن قام غيرهم بالإعداد لهم وسفكوا دماءهم، جاءت ساعتهم بعد انتظار طويل.

فهرس الأعلام

(غ)

(ن)

فهرس الأماكن(*)

(*) لم نذكر البصرة والكوفة لورودهما في معظم صفحات الكتاب.

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

جدول الخطأ والصواب[†]

ص	س	خطأ	صواب
٦٧	٩	سنة هـ	سنة ٦١ هـ
٧٣	١٧	فجند له	فجندله
١٧٧	٣	عبد الله	عبيد الله
١٩٨	٦	ـ ٥ ـ	تُحذف

(†) [تمّ تصحيح الأخطاء الطباعية في النص.]

Islamica
-22-

Julius Wellhausen

Die religiös-politischen Oppositionsparteien
im altem Islam

I. Die Chavârig.   II. Die Shî‘a

Ins Arabish übersetzt
Von

‘ABDURRAḤMẪN BADAWI

Kairo
1958